ISSN:2707-8183

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة

تصدرعن الاتحاد الدولي للمؤرخين للتنمية والثقافة والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني اذار لسنة 2019

ISSN:2707-8183

International Historians Association
For Culture, Development and Social Sciences
الاتحاد الدولي للمؤرخين
للتنمية والثقافة والعلوم الاجتماعية

هيئة التحرير واللجنة العلمية الاستشارية

رئيس التحرير

الاستاذ الدكتور ابراهيم سعيد البيضاني

نائب رئيس التحرير

الدكتور عثمان برهومي تاريخ تونس

سكرتيرة التحرير

الدكتورة وفاء سمير نعيم اجتماع مصر

هيئة التحرير

الاستاذ الدكتور ناهدة حسين علي الاسدي تاريخ العراق

الاستاذ الدكتورة جنان عبدالجليل هموندي تاريخ العراق

الهيئة العلمية

- **الاستاذ الدكتور صباح رميض تاريخ جامعة بغداد**
- **الاستاذ الدكتور علاء الرهيمي تاريخ جامعة الكوفة**
- **الدكتور الدكتور لحسن أوري تاريخ المغرب**
- **الاستاذ الدكتور ميلاد مفتاح الحراثي علوم سياسية ليبيا**
- **الاستاذ الدكتور حاجي دوران اجتماع تركيا**
- **الدكتور سليم الهناني تاريخ سلطنة عمان**
- **الاستاذ المحاضر الدكتور نورالدين ثنيو تاريخ الجزائر**
- **الدكتور عبد المومن بن صغير قانون الجزائر**

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية
السياسات والقواعد والاجراءات

ترحب المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية البحوث العلمية المكتوبة وفقا للمعايير العلمية في اي من الحقول الدراسات التاريخية او العلوم المساعدة ذات العلاقة ويشمل ذلك كل العلوم نظرا لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاطات الانسانية كافة مع مراعاة عدم تعارض الاعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، والا تتخذ ايه صفة سياسية والا تتعارض مع الاعراف والاخلاق الحميدة، وان تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية وتكتب بلغه سليمه واسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية الى استيعاب رو افد كل الافكار والثقافات ذات البعد التاريخي ويسعدها ان تستقبل مساهمات الافاضل ضمن اقسام الدورية البحوث والدراسات عروض الكتب عروض الاطاريح الجامعية وتقارير اللقاءات العلمية.

هيئه التحرير

تعطي هيئة التحرير الأولوية في النشر والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية الواردة للمجلة، ووفقا لاعتبارات علمية و فنية تراها هيئه التحرير.

وتقوم هيئه التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالمجلة للتأكد من تو افر مقومات البحث العلمي وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.

يحق لهيئة التحرير اجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار تنسيق النص في عمودين مع مراعاة تو افق حجم ونوع الخط مع نسخه المقال المعياري.

هيئه التحكيم

يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصيه هيئه التحرير والمحكمين، اذ تجري عملية التحكيم السري للابحاث المقدمة وفقا لاستمارة خاصة بذلك.

يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث الى المدى ارتباط البحث بحقل المعرفة والقيمة العلمية لنتائجه ومدى اصاله افكار البحث وموضوعيه ودقه الادبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، فضلا عن سلامه المنهج العلمي المستخدم في الدراسة ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث وسلامه تنظيم اسلوب العرض من حيث صياغة الافكار ولغة البحث وجوده الجداول والاشكال والصوروووضوحها.

البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون اجراء تعديلات جذريه عليها تعادل الى اصحابها لأجرائها في موعد اقصاه اسبوعين من تاريخ ارسال التعديلات المقترحة الى المؤلف اما اذا كنت التعديلات طفيفة فتقوم هيئه التحرير بإجرائها.

تبذل هيئه التحرير الجهد اللازم لإتمام عمليه التحكيم من متابعه اجراءات التعديل والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة حتى التوصل الى قرار بشأن كل بحث مقدم من قبل النشر بحيث يتم اختصار الوقت الازم لذلك الى أدني ممكن.

في حاله عدم مناسبه البحث للنشر تقوم الدورية بأخطار الباحث بذلك، اما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها واستوفت قواعد وشروط النشر بالمجلة فيمنح كل باحث افاده بقبول بحثه للنشر.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الاعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها وتقديمها للنشر في مجله الكترونيه او مطبوعة اخرى.

يجب ان يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه متوافقا مع عنوانه.

التزام الكتاب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات و اقتباس الافكار وعزوها لأصحابها وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الاصول العلمية في اعداد وكتابه البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع مع الالتزام بعلاقات الترقيم المتنوعة.

اعطاء مساحة واسعة للتحليل والاستنباط والقراءات الفكرية والتوقعات المستقبلية بالنسبة للموضوعات التي تأخذ بعدا تاريخيا سياسيا.

ارشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي الا يزيد حجم البحث على ثلاثين 30 صفحه ولا يقل عن 12 صفحة حجم A4 ،مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميا بشكل البحوث بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل ملخص مقدمه موضوع البحث خاتمه ملاحق الاشكال الجداول الهوامش المراجع .

عنوان البحث

يجب ان لا يتجاوز عنوان البحث عشرين 20 كلمه وان يتناسب مع مضمون البحث ويدل عليه او يتضمن الاستنساخ الرئيسي.

نبذه عن المؤلف والمؤلفين

يقدم مع البحث نبذه عن كل مؤلف في حدود 50 كلمه تبين اخر درجة علمية حصل عليها واسم الجامعة والكلية والقسم التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة والوظيفة الحالية والمؤسسة او الجهة او الجامعة التي يعمل لديها والمجالات الرئيسية لاهتماماته البحثية مع توضيح عنوان المراسلة العنوان البريدي وارقام التليفون الموبايل الجوال والفاكس.

صور شخصية

ترسل صوره واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع .

ملخص البحث

يجب تقديم ملخص باللغة الانكليزية للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود 100 الى 150 كلمة، اما البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود 150 الى 200 كلمة.

الكلمات المفتاحية

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشره كلمات يختاره الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث وفي حاله عدم ذكرها تقوم هيئه التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وادراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث اثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكه الانترنيت.

مجال البحث

الإشارة الى مجال تخصص البحث المرسل العام والدقيق.

المقدمة

تضمن المقدمة بوضوح دواعي اجراء البحث والهدف وتساؤلات وفرضيات البحث مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

موضوع البحث

يراعي ان تتم كتابة البحث بلغة سليمه واضحه مركزة، وبأسلوب علمي حيادي وينبغي ان تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحه وملائمه لتحقيق الهدف وتتوفر فيها الدقة العلمية مع مراعاه المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدا عن الحشو تكرار السرد.

الجداول والاشكال

ينبغي ترقيم كل جدول شكل مع ذكر عنوان يدل على فحواه والإشارة اليه في متن البحث على ان يدرج في الملاحق ويمكن وضع الجداول في متن البحث اذا دعت الضرورة الى ذلك.

خاتمة البحث

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث على ان تكون موجزه بشكل واضح ولا تأتي مكرره لما سبق ان تناوله الباحث في اجزاء سابقه من موضوع البحث.

الهوامش

يجب ادراج الهوامش بطريقة الكترونية في اسفل كل صفحة في شكل ارقام متسلسله لكل صفحة، ووفقا لدليل شيكاغو.

حجم ونوع الحروف

تعتمد المجلة الدولية للدراسات التاريخية حرف Sakkal Majalla حجم 20 غامض للعنوان الرئيسي وحجم 18غامض للعنوان الفرعي وحجم 16 غامض للمتن وحجم 14 عادي للهوامش.

عروض الكتب

- تنشر المجلة المراجعات التقييمية للكتب العربية والأجنبية حديثه النشر.
- يجب ان يعالج الكتاب احدى القضايا او المجالات التاريخية المتعدة ويشتمل على اضافه علميه جديده.
- يعرض الكتاب ملخصا و افيا لمحتويات الكتاب مع بيان اهم اوجه التميز واوجه القصور و ابراز بيانات الكاتب كامله في اول عرض اسم المؤلف المحقق المترجم الطبعة الناشر مكان النشر سنه النشر السلسلة عدد الصفحات .

- الا تزيد عدد الصفحات العرض عن 8 صفحات.

عروض الاطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الاطاريح الجامعية رسائل الدكتوراه والماجستير التي تم اجازتها بالفعل ويراعي في الموضوعات المعروضة ان تكون حديثه وتمثل اضافة علمية جديدة في احدى حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة. وخاصة التي تعالج موضوعات فكرية تاريخية تسهم في وضع اطار نظري لمدرسة تاريخية جديدة.
- ابراز البينات كما وردت في اول العرض اسم الباحث اسم المشرف الكلية الجامعة الدولة سنه الإجازة.
- ان يشمل العرض على مقدمة لبيان اهمية موضوع البحث مع ملخص لمشكلة موضوع البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وادواته وخاتمة لاهم ما توصل اليه الباحث من نتائج.
- ولا تزيد عدد صفحات عرض الاطروحة او الرسالة عن 8 صفحات.

تقارير اللقاءات التعليمية

- ترحب المجلة بنشر التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية سينمار الحديثة الانعقاد والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية والاجتماعية والانسانية.
- يشترط ان يغطي التقرير فعاليات اللقاء نوه مؤتمر ورشه عمل سينمار مركزا على الابحاث العلمية واوراق العمل المقدمة ونتائجها واهم التوصيات التي يتوصل اليها اللقاء.
- لا تزيد عد صفحات التقرير عن 6 صفحات.

قواعد عامة

ترسل كافه الاعمال المطلوبة للنشر بصيغه وورد, ولا يلتفت الى اي صيغ اخرى .

المساهمون للمرة الاولى من اعضاء هيئه التدريس بالجامعات يرسلون اعمالهم مصحوبة بسيرهم العلمية وفقا أحدث نموذج مع صورة شخصية واضحة.

ترتيب الابحاث عند نشرها في المجلة وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث او قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئوليه كامله عما يقدمه للنشر بالمجلة وعن توفر الأمانة العلمية به سواء لموضوعه او لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الاشارة الى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والافكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن راي أحد غيره وليس للمجلة او هيئة التحرير ايه مسئوليه في ذلك.

- ترسل المجلة لكل صاحب بحث منشور نسخة الكترونية متكاملة للعدد الصادر.
- يحق للكاتب اعاده نشر البحث بصوره ورقيه او الكترونيه بعد نشره في المجلة دون الرجوع لهيئة التحرير ويحق للمجلة اعاده نشر المقالات والبحوث بصوره ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للمجلة اعاده نشر البحث المقبول منفصلا او ضمن مجموعه من المساهمات العلمية الاخرى بلغتها الأصلية او مترجمة الى ايه لغة اخرى وذلك بصوره الكترونيه او ورقية لغايات غيرربحيه.
- لا تدفع المجلة ايه مكافئات ماليه عما تقبله للنشر فيها وبعد ما ينشر فيها اسهاما معنويا من الكتاب في اثراء المحتوى الرقمي العربي.

الاصدارات والتوزيع

- تصدر المجلة الدولية للدراسات التاريخية بشكل دوري فصلي، ومن الممكن ان تصدر شهريا وفقا للابحاث المقدمة والملفات العلمية.
- المجلة متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الالكتروني على شبكه الانترنيت.
- ترسل الاعداد الجديدة الى كتاب المجلة على بريدهم الالكتروني الخاص.
- يتم الاعلان عن صدور الدورية عبر المو اقع المتخصصة والمجموعات البريدية والشبكات الاجتماعية.

رسوم النشر: 100 دولار

المراسلات

ترسل الاعمال المطلوبة للنشر الى رئيس التحرير

historical.magazine2015@gmail.com

نشاط منظمة الجيش السرية (l'OAS) بالجزائر وتحديات الثورة التحريرية

د/ نفيسة دويدة(*)

الملخص باللغة العربية:

لم تكن المرحلة الأخيرة من الثورة التحريرية الجزائرية [1960- 1962م] بالمرحلة الهينة على الصعيد الداخلي، ولا على مستوى تقدم سير المفاوضات الجزائرية الفرنسية الجارية، والسبب بعود لجملة من الظروف والعوائق التي واجهت الطرفين على السواء، ومنها بالخصوص نشاط منظمة الجيش السرية الإرهابية. وعليه نحاول في هذا المقال رصد ابرز أعمال هذه المنظمة الدموية، ومدى تأثيرها على ملف المفاوضات.

الكلمات المفتاحية: الجزائر/ منظمة الجيش السرية/ المفاوضات الجزائرية الفرنسية/ الجنرال ديغول

The abstract:

The final phase of the Algerian revolution [1960- 1962 m] is the most important phase, because it have seen the progress of the algerian-French negotiations, and why stick to a set of circumstances and the obstacles faced by the two parties alike, including in particular activity of the secret terrorist military organization (OAS). Therefore in this article we are trying to monitor the most prominent works of this bloody organization, and its impact on the negotiations file.

The key words: Algiers, the secret terrorist military organization (OAS), the algerian-French negotiations, General De Gaulle.

مقدمـــــة:

من الصعوبة بمكان الإلمام بتفاصيل حدث قريب منا زمنيا، تملؤه الملفات الثقيلة، وتجره التجربة الإنسانية في أبشع صورها وامتداداتها و آفاقها، حدث أنهى مشوار الوجود الفرنسي ليس بالجزائر فقط؛ إنما بإفريقيا قاطبة، وبالمقابل فتح المجال الشرعي للإعلان عن تحرر الجزائر و انتصار قضيتها.

وسأحاول في هذه الدراسة التعرض بإيجاز لنشاط منظمة الجيش السرية بالجزائر، وسعيها الحثيث لإيقاف مسار المفاوضات الجارية بين الطرفين الجزائري والفرنسي (في آخر مراحله)، وأيهما استدعى ظهور الآخر؟ بمعنى هل تم تسريع وتيرة التفاوض، والتوصل إلى حل نهائي نتيجة الضربات الدموية التي

* أستاذة محاضرة في التاريخ المعاصر، بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر العاصمة ، الجمهورية الجزائرية، الايميل: douida1998@yahoo.fr

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تشرف عليها المنظمة؟؟، ام ان حل القضية الجزائرية بالجلوس إلى طاولة المفاوضات هو الذي اوجد المنظمة أساسا؟؟. وذلك وفق المخطط التالي:

1- التعريف بالمنظمة: ظروف تأسيسها، نشاطها، وأهدافها.
2- جهود المنظمة لإفشال المفاوضات الجزائرية الفرنسية.
3- تحديات الثورة التحريرية بشأن أعمال المنظمة.

التعريف بالمنظمة: ظروف تأسيسها، نشاطها، وأهدافها:

تعرف بمنظمة الجيش السرية، وهي إحدى المنظمات اليمينية المتطرفة؛ ذات النشاط الإرهابي. بدايات ظهورها ترتبط بصفة مباشرة مع حركة 13 ماي 1958م العاصفة، والتي أعطت الشرعية لتصرف قادة الجيش على غرار الجنرال ماسو Massu، سوزيني Susini، اورتيز Ortez، غاردي Gardy، واخرين[1]. لكنها لم تظهر كمنظمة ذات نشاط رسمي إلا مع بداية سنة 1961م، وبالضبط بعد إعلان الجنرال ديغول في 11 افريل 1961م: "إن فرنسا ليست لها أي مصلحة في بقاء المستوطنين في الجزائر"، فكان العمل على محاولة إحداث انقلاب عسكري خطط له قادة الجيش الكبار: سالان وجوهو وزيلر، ليكون يوم 22 افريل ، وكان هذا بمثابة أول عمل رسمي تتبناه المنظمة[2].

ونلخص الظروف العامة والأسباب التي ساهمت في ظهور المنظمة في النقاط التالية:

1- هشاشة حكومات الجمهورية الرابعة، وسقوطها الواحدة تلو الأخرى بعد فشل ذريع في إنهاء المشكلة الجزائرية.
2- ضغط الثورة، وتصعيد العمليات العسكرية، وفشل المخططات الأمنية والإصلاحية المختلفة.
3- بروز سلطة الجيش بقوة بعد ماي 1958م، ومجيء الجنرال ديغول "منقذ الأمة"، وذلك على حساب السياسيين.
4- بداية تحقيق تقارب بين ممثلي الثورة، وممثلي الحكومة الفرنسية بشأن التسوية المقبلة[3].

وقد ضمت المنظمة في صفوف المنتمين إليها والمؤيدين لأهدافها؛ بالإضافة لجنرالات وضباط الجيش؛ بعض فرق المظليين، والمعمرين الغلاة، وعرفت تواطؤ بعض عناصر الشرطة والحرك والهود معها؛ خاصة بعد تطور سير المفاوضات، وبداية ظهور تقارب وجهات النظر بشأن الملفات المطروحة على طاولة التفاوض، بل وحتى بعد الاتفاق على وقف إطلاق النار[4].

أما أهداف المنظمة فإنها كشفت منذ البداية عن جملة من المشاريع المبرمجة داخل فرنسا وبالجزائر، ويأتي على رأسها: الاستيلاء على السلطة وقلب النظام، ومن ثمة فرض فكرة إبقاء الجزائر فرنسية بكل الوسائل المتاحة، والتصدي لكل محاولات التسوية بشأن الجزائر، والعودة للحلول العسكرية والأمنية التي لا بديل عنها. ويبدو جليا عدم اهتمام مسيري المنظمة بمستجدات الساحة السياسية العالمية، وانحسار آليات الاستعمار القديم لصالح الهيمنة الاقتصادية والثقافية والايديولوجية[5].

جهود المنظمة لإفشال المفاوضات الجزائرية الفرنسية:

يمكن القول أن المنظمة لم تدخر جهدا في نسف كل محاولات التقارب والتباحث؛ لاسيما بعد تجاوز الاتصالات بين الطرفين الفرنسي والجزائري المرحلة السرية وشبه الرسمية، وانتقالها إلى المرحلة الجدية والرسمية مع بداية الستينات. وعليه فان المنظمة تكفلت بتسريع عملها على مستوى عدة أصعدة في آن واحد: السياسية، الاقتصادية، العسكرية، النظامية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واللوجيستية. ولا نستطيع التطرق لمجمل تلك النقاط ما لم نستعرض البرنامج العام الذي سطرته المنظمة كمشروع تعمل على تحقيقه، والذي سمي ببرنامج "التشييد القومي"[6]. وما يهمنا فيه أكثر هو الجزء المتعلق بالجزائر، وعرض تصوراته بشأن القضية الجزائرية، ونلخص مضمون أهم أركان هذا المشروع فيما يلي:

1- إسقاط الجمهورية الخامسة، وزوال مبادئها ورجالها والمستفيدين من وجودها كشرط أساسي لاستمرار حياة الأمة، وإنقاذ الشعب.

2- تشكيل حكومة إنقاذ وطنية تتكون أساسا من مسئولي الحركات الوطنية الحقيقية، وممثليهم في الجيش لإنقاذ الإقليم الفرنسي.

3- يحل البرلمان نهائيا لأنه لا يمثل طموحات الأمة، وتنتزع المرتبات الضخمة للنواب.

4- تجميد أعمال مجلس الأمة، واستئنافها بعد تحقيق الاستقرار والوحدة.

5- تحل كل الأحزاب العميلة لقوى أجنبية، أو الموضوعة لخدمة مصالح جهات معينة، أو تلك التي تعمل على إذكاء نار الفتنة وتفريق الشعب، على أن يتم حجز مقراتها وممتلكاتها، ويعاد تحويلها إلى مرافق أخرى كنوادي الشباب وغيرها.

6- تشكيل وحدات إقليمية قومية في الجزائر وفي أقطار ما وراء البحار، مهمتها محاربة مناهضي النظام الجديد في الداخل، ويحل مسؤولو هذه الوحدات مكان الإدارات المحلية المحلة أو المنهارة.

7- تنصيب محاكم شعبية في كل دائرة[7].

8- حل الحزب الشيوعي خاصة لأنه العدو الداخلي للأمة، وحل كل الجمعيات والمنظمات التقدمية، وعزل كل الإطارات ذات الانتماء والنشاط الشيوعي، وتحل النقابات الحكومية، ويوحد العمل في نقابة واحدة تعمل على تحقيق مطالبهم العادلة، ورفض وجود أية منظمات دولية كاليونسكو، ومنظمة حقوق الإنسان وغيرها، والتي يجب أن تصادر كل ممتلكاتها، وما كان مخصصا لنشاطها، وقد سميت بالمنظمات "المضرة".

9- الاستيلاء على الأجهزة الأمنية والقضائية، ووضعها تحت تصرف المنظمة، ويحال الرافضون للتعاون إلى المحاكم الشعبية، ومنهم على الأخص القضاة الذين أصدروا أحكاما مجحفة بحق الوطنيين الفرنسيين، وتمنح لعائلات الضحايا منهم تعويضات.

10- ترقية الإطارات العسكرية الفنية المتشبعة بروح "الوطنية" والمبادرة، وتقليدهم المسؤوليات؛ مقابل معاقبة كل المتورطين والمتسببين في هزائم عسكرية، كما يتم في هذا الإطار تخفيض فترة الخدمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العسكرية إلى 18 شهرا، وخفض عدد المجندين مقابل تحسين مستواهم وكفاءتهم، وبث الروح الثورية فيهم.

11- تأميم ممتلكات المعمرين المترددين لصالح المنظمة، وتوزيعها على الشبان.

12- القضاء على الشركات الاحتكارية الدولية للبترول بالصحراء.

13- حذف الإعانات الممنوحة لأقطار ما وراء البحار والمنفصلة عن فرنسا، واستخدام تلك الإعانات في أغراض أخرى كتجهيز المناطق الجرداء في فرنسا.

14- ضمان حماية الأقليات الأوروبية في إفريقيا، والتي أصبحت على ما يبدو مهددة بالعنصرية من طرف الملونين، أما الأوروبيين اللاجئين من الشمال الإفريقي، ومن أقطار ما وراء البحار فيجب دمجهم في المجتمع، وتعويض خسائرهم.

بالإضافة إلى نقاط اخرى[8].

أما بالنسبة للبرنامج الخاص بالجزائر فتمثل في اتخاذ الإجراءات التالية:

1- ضرورة ضمان الانتصار العسكري السريع، والعمل السياسي الفعال، وذلك بواسطة قمع التمرد الصادر عن الجهات الفرنسية بالجزائر، وتوجيه ضربات مكثفة للفلاقة.

2- تجنيد المتطوعين من ضباط الجيش والحرکی والمعمرين بهدف تكوين ميليشيات مسلحة تقوم بالقضاء على الثوار بالجبال والمداشر.

3- إعطاء الأجهزة الأمنية صلاحيات واسعة وخاصة، وتسخير إمكانات ضخمة لإنهاء المشكلة الجزائرية نهائيا.

4- تجنيد الرأي العام الفرنسي لرفع شعار "الجزائر فرنسية"، ومواجهة كل معارض له حتى ولو كان الجنرال ديغول نفسه.

5- الانطلاق من الجزائر في تكوين دولة فرنسية تكون نواة للسيطرة على الحكم في فرنسا.

6- فتح مجال القتل العشوائي الفردي والجماعي، والاغتيالات المنظمة.

7- نهب المؤسسات المالية والمصرفية نظرا لأهميتها في تحقيق مساعي المنظمة.

8- تخريب وتدمير المؤسسات الاقتصادية والثقافية والإدارية بالجزائر حتى لا يبقى أي خيار إلا الاستجابة.

9- نشر الرعب والإرهاب عن طريق المناشير والدعاية.

10- إرساء هياكل المنظمة على مستوى كل الجزائر[9].

ويكمن اختصار هذا المشروع في تلك المصطلحات اللافتة والمفضلة في شعارات المنظمة وهي التخويف، التحطيم، الإثارة او التحريض، التعبئة، و أيضا رفعها لشعار "تضرب حيث تريد- أين تريد"[10].

تحديات الثورة التحريرية بشأن أعمال المنظمة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تميز موقف المنظمة من تطور لقاءات التفاوض بالصلابة في التعامل، واستخدام الأسلوب الدموي في كل مرة، وتجسد ذلك بالأخص في بداية سنة 1961م حيث كثفت جهودها بالجزائر لفرض أجواء مليئة بالذعر والإرهاب عن طريق سلسلة التفجيرات الكثيرة على مستوى مؤسسات ومرافق عمومية وخاصة، وتركزت هذه العمليات التفجيرية بصفة كبيرة في المدن الكبرى، واستطاعت أيضا في 31 مارس 1961م اغتيال رئيس بلدية ايفيان السيد كاميل بلان Camille Blanc[11].

وبعد فشل الانقلاب على ديغول في افريل 1961م (الذي كان من منفذيه: موريس شال، راؤول سالان إلى جانبية جوهو وزيلر بالجزائر)؛ فإنها عمدت إلى تغيير طفيف في إستراتيجيتها، وذلك باختيار ضحاياها، والمواقع المستهدفة بدقة وعناية لإعطاء الانطباع بقوة تنظيمها، وتحكمها بالوضع، ولخلق جو نفسي ضاغط يؤدي إلى زعزعة هيبة واستقرار الإدارة الفرنسية بالجزائر، وتوجيه رسالة مشفرة من خلال ذلك لقادة الثورة، وتصور المصير الأسود الذي بات ينتظرهم.

ولاشك أن هذه العملية هدفت بالأساس لوقف مسار المفاوضات المزمع عقدها في ايفيان (1)، ورغم فشل المهمة (القضاء على ديغول) إلا أنها أفقدت الجنرال ديغول القدرة على المناورة والتلويح بورقة ضمانات الأقلية الأوروبية. ومن جهة أخرى جعلته يدرك أهمية الإسراع في مسعى التفاوض، وعليه وجه تعليماته للويس جوكس في ايفيان الأولى (20 ماي 1961م)[12]. وقد قال فرحات عباس في إجابته عن سؤال: ماذا لو اغتيل ديغول فعلا؟، قال: "إن الحرب كانت ستعود من جديد إلى الجزائر وتونس والمغرب"[13].

وفي أول سبتمبر1961مكررت المنظمة محاولة اغتيال ديغول، وقتلت المحافظ "ولدن يدوغ" وهو من الشخصيات البارزة في الجزائر، وفي 24 أكتوبر اغتالت النقيب "تيري"، وكذا الجنرال "جوبيير" في نفس السنة إلى جانب آخرين.لكن المهمة الأساسية التي باتت تنتظر التنفيذ لدى عناصر المنظمة في الفترة بين ماي وأوت 1961م تمثلت في إيجاد حلول عملية تعيق المفاوضات المتقدمة، وهكذا تحدثت الشرطة عن توقيف شخص (ميشال شوب) ثبت تورطه في محاولة تعطيل المروحيات المقلة للوفد الجزائري المفاوض سواء بجنيف أو بايفيان[14].

وقد احتفلت المنظمة على طريقتها الدموية بفشل لقاء ايفيان الأول ففجرت محلات ومرافق بشارعي ديزلي وميشلي، وردد مؤيدوها شعارهم المفضل "الجزائر فرنسية". وقد تزايد خطر المنظمة لما أنشأت فرعا نشيطا لها بفرنسا منذ جوان 1961م تحت مسؤولية بيار سارجون، ولذلك وجدنا تغيير مكان وموعد اللقاء المرتقب للتفاوض بلوغران في جويلية 1961 مع زيادة إضفاء طابع السرية والاحترازات الأمنية.

ويظهر تصلب موقف الجنرال ديغول إزاء أعضاء المنظمة، وعدم الاستسلام لضغوطهم؛ فقرر كسب التأييد الشعبي عن طريق اعتماد سياسة الاستفتاءات، خاصة انه حذر سابقا من مسألة تدخل الجيش في السياسة حيث قال: "ابعدوا الجيش عن السياسة، وأبعدوه عن الإقدام السوداء فهذه العدوى خطيرة"[15]. ومن هنا نفهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيضا التصلب الذي ميز الموقف الفرنسي المفاوض بشأن الأقلية الأوروبية؛ فكأنه تضمن إشارة إلى الرغبة في استمالة ومهادنة مؤيدي المنظمة، في حين تورط هؤلاء أنفسهم في مستنقع الولاء لشعار "الاختيار بين الحقيبة أو النعش"، وقد قال بيرنار تريكو بهذا الخصوص: "لو علمت بهذا المأزق لما ألححت على ضمانات الأوروبيين" لاسيما انه وصف الورقة بقلب وجوهر المفاوضات[16].

وبالإجمال فقد تم إحصاء أزيد من 430 تفجيرا في سبتمبر 1961م، و760 في أكتوبر، و970 في نوفمبر. وازداد الوضع حدة في بداية 1962م، وجدير بالذكر أن المنظمة قامت بقنبلة مركز جيش التحرير بوجدة؛ عن طريق طارتين حربيتين، وهو خطاب مباشر وجهته لمفاوضي الثورة، بأنه حتى لو تحققت مطالب الطرفين؛ فان المنظمة ستمنع تطبيق أي اتفاق، ولن يكون هناك سلم أو سلام[17].

وتكرر الأمر مع اقتراب موعد لقاء ايفيان الثاني حيث طلب الجنرال سالان في رسالته ليوم 23 فيفري 1962م بمنع وصول المتفاوضين مهما كلف الأمر، ووصف لاحقا قرار وقف إطلاق النار بالكارثة التي لا يمكن تصحيحها[18]، وتقرر الشروع في إضراب عن العمل (لمدة يومين) عزلت فيهما المدن الكبرى خاصة العاصمة ووهران عن العالم، وامتلأت المستشفيات بالجثث، والشوارع بالنفايات، وبدت الجزائر كأنها مدينة للاشباح[19].وسجل في فيفري حوالي 553 قتيلا، وبين 3 و4 مارس هز الجزائر العاصمة 130 انفجارا، وفي 15 مارس وقعت اغتيالات جماعية كان من بين ضحاياها الكاتب الجزائري مولود فرعون، وقد وصف احدهم الوضع حينها قائلا:"تراكمت جثث الجزائريين أمام مركز شرطة باب الواد مغطاة بالجرائد والدماء تسيل على الرصيف"[20].

وأصدرت المنظمة في 20 مارس 1962م منشورا وأمرا، نص الأول على أن قرار وقف إطلاق النار لا يعني السلم، وجاء في الثاني امر سالان أن يلتحق الجيش كله بصفوف المنظمة، وبتكثيف العمليات في المدن الكبرى، خاصة مع خروج الجزائريين للاحتفال بوقف الحرب[21].

وفي 23 مارس عمدت المنظمة إلى تجريد وحدات عسكرية فرنسية من أسلحتها (بدون مقاومة)، وتم قتل الرافضين لذلك، وشهدت منطقة باب الواد مثلا اشتباكات عنيفة راح ضحيتها كثير من الجزائريين. وفي 01 افريل صعدت العمليات العسكرية أكثر كردود فعل متأخرة عن الالتزام بوقف إطلاق النار، وصدر منشور مضمونه "العمل على تحويل المدن الكبرى إلى براكين تلتهمها النيران، وتملؤها أحواض الدماء"[22]، وفي 03 افريل هوجمت عيادة طبية ببوفريزي؛ استهدفت القضاء على الأطباء والمرضى والزوار، وإبادة ساكني تلك البناية بقنبلتها، مما خلف الكثير من الضحايا والمصابين[23].

وفي 02 ماي تم تفجير ميناء الجزائر بسيارة ملغمة أدى لقتل قرابة 100 شخص، وجرح أكثر من ذلك، واستعملت قنابل ثقيلة قصفت أحياء بلكور ومناخ فرنسا أودت بحياة الكثيرين[24].

وفي 10 ماي استهدفت المنظمة بشكل خاص النساء الجزائريات باعتبارهن أداة ناقلة للأخبار والأدوية السلاح، وكثفت العمليات الإرهابية في شهر ماي بأكمله، وبلغ أدنى معدل للاغتيالات المنظمة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صفوف الجزائريين بـ 20 شخصا يوميا، وكأنها كانت تلفظ آخر انفاسها[25].

وفي 07 جوان تم إحراق المكتبة الوطنية، فأتلف أزيد من 600 ألف مخطوط ومؤلف، بالإضافة إلى إحراق عشر مدارس، ومقر بلدية الجزائر، وأجزاء كبيرة من مستشفى مصطفى باشا كالمخابر، وقاعات الجراحة، وفجر السوق المغطى بباب الواد.

وفي 26 جوان تم السطو على 06 بنوك بوهران، ونظم الهجوم على مقرات البريد والبنوك وصناديق الضمان الاجتماعي، ومحلات بيع المجوهرات وغيرها عبر مدن كثيرة. وقد حلت بصفة رسمية في 1963م[26].

في الأخير علينا التمييز بين مرحلتين في عمل المنظمة لوقف مسار المفاوضات، وتاريخ 19 مارس هو الفاصل بينهما، وإذا كان مفهوما ما حدث في المرحلة الأولى أي قبل التوقيع على الاتفاقيات، فان نشاط المنظمة بعد ذلك يعكس فقط الرغبة في خلط الأوراق والحسابات، وإعاقة نجاح استفتاء الاستقلال. لكن الملاحظ أن المرحلة الثانية كانت أكثر عنفا ودموية وتطرفا، وفي نفس الوقت تبدو دون هدف خاصة في ظل بداية هجرة أعداد كبيرة من الأوروبيين، ويبدو شعار "لنتركها كما وجدناها قبل 1830م" مناسبا في هذه الفترة.

- خاتمة:

نخلص إلى ان الثورة الجزائرية قد نجحت في إحداث خلل في أجهزة المستعمر، ومنها مواجهة ديغول بجنرالاته في المنظمة، ولأنه جمع بين الضغط العسكري والدهاء السياسي فقد حاول دخول المفاوضات من مركز قوة متمسكا بأكبر قدر من المصالح، ومنها على الأخص تمسكه بورقة الأقلية الأوربية التي أراد بقاءها في الجزائر لضمان استمرار الوجود الفرنسي بها، أما المنظمة فقد عبرت عن الوجود الاستعماري الكلاسيكي القائم على رفض الإصلاح.

وكان من المفترض ومن المناسب أن تكون اتفاقيات ايفيان قد أسست لبداية حوار جاد وحقيقي بين البلدين والشعبين؛ من اجل التخلص من رواسب الماضي، والتحرر من العقدة الاستعمارية لفرنسا، عن طريق الاعتراف الصادق بانتهاكاتها ضد الإنسانية؛ مقابل الحصول على عفو وتسامح الجزائريين، أو على الأقل مصالحتهم، وكان مطلوبا وضع مصلحة الأجيال المقبلة بالحسبان؛ لكن في الواقع مثل ايفيان آخر معبر للبداية الجديدة المفترضة.

- الهوامش والإحالات:

[1] هم في الأساس قادة المنظمة. انظر تراجم هؤلاء القادة في:

جريدة المجاهد، 1961/05/08م، ص 08.

[2] J.P Ould Aoudia : Autopsie d'un assassinat, ed. ENAL, Alger,1994, p 65.

[3] مقنوش كريم: منظمة الجيش السري OAS، الراصد، ع، 2002، ص 13.

[4] عن تنظيم المنظمة وهياكلها على مستوى التراب الجزائري؛ انظر:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Pierre Laffant : L'OAS la fin de l'Algérie française, Historia, N° 424 bis, p90.

[5] دحمان تواتي: المنظمة المسلحة السرية في الجزائر (1961- 1962م)، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، 1998، ص 76.

[6] Voir : Pierre Mannauni : Les français d'Algérie, Paris, 1993, p 266.

7 Programme OAS, (Document), l'express, 15/06/1961, p08- 09.

[8] Ibid.

[9] نقلا عن: دحمان تواتي، المرجع السابق، ص 76. وانظر أيضا:

Jaques Delarue : L'OAS contre De gaulle, ed. Fayard, Paris, 1981, p 105.

[10] Pierre Mannauni , op.cit, p 266.

[11] J.P Ould Aoudia :op.cit, p p 111- 115.

[12] Bernard Tricot : Les sentiers de la paix en Algérie (1958- 1962), Paris, 1972, p 236- 237.

[13] Ferhat Abbas : Autopsie d'une guerre, ed. Garnier, Paris, 1980, p 334.

[14] انظر: رضا مالك: الجزائر في ايفيان، تر. فارس غصوب، دار ANEP- الفارابي، الجزائر- بيروت، 2003، ط1، ص 118.

[15] François Xavier : Les zéniths illusoire de l'Afriquefrançaise, Historia, N° spécial, p11.

[16] Tricot, op.cit, p 303. Et voir : Ibid, p 297.

[17] Mohamed Teguia : L'Algérie en guerre, ed. OPU, Alger, 1992, p 403.

[18] Tricot, op.cit, p 290.

[19] Historia, N° spécial, p126.

[20] Lucien Bitterlin: Nous étions tous des terroristes, Paris, 1983, p272.

[21] Historia, N° special, p12.

[22] Delarue, op.cit, p 205.

[23] م. فيصل: عبادة بوفريزي شاهدة على همجية L'OAS، جريدة البلاد، 06/04/ 2002، ص 15.

[24] دحمان تواتي، المرجع السابق، ص 81.

[25] انظر: تواتي، نفسه، ص 81- 82.

[26] تواتي، نفسه، ص85.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المغرب الأقصى في الصراع الفاطمي الأموي (الشيعي-السني) خلال العصر الوسيط

محمد بوعزة

باحث في التاريخ - جامعة سيدي محمد بن عبد الله-فاس. - المغرب

الملخص:

شهد العصر الوسيط بروز الصراع المذهبي بقوة في العالم الاسلامي ، حيث برزت دول وامارات متصارعة ومتناحرة على خلفية اختلافها المذهبي ، سنية او شيعية كانت مما أجج قوة الصراع بين القوى المتصارعة في المشرق والمغرب الإسلامي وزاد من حدة الانقسام السياسي واندلعت حروب ومواجهات وحركات تصفية دموية كرست العناد الطائفي،وزادت كلمة المسلمين تفرقة،أمام توحد الروم وتقوي شوكتهم صد الوجود العربي بالأندلس ،وقد عانى المغرب الأقصى في خضم هذا السياق من انعكاسات الصراع الشيعي السني بين ممثليه الفاطميون والأمويون ،مما جعل المجال المغربي مسرحا ميدانيا لتجلياته وأطواره ، وما نتج عنه من إفشال للمشاريع السياسية المحلية التي بحثت عن تحقيق دولة المركزية القادرة عن توحيد الإمارات والكيانات المحلية المتصارعة.

الكلمات المفتاحية:

الصراع الشيعي السني – الفاطميون – الأمويون- المغرب الأقصى

مجال البحث :

التاريخ (مرحلة العصر الوسيط الإسلامي)

تقديم:

شكل الصراع الذي نشأ بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط تجليا من تجليات الصراع المذهبي الذي شهده العالم الإسلامي بين التوجه الشيعي والتوجه السني بحيث عمل كل طرف على تثبيت دعوته وتحصينها ضد امتداد الطرف الأخر وهو ما عكسته المصادر التاريخية والأحداث التي جرت في إطار صراعهما شرقا وغربا من ارض الإسلام ،وهو صراع له أسسه ومحدداته التاريخية ،تعبيرا عن الصراع حول الأحقية بالخلافة والسلطة، وقد اتخذت أشكال الخلاف أوجها عدة لدرجة قسمت الدولة الإسلامية و أقحمتها في حالة توتر دائمة، لا ولنا إلى حدود اليوم نعاين امتداداتها في الزمن .

وحينما نبحث في أسس وتجليات الصراع الشيعي السني وانعكاساته على المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، فان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهدف المعرفي هو رصد معالم التأثير الذي خلقه الصراع المذهبي على بلاد الإسلام، وأيضا كشف تأثيره السلبي على البلاد والعباد، في سياق الإيمان بان الصراع كان متعدد الأوجه: اقتصادية وسياسية ومذهبية....إذن، فما هي أسس الصراع الفاطمي الأموي على المغرب الأقصى؟ وما الانعكاسات الميدانية والسياسية لهذا الصراع ؟

1- أسس وموجهات الصراع الفاطمي الأموي في المغرب

بعد تمركز الدولة العبيدية [1]

[1] نسبة الى عبيد الله الذي ادعى المهدوية وبويع في مدينة القيروان بأرض افريقية وسميت دولته بالعبيدية اشتقاقا من اسمه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بافريقية من ارض المغرب سنة296هـ أصبحت الخريطة السياسية للعالم الإسلامي في تغير ملحوظ وملموس، بسبب قيام هذا النظام الجديد والذي يختلف تمام الاختلاف عن باقي الأنظمة الإسلامية القائمة آنذاك، وأبرزها النظام العباسي ببغداد في المشرق والنظام الأموي بالأندلس في المغرب الإسلامي ،وأساس هذا الاختلاف كان مذهبيا، باعتبار أن نظام بغداد ونظام قرطبة يتبنيان المذهب السني كمذاهب رسمية مقابل دولة الفاطميين تبنت المذهب الشيعي[2] من خلال تبنيها الدعوة الإسماعيلية[3].

أ- الصراع المذهبي:

لا شك أن قيام نظامين متجاورين وعلى أسس مذهبية مختلفة، كان من شانه أن يحدث صداما بينهما، وان بدا الصراع بينهما في ظاهره صراع سياسي بين أنظمة متنافسة إلا انه في حقيقة الأمر صراعا بين السنة والشيعة. فالدولة الفاطمية منذ قيامها وهي تعمل للتمكين لمذهبها الشيعي عن طريق الدعاية، في كل اتجاهات العالم الإسلامي لنشر مذهبها[4].

وقد استطاع الفاطميين استمالة بعض رجال الأندلس كما حصل مع الثائر"ابن حفصون" الذي دعا للخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (297-322هـ) في مساجد المنطقة الجنوبية للأندلس التي سيطر عليها مستفيدا من المساندة الفاطمية[5].

ولا ريب في أن نظام قرطبة أحس بالخطر الفاطمي الذي تقوت شوكته، وأصبح يهدد الكيان الأندلسي، و اتضحت الصورة أكثر مع إعلان عبد الرحمان الناصر للخلافة بالأندلس والذي رده صاحب "الحلة السراء" لضعف العباسيين بالمشرق حيث غلبت عليهم الأتراك، وادعت الشيعة ما شاءت بافريقية بعدما كان أبائه من قبله يدعون

---

[2] الشيعة: الاسم الشامل لمجموعة كبيرة من فرق إسلامية مختلفة اشد الخلاف ، ترجع نشأتها جميعا الى القول بأن علي ﷺ،هو الخليفة الشرعي بعد وفاة الرسول صلى الله وعليه وسلم...انظر : دائرة المعارف الإسلامية،المجلد13،،مادة الشيعة.

[3] الإسماعيلية: نسبة الى محمد بن إسماعيل ابن جعفر والذي انتهت به ادوار الامامة،اذ كان هو السابع.زانظر: ابو حامد الغزالي،فضائح الباطنية،تحقيق،عبد الرحمان البدوي،الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة،1946،ص:15.

[4] جمال الدين سرور،سياسة الفاطميين الخارجية،دار الفكر العربي،بيروت،1976،ص:233.

[5] احمد المختار العبادي،في اريخ المغرب والاندلس،دار النهضة العربية،بيروت،ص:183.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالأمراء[6].أما ابن عذارى فيورد نص الرسالة التي أرسلها الناصر لجميع خطباء الجمعة بالأندلس من سنة316هـ،التي أكد فيها على ضرورة التمسك ببيعته إذ قال :" وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه ولا علمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه"[7].

وبهذا أصبحت الخلافة[8] الإسلامية يدعيها ثلاثة دول: العباسيون في العراق والفاطميون بالمغرب والأمويون بالأندلس، وفي هذا الصدد يفسر احد الباحثين قرار الناصر بأن " البواعث الخفية والظاهرة التي جعلت عبد الرحمان الناصر يقدم على إقامة خلافة سنية جديدة في غرب العالم الإسلامي رغم وجود الخلافة العباسية هو شعور بني أمية في السابق- أي قبل الخلافة الفاطمية- بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد وأن الخروج عنها عصيان وان الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين، فهذا هو الأصل النظري للخلافة السنية في بادئ الأمر غير أن مصلحة العمل وتغيرات الظروف السياسية بعد ذلك، حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري ووضعه محل الاجتهاد. ومن تم أجاز السنيون الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقتضي ذلك، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة لمنع الاصطدام بين المسلمين"[9].

في حين دافع الفاطميون على أحقيتهم بالخلافة ارتباطا بقولهم في الإمامة وقد اشتهر القاضي النعمان بدفاعه عنهم معتبرا أن الخلافة آو الإمامة نص وتعيين وليس للناس أن يقيموا لهم إماما. وهو ما أشر على اشتداد البحث عن الشرعية السياسية انطلاقا من تثبيت أحقية التسمي بالخلافة

---

[6] ابن الابار القضاعي،الحلة السيراء،الجزء الاول،تحقيق،حسين مؤنس،الشركة العربية للطباعة والنشر،القاهرة،1963،ص:198

[7] ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب،الجزء الثاني ،تحقيق،ج س كولان ،ليفي بروفنسال،دار الثقافة،بيروت،1998،ص:204

[8] الخلافة : يعرفها الماوردي بانها " خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا" انظر: الماوردي ابي الحسن،الأحكام السلطانية،تحقيق،سمير رباب ،المكتبة العصرية بيروت،2001،ص،13.

[9] العبادي ، مرجع سابق،ص:171.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والإمامة ،واتخذت الأمور سجالا قويا، كل طرف حاول من خلاله التأكيد بأحقية خلافة الدولة التي يمثلها ،وتطور الأمر إلى حرب كلامية بين الأنظمة المتنافسة ،فاندلعت خطب السب والشتم على المنابر التي استهدفت نزع الشرعية عن بعضها البعض ،فنهض خطباء المساجد بالأندلس إلى الضرب في شرعية الخلافة الفاطمية، وهو ما رد عليه من جهته القاضي النعمان المقرب من الفاطمي عبيد الله قائلا في ذات الصدد:"...بلغنا أنه يلعننا على منابره كلعن أسلافه الفسقة لأمير المؤمنين على عليه السلام، وينكر علينا لعنه، فنحن إن لعناه بكتاب الله ،لأنه ممن قال الله فيه، وهو اصدق القائلين : آلا لعنة الله على الظالمين ."[10].

وكلما زادت حدة الصراع بين قرطبة ونظام افريقية إلا وانعكس ذلك مباشرة على المغرب باعتباره مسرحا لهذا الصراع، وحسبنا في ذلك محاولات بني عبيد الله التي استهدفت تشييع المغاربة لتقوية وجوده بالمنطقة ضد التسنن بصفة عامة وضدا على محاولات قرطبة في إنشاء علاقات خاصة مؤسسة على وحدة المذهب المشترك مع أهل المغرب، ولذلك فمحاربة الفاطميين للسنة هو في جوهره حرب على الأندلس وخلافتها[11]،لكن رجال الدين الشيعة فشلوا في غرس أفكارهم ومذهبهم في التربة المغربية بالرغم من محاولات سيدهم عبيد الله ارغام الناس على اعتناق مذهب الدولة الجديدة، لذا عندما لم يجد قابلية لدى الناس وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء بالرغم من حالات التنكيل والقتل التي طالت عددا منهم، من جملتهم الفقيهين أبي إسحاق بن محمد المعروف بابن البرد و أبي بكر بن هذيل ، وقد تفنن في أشكال التعذيب بكل قوة وصرامة وقسوة مع كل من يخالف مذهب الدولة الرسمي، حيث قام بأمر قطع لسان مؤذن لأنه نسي أن يقول في آذانه "حي على خير العمل"[12].

---

[10] القاضي النعمان بن محمد، المجالس والمسايرات،تحقيق،الحبيب الفتي وابراهيم شبوح،المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية،1978،ص:183.

[11] عبد العزيز فيلالي،العلاقات السياسية بين الدولة الاموية في الأندلس ودول المغرب،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1983،ص:132.

[12] محمد محمود،الاثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين،دار ابن حزم للطباعة والنشر،بيروت،ص:22.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يقف عبد الرحمان الناصر لدين الله مكتوف الأيدي حيال المناورات الفاطمية على الأرض المغربية، فاستعمل نفس التكتيكات واعتمد في سياسته نفس الإستراتيجية أي نشر الدعاية ،واستعمال الولاءات السياسية ضد التشيع ،حيت قام بربط الصلات والتقرب مع الكيانات السياسية ،وبث العيون والوسطاء في جميع أنحاء المغرب قصد رصد تحركات النظام الفاطمي ومحاصرة امتداده[13].فاجتمعت كل العوامل والأسباب ليزداد الصراع الأموي الفاطمي وتبرز تجلياته على كل الأصعدة المذهبية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.

ب - الصراع الاقتصادي:

لا يمكن نفي الخلفية الاقتصادية في الصراع الأموي الفاطمي بما أن كل مشروع من مشاريع الأنظمة هو بالضرورة في حاجة إلى موارد اقتصادية تغذيه وتدعم كل سياساته وتقوي من مكانته على الأرض وتخلق شروط القوة اللازمة لمجابهة ما يتطلبه وضع الصراع القائم، فبنيان أي دولة لا يتماسك إلا بتداخل كل العناصر، وهو أمر معروف بالنسبة للدول و الفكر السياسي الكلاسيكي ، وحسبنا في ذلك ما أدرجه ابن خلدون في ما سمي بالدائرة الأرسطية التي يقول فيها:" العالم بستان سياجه الدولة ، الدولة سلطان تحيى به السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك ،الملك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يكنفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم ، العالم بستان "[14].فكل الدول هي في حاجة لهذه العناصر المادية .

فقد عملا الطرفين من اجل السيطرة على مسالك تجارة الذهب بين بلاد السودان والغرب الإسلامي، خصوصا بالنسبة للدولة الفاطمية الناشئة التي تحكم في مشروعه هدف مزدوج أي القضاء على العباسيين عبر الهيمنة على مصر كقاعدة انطلاق مشروعها السياسي الطموح[15]،وجعل الأمويين بالأندلس أكثر ضعفا وتضعضعا .وهو ما

---

[13] عبد العزيز فيلالي،مرجع سابق،ص:134.

[14] عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة،تحقيق،ابوعبد الله السعيد المندوه،الجزء الاول،مؤسسة الكتاب الثقافية،بيروت،1992،ص:41.

[15] الحبيب الجنحاني،دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي،دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت،1980،ص،67.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حاولت استغلاله من خلال تراجع الطرق التجارية الشرقية التي ربطت بين مصر والسودان بسبب العواصف الرملية و انتشار قطاع الطرق ،الأمر الذي استفادت منه طرق الغرب نحو سجلماسة[16].

وأما أمويي الأندلس فقد استنزفت الصراعات الداخلية على الحكم جهدهم ومناوشاتهم مع الروم ،فأصبحت التجارة الصحراوية مصدرا مهما لترويج الحرف الأندلسية وإحداث الرواج التجاري اللازم، فمن خلال أوصاف الرحالة تبين أن الأندلس كانت في حاجة ماسة إلى المعادن النفيسة أي إلى ذهب السودان ،فقد كان التبر المجلوب من غانا يسبك في سجلماسة واغمات وفاس، ثم ينقل إلى الأندلس عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط[17].

والتركيز على تجليات الصراع مذهبيا يبدوا قاصرا عن رصده في شموليته ولعل الجانب الاقتصادي – حسب ع الكريم بيصعين- يعتبر سببا استراتيجيا حددت قصدية قيام الدولتين بكل التدابير والسياسات التي اتبعتها بالمغرب وان الصراع على الطرق التجارية حدد بشكل أساسي المواقف السياسية(بيصعين)،ويصدر في ذلك عن رؤيته المركزية المعتمدة على المادية التاريخية في تحليل القضايا التاريخية خلال العصر الوسيط ،إلا أن هذا التوجه المدفوع بالدوافع الإيديولوجية يجعل التحليل التاريخي لقضية الصراع الشيعي السني مقتصرة على العوامل الاقتصادية ،وهو ما جعلها قاصرة عن رصد الصراع في سياقه الشامل ، على اعتبار أساسي هو أن دول و أنظمة العصر الوسيط لن تكن تفصل في رؤيتها للصراع ،فكل ما هو مذهبي لا يمكن عزله عن المؤثرات السياسية والاقتصادية...

ويبدو أن المصالح الاقتصادية كانت في خدمة السياسي والمذهبي فكل حركة سياسية ومذهبية تحتاج إلى موارد اقتصادية وليس العكس،ولم تقتصر المنافسة الأموية الفاطمية على المسالك التجارية بل امتدت حتى على الواجهة البحرية التي عرفت تطورا بالعلاقة مع تطور التجارة الصحراوية ،ففي هذه الفترة ازدهرت التجارة البحرية وتقوى الأسطول

---

[16] ابن حوقل،صورة الارض،دار الكتاب الاسلامي،القاهرة،ص:65.

[17] عبد الله العروي،مجمل تاريخ المغرب،ج2،المركز الثقافي العربي،بيروت،2000،ص:72.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البحري لكل من الدولتين،فهذه الأساطيل كانت محتاجة إلى موانئ على الضفة المتوسطية المغربية،فعمل الناصر على افتتاح سبتة سنة319هـ وبنى أسوارها فأصبحت "مفتاحا من المغرب والعدوة من الأندلس وبابا إليها،كما هي الجزيرة وطريق مفتاح الأندلس من العدوة"[18]،وقامت الدولة الفاطمية بالسيطرة على صقلية لموقعها الاستراتيجي بحيث أصبحت قاعدتها البحرية منذ سنة 299هـ،لمراقبة مجال البحر المتوسط وحماية سواحل افريقية[19].

وبما أن التجارة الصحراوية ارتبطت اشد الارتباط بالتجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط،قامت الدولة الفاطمية بخطوة سياسية في ارض المغرب الأقصى هدفت إلى تدعيم نفوذها السياسي والمذهبي والسيطرة على المراكز الاقتصادية كسجلماسة وفاس وتاهرت ...غير أن هذه السياسة كانت فاشلة في اغلب مراحلها ، كما حصل مع أمير سجلماسة "الشاكر لله" الذي كان في مواليا للفواطم إلا انه نادى سنة342هـ بالدعوة للعباسيين ،وضرب الدراهم والدنانير الشاكرية،مهددا بذلك نفوذ الفاطميين بالمنطقة،الأمر الذي دفع الخليفة الفاطمي الى تكليف قائده العسكري جوهر الصقلي بقيادة الجيش في اتجاه سجلماسة لاستعادتها وهو ما تم له ذلك [20]. ولقد استطاع الجيش الفاطمي عن طريق هذه الحملة فرض وجوده السياسي بالمنطقة مراقبا الطرق الصحراوية ومستفيدا من عائداتها التجارية[21]. ولكن هذه التحركات صوب المغرب الأقصى لم تكن أكثر أهمية من قوة الحلم الذي راود الدولة الفاطمية بالقضاء على الخلافة العباسية عن طريق جعل الشمال الإفريقي خلفية للانطلاق نحو الشام والعراق ،وبسط النفوذ الشيعي وإحياء مجد العلويين بالمشرق،وفرض الخلافة الإسلامية تحت هيمنة البيت الحاكم الشيعي[22]

---

[18] البيان المغرب،مرجع سابق،ج2،ص:204.

[19] سرور جمال الدين،سياسة الفاطميين الخارجية،مرجع سابق،ص:220.

[20] الحبيب الجنحاني،مرجع سابق،ص:75.

[21] محمد القبلي،مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط،دار توبقال للنشر،الطبعة الاولى ، البيضاء ،1987،ص:15.

[22] لقبال موسى ،اهداف الدعوة الاسماعيلية في مصر وبلاد المشرق الاسلامي منذ عصر مبكر ،مجلة،المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد،العدد1 1975،ص،221.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد اتضح الإصرار على تحقيق هذا الحلم من طرف المهدي عبيد الله ،صاحب الدولة الفاطمية قبل دخوله ارض مصر أثناء فراره الى بلاد المغرب،وقد سبق له أن خاطب احد ولاة منطقة الرملة المتشيعين معبرا له خشيته من تربص عيون العباسيين به في الطريق ، قائلا:" طب نفسا وقر عينا،فوا الذي نفسي بيده،لا وصلوا إلي أبدا،ولنملكن أنا وولدي نواصي ولد العباس،ولتدوسن خيولي بطونهم"[23]، ومثل هذا القول لا يعبر فقط على قوة الحلم الذي سكن رأس الدولة الشيعية وإنما يدل أيضا على أن مشروع تأسيس الدولة قد خضع لرغبة الإطاحة بالعباسيين بالمشرق والظفر بالخلافة.

ج- الصراع السياسي والعسكري :

تعتبر لحظة نشوء دولة جديدة بافريقية ذات مذهب شيعي ، وإعلان الخلافة بالأندلس علامات على دخول المنطقة في تجليات الصراع السياسي وتنافس حول مناطق النفوذ بالغرب الإسلامي ،فالمهدي اتخذ إجراءات سريعة حاول الارتكاز فيها على مولاة عصبية قبلية كتامة،حيث آمر قائده مصالة بني حبوس بمحاربة الزناتيين سنة312هـ فخرج هذا القائد من تاهرت والتقى بقوات محمد بن خزر زعيم قبيلة مغراوة في معركة عنيفة انتهت بمقتل مصالة وهزيمة جيشه[24].

فهذه العمليات العسكرية التي تمت بمثابة ما يمكن تسميته بالحرب بالوكالة تمت في سياق نزول الجيش الأموي بسبتة ، متخذا منها قاعدة لمراقبة الوضع عن كثب والتدخل في المغرب الأقصى ومحاربة موسة بن أبي العافية الذي اضطر أمام تغير الأوضاع السياسية لصالح الأمويين من مبايعتهم وخلع تبعيته للفاطميين وفي هذا الشأن يوضح بن خلدون ما حصل :" ثم انتفض موسى ابن ابي العافية عامل فاس والمغرب وخلع طاعة الشيعة،وانحرف إلى الأموية من وراء البحر،وبث دعوتهم في أقطار المغرب"[25]. ولما علم المهدي من افريقية بانقلاب الأمور لصالح نظام قرطبة، تخوف من استثمارها سياسيا من طرف الأمويين

[23] لقبال موسى، المقال السابق،ص:222.

[24] سالم عبد العزيز،المغرب الكبير ،دار النهضة العربية،بيروت، 1981،ص،608.

[25] عبد الرحمان بن خلدون،العبر وديوان المبتدا والخبر ...،الجزء الرابع، دار الكتب العربية، بيروت 1992،ص،ص:39-40.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتمدد في اتجاه الشرق مما ما من شأنه أن يهدد المجال الحيوي للدولة الفاطمية بشمال افريقية،فعمد إلى إرسال" حميد بن يصل "على رأس جيش للقضاء على حليف الأمس وعدو اليوم ، موسى بن أبي العافية الذي انهزم في مواجهة قائد الفاطميين الذي دخل فاس سنة 321هـ واعاد الدعوة من فوق منابرها لعبيد الله المهدي،وظلت كذلك إلى حين وفاته لترجع فاس مناصرة الامويين والدعاء للخليفة الناصر.[26]

واتخذ العداء بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية صفة المواجهة المباشرة في حادثة بحرية في عهد المعز لدين الله الذي كان قد تولى الخلافة ، حيث هاجمت إحدى السفن الأندلسية سفينة فاطمية كانت تحمل رسولا من قبل الحسن بن علي والي الفاطميين على صقيلة،فجهز المعز أسطولا تحت إمرة حسن بن علي الكلبي وأمره بطلب المركب حيث وجده ، وان وصل إلى الأندلس فلا ينصرف عنه حتى يحرقه ،لكن المركب الأندلسي كان قد وصل ميناء الميريا حيث ترسو السفن الأندلسية وتوجد دار صناعة المراكب ، فقامت السفن الفاطمية بإحراق القطع البحرية الأندلسية ونهب خزائن المرسى[27].

في مقابل عمل الخليفة الأموي الناصر إلى نهج كل السبل للتضييق على التوسعات الفاطمية ولإضعاف تمركزهم البحري وحماية السواحل الأندلسية من أي خطر قادم من جزيرة صقيلة ، تحالف مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن سنة344هـ الذي كان راغبا في استرداد صقلية من يد الفاطميين[28].كما عمل على دعم الجبهة الداخلية الأندلسية لرفع مستويات العداء المذهبي بين الأندلسيين ، عندما آمر بلعن الخليفة الفاطمي على منابر بلاد الأندلس ،وقد ذكر ذلك القاضي النعمان الذي أورد رد فعل المعز على قضية لعن الأمويين له ما يلي :"بلغنا انه يلعننا على منابره كلعن أسلافه الفسقة لأمير المؤمنين"[29]، وعندما أعاب الناصر على المعز لدين الله قبول الدعاء له بالصلاة جاء جواب الفاطمي [30]:"وكأن هذا الجاهل لم

---

[26] ابن خلدون،نفس المصدر، ص:39.

[27] القاضي النعمان،المجالس والمسايرات،مصدر سابق،ص:164-165.

[28] جمال الدين سرور، مرجع سابق،ص:221.

[29] القاضي النعمان ، نفس المصدر،ص:177.

[30] القاضي النعمان،مصدر سابق،ص 192.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسمع قول الله اصدق القائلين "وبشر الصابرين الذين إذا أصبتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات الله من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون"[31].

وتشير المصادر الفاطمية إلى رسائل بعث بها الناصر إلى المعز لدين الله طالبا فيها الصلح ،ولكن الأخير رفض هذا الطلب،ليلجأ الناصر إلى الاستمرار في استعداداته واستنفاره ،مهاجما العديد من المراكز البحرية على الضفة الجنوبية الواقعة تحت هيمنة الفاطميين وذلك سنة 346هـ[32].كما دعم الخارجين علة الدعوة الشيعية بافريقية وأعدائهم وفي مقدمتهم احد زعماء الخوارج الأباظية ويدعى آبا يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار [33] ،حيث تمكن من الاستيلاء على عدة مناطق بالمغرب الأدنى ،بل استطاع محاصرة مدينة المهدية سنة 322هـ قرابة عشر أشهر[34]،وقد عظم أمر هذا الثائر في أيام حكم القائم ولم تكن هذه الثورات ضد الفاطميين معزولة عن سياسة الدعم الأموي لأعداء الشيعة خصوصا وان القوة التي ظهر بها آبا يزيد تؤكد الدعم الذي تلقاه من الأندلس،وهو ما ما نجد له صدى في ما ذكره ابن عذارى عن تردد سفراء ابايزيد على بلاط قرطبة ،إذ وردت رسالة من ابايزيد سنة 333هـ إلى الناصر يخبره فيها بأخر التطورات الميدانية والمكاسب الحربية التي حققها ،كما تضمنت هذه الرسالة الإقرار بمولاة قرطبة ،" واتصلت كتب ابي يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت إلى حين وفاته"[35].

وقد شكلت معارك الاستنزاف التي خاضها آبا يزيد بمباركة ودعم الأمويين ، عوامل رئيسية في كسر هيبة الدولة الشيعية بالمغرب الكبير ، وكبدها خسائر متتالية وأرهق جيشها وشتت تركيزها السياسي ،وغيرت من معادلة الصراع على الأرض وساعدت على نهوض الكيانات السياسية الموالية للأمويين من البروز وإعلان العداء

---

[31] سوروة البقرة،اية،155-157.

[32] جمال الدين سرور ، مرجع سابق،ص:222.

[33] نشأ ابا يزيد بمدينة توزر واعتنق المذهب الخارجي الاباشي ثم انتقل الى تاهرت وعمل بها معلما للصبيان ، وزاد خطره على الدولة الفاطمية بعد وفاة مؤسسها عبيد الله 322هـ

[34] عبد الله العماري،اضمحلال دولة الخلافة ،منشورات كلية الاداب سايس-فاس،2003،ص:83.

[35] ابن عذارى ، مصدر سابق،ج2،ص:213.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للشيعة ، تحت راية الناصر الذي أصبح رمزا لوحدة السنة والقبائل التي أذعنت له على طول مجال المغرب الأوسط والأقصى ،"وبايعته قبائل زناتة البربر ،وخطب له (أي الناصر) على منابره من تاهرت إلى طنجة ما عدا سجلماسة"[36]، فأدرك الفاطميون على أن الوضع يفرض إعادة ترتيب الأوراق وتعديل الخريطة السياسية ، وإضعاف الحضور الأموي إلى الحد الذي لا يشكل خطرا على النفوذ الفاطمي،فتقدم جوهر الصقلي سنة347هـ غربا حتى بلغ المحيط الأطلسي الذي تحكي الرواية التاريخية انه اصطاد منها سمكا وبعثه حيا في جرار إلى الخليفة [37] ، إشارة إلى القوة الفاطمية القادرة على الدفاع عن مصالحها وسياستها في أي وقت أرادت ذلك ،كما قام جوهر الصقلي القائد الفاطمي القوي باعتقال أمير فاس وأمير سجلماسة وبعثهما إلى المهدية سجناء وبقوا كذلك إلى حان وقت وفاتهم انتقاما منهما على خلع البيعة ومولاة الامويين ،وجعلهم عبرة لكل حلفاء الفاطميين[38].

[36] عبد الله العماري ، المرجع السابق،ص:83.

[37] فيلب حتي ، مرجع سابق ،ص:705.

[38] عبد الله العماري/ المرجع السابق،ص:83.

وبعد عودة القائد جوهر الصقلي إلى قواعده بأرض افريقية ، عمل الأمويين في حكم المستنصر على الاستمرار في نهج سياسة آبيه الناصر ،وهي محاربة الحضور الشيعي الفاطمي بأرض المغرب ، واستمالة امرائه وقبائله ، وجدد العهد مع الحلفاء التقليديين الزناتيين وتمتين العلاقات والروابط معهم وجعلهم كتلة بشرية للاعتماد عليها في التوازنات القبلية[39].وحتى عندما ضعفت الخلافة الأموية واستبد الحاجب المنصور بن آبي عامر[40] ،استمرت الإستراتيجية الأندلسية على نفس منوالها في حساباتها السياسية بأرض المغرب الأقصى ،وتركيز واجهة مقاومة أي مد فاطمي في اتجاه الغرب .

[39] عبد العزي فيلالي،مرجع سابق،ص:163.

[40] المنصور بن ابي عامر :امير الاندلس في دولة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله والغالب عليه ، اصله من الجزيرة الخضراء تصرف اول الامر في الوكالة لصبح ام هشام والنظر في اموالها وضياعها ،والجد ينهض به والاقدار تساعده ، الى ان توفي الحكم وقلد هشام الخلافة وهو صغير السن ليفرض عليه وضايته ويصبح الرجل الاول في الدولة ....للمزيد انظر، الحلة السيراء ،مرجع سابق ،ص:263.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2 - المغرب الأقصى من خلال الصراع الأموي الفاطمي وتجلياته على الارض

يمكن القول بأن الصراع الشيعي السني من خلال أطر افه (الأمويين والفاطميين) قد شكل عاملا أساسيا في حدوث حراك سياسي ومذهبي بأرض المغرب الأقصى،تعددت تجلياته وانعكاساته على الكيانات السياسية التي وجدت نفسها إزاء دول خارجية تتضارب مصالحها الجيوسياسية على البلاد المغربية وترسم حدود أثرها وتأثيرها وسياستها المذهبية من خلال سياسة الاستمالة والمواجهة في علاقاتها مع هذه المكونات السياسية،التي نهجت سياسة اللعب على الصراعات بين القطبين (الأموي والفاطمي)والمراهنة على صراعهما لخدمة مصالحها على الأرض،ويعتبر مشروع دولة الادارسة التجلي الواضح لهذه السياسة التي تبنتها المكونات السياسية المحلية تجاه القوى الخارجية،وهي مسألة لم تتوقف على الادارسة فقط وإنما شملت كل الأطراف الأخرى المتصارعة معها حول النفوذ بالمغرب الأقصى. وقد نتج عن هذا الوضع بروز الأحداث السياسية بالمغرب الاقصى في شكل صراعات وتحالفات ...دائمة ،تتجاذبها سياسة الدول المتصارعة المعنية بالشأن المغربي الذي لا يمكن رؤية تجليات تغيراته إلا من خلال حملات عسكرية فاطمية وأموية حاولت ترتيب الوضع العام بالمغرب وفق توجهاتها المتقاطعة مع مصالح حلفائها من الإمارات والحركات المتمردة وغيرهما.

أ-اثر الصراع على المشروع الإدريسي في تشكيل الدولة :

لم يستطع خلفاء إدريس الثاني التغيير من الخريطة السياسية بالمغرب الأقصى بالرغم من أن هذا الآمر كان هو الدافع الأساسي لمشروع الدولة المركزية والموحدة التي بدأت نواته مع إدريس الأول ،فتعرضها للتفكك والاضمحلال عن طريق التهديد الفاطمي الذي ضيق الخناق على فاس وعلى أبناء إدريس يحي بن إدريس الذي انهزم أمام جيش الفاطميين وعاد إلى فاس لتحصن بها سنة305هـ،فتعقبه وضرب حصارا على المدينة ، استمر حتى اضطر يحيي بن إدريس إلى طلب الصلح ومبايعة عبيد الله المهدي ،كتكتيك سياسي تفادى به نتائج الحصار الفاطمي وحافظ على المشروع الإدريسي [41].

فالمغرب الأقصى شكل مجالا جغرافيا للصراع السني الشيعي الذي تشكل دولة أموي

---

[41] اسماعيل العربي،دولة الادارسة ، دار الغرب الاسلامي، بيروت،1983،ص:150.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأندلس وفاطميو افريقية أطرافه السياسية ،ولذلك فكل الكيانات السياسية والقبائل التي شاركت في سياق أحداث الصراع راهنت على مصالحها بين المتصارعين ،فتارة تميل للطرف الفاطمي وتارة أخرى تنقلب للاتجاه الأموي،وما أكد هذه النزعة الاستقلالية لدى المكونات السياسية بالمغرب الأقصى هو ممارستهم سياسة المهادنة والمداهنة تجاه طرفي الصراع حسب مقتضيات الواقع وفق سياسة مرنة تحسب اتجاهات موازين القوة، بهدف ربح الوقت ، وقد شكلت الحسابات والامتدادات العسكرية والاقتصادية والجيوسياسية للصراع الفاطمي الأموي وانعكاساته المباشرة على المغرب الأقصى أهم المعيقات في طريق المشروع الإدريسي في توحيد البلاد وترصيص صفوف القبائل وجمع كلمتها. بالإضافة إلى سياسة المتصارعين الذين عمدوا إلى استرضاء القوى المحلية،وكسبها إلى جانبهم إما بالقوة والغلبة أو بالبذل والعطاء، و افلح أسلوبهم في التعامل مع قبائل وإمارات شهدت فراغا سياسيا وسادتها تطاحنات عصبية وفرقتها المرجعيات المذهبية .

وفي ضل هذه التجادبات لطالما حافظ الأدارسة على تحالفهم مع أمويي الأندلس ووطدوا علاقتهم معهم لأجل الاستفادة من وضع الصراع وبناء دولة في المغرب الأقصى مركزية ،ولكن الظروف الداخلية والصراع بين أبناء إدريس الثاني وبروز إمارات معادية ،وفقدان السيطرة على مراكز التجارية الصحراوية مما أفقر خزينتهم ،مما سيجعلها مركزة على الاقتصاد الرعوي والزراعي المبني على الاكتفاء الذاتي[42]،ويرى احد الباحثين أن الصراع الفاطمي الأموي لم يحدث إلا نظريا فقط أما من الناحية العلمية فقد كان جاريا بين هاتين القوتين وبين المغرب الأقصى بشكل مستمر،وبقدر ما أنهكت هذه العلاقات الفاطميين والأمويين،أضعفت الدويلات المحلية برمتها،و أفشلت جميع مخططاتها ومشروعاتها السياسية ، فلا هي تمكنت من الوقوف في وجه بعضها البعض،ولا هي استطاعت تأكيد استقلالها أو تحقيقه عن القوى الخارجية[43] .

فنتيجة ذلك زاد ضعف المكونات السياسية بالمغرب الأقصى عن واقعها قبل الصراع بين الأمويين والفاطميين ، فتساقط العديد من الإمارات(دولة بني مدرار بسجلماسة سنة366- دولة الادارسة375هـ..) شكل عاملا على تجليات الانعكاسات المباشرة للصراع الشيعي السني

---

[42] محمود اسماعيل، الادارسة،مكتبة مدبولي،القاهرة،1991،ص،164.

[43] عبد الكريم بيصعين،مرجع سابق،ص:436.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي جعل من المغرب الأقصى فضاء مفتوحا لبروز قوى سياسية جديدة على مسرح الأحداث من مثل قبائل "مغراوة ""وقبائل بني يفرن" التي كان لها حضور بفضل ما خلفه هذا الصراع[44].

فالأمويين بالرغم من إصرارهم على ترسيخ وجود من يحالفهم بأرض المغرب الأقصى ودعمهم لبعض إمارته إلا أنهم لم يكونوا على استعداد على القبول بحليف تتجاوز قوته الحدود المطلوبة فيه لأداء دور معاداة الفاطميين وخدمة مشروع الأمويين،كما أن المراكز التجارية الصحراوية كانت سببا كافيا لإيقاف الأمويين لأي مشروع سياسي بالمغرب يمكنه أن يتطور إلى دولة مركزية،بالرغم من لفت الباحث بيصعين إلى أن الإقرار بان الفاطميين والأمويين بهيمنتهم الدائمة والمطلقة على المغرب الأقصى ليس لها من الحقيقة التاريخي إلا ما يجعلها هيمنة نسبية ومؤقتة محدودة بحدود الحملات العسكرية ، مؤكدا في ذات السياق،ان السيادة الأموية الحقيقية لم تتجاوز سبتة الا نادرا وأن سيطرة الفاطميين لم تكن الا في مدد قصيرة لم تتجاوز فترات الحملات[45].

ب-كرونولوجيا الحملات الفاطمية والاموية على المغرب الاقصى:

- الحملات الفاطمية:

بدأت الحملة الفعلية الفاطمية الأولى سنة305هـ بقيادة مصالة بن حبوس والى تاهرت صوب مدينة فاس لمحاربة يحي الإدريسي الذي أرغم علة مبايعة المهدي عبيد الله، ثم عين موسى بن ابي العافية عاملا على شمال المغرب من الريف الة وادي ابي رقراق ، لكن الأمراء الادارسة عاد والى ارتدوا عن بيعتهم لعبيد الله الذي جهز مرة اخرى حملة ثانية سنة309هـ بدأت من تلمسان حيث خلع أمراء الادارسة،وحارب مصالة الحسن الحجام قائد الادارسة ،وبعد وفاة مصالة ،قام المهدي بإرسال ولي عهده ابا القاسم للانتقام من قبائل مغراوة حيث تمكن من دخول تلمسان سنة 315هـ.

وفي سنة321هـ قطع موسى بن ابي العافية الدعاء للفاطميين وانحاز للأمويين مما جعل المهدي يحرك جيشه بقيادة حميد بن يصلتن للانتقام من موسى بن ابي العافية ،ولكن وفاة المهدي في السنة الموالية توقف إرسال الحملة إلى حين تربع أبو القاسم على عرش وأمر قائده ميسور الخصي إلى المشي قدما إلى فاس التي دخلها سنة 323هـ،فمال الادارسة لجانب

[44] عبد الكريم بيصعين، مرجع سابق،ص: 436.

[45] عبد الكريم بيصعين،مرجع سابق،ص:445.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفاطميين مقابل تحالف موسى بن أبي العافية المعادي للادارسة مع الأمويين.

وتولى جوهر الصقلي الحملة العسكرية المؤرخة سنة347على سجلماسة،وعلى فاس سنة348هـ منهيا حملته باعتقال أميرهما حيث سيتم سجنهما بالمهدية،وبعدما قرر المعز مغادرة افريقية في اتجاه مصر خلف على المهدية بلكين بن زيري ،مرخصا له التحرك صوب المغرب الأقصى سنة362هـ بجيش عظيم للقضاء على مغراوة وبني يفرن مقابل دعم مكناسة والادارسة.

-الحملات الأموية:

عملت الدولة الأموية انطلاقا من الأندلس على توجيه أنظارها إلى المغرب الأقصى باعتباره مجالا جغرافيا استراتيجيا إذا ما تمت السيطرة عليه من طرف الدولة العبيدية الموجودة بأرض افريقية ،فان الأندلس ستصبح حينها في خطر متعدد الأوجه،يمكن أن يتطور إلى حصار اقتصادي يحرمها من مصادر التجارة الصحراوية عبر المغرب،ويضغط على أسطولها البحري من جهة أخرى ، ويحد من أثرها السياسي على المستوى الإقليمي ...مما جعل المجال المغربي ذات أهمية استراتيجية عملت دولة قرطبة على تبني سياسة ثابتة تقوم على المحافظة على مصالحها من خلال التدخل العسكري والمذهبي والسياسي والاقتصادي ، وضمان مراكز بحرية وداخلية ،واستمالة إمارات وزعامات لجانبها ضد الفاطميين،وهو ما حاولت تكريسه حملاتها العسكرية التي وطنت لتحركاتها وقتما أدركت ضرورة ذلك والتي جاءت على الشكل الأتي :

- الاستيلاء على سبتة من يد بني عصام الموالين لادارسة.

- إعلان موسى بنو العافية للناصر الخليفة الأموي،سنة321هـ،كما حاولت فاس نقض بيعة الفاطميين لصالح الأندلس سنة322هـ إلا أن تدخل ميسور الفاطمي افشل ذلك[46].

- بيعة أبي العيش للأمويين سنة337هـ لكنه رفض منح طنجة لهم جعل الناصر يستولي عليها بالقوة ويعين واليا جديدا على فاس ويبسط سيطرته على المناطق الممتدة من تاهرت إلى طنجة.[47]

- إرسال الأندلس جيشها سنة362هـ بقيادة محمد بن طملس لمحاربة الحسن بن كنون ،ولكن انهزم هذا الجيش وقتل قائده،ليتبع جيش آخر بقيادة

[46] العربي اسماعيل،مرجع سابق،ص:162.

[47] العربي اسماعيل،مرجع سابق،ص:175.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غالب الذي هزم الحسن بن كنون أمام قصر مصمودة.[48]

- أرسل المنصور بن أبي عامر قائدة عسكلاجة سنة373هـ لمواجهة الأمير الإدريسي الحسن بن كنون الذي استسلم بعد عامين 375هـ،ليفتح المجال أمام زناتة حليفة الأمويين للسيطرة على البلاد وضمان التبعية والولاء للأمويين إلى سنة وفاة المعزبن زيري بن عطية سنة422هـ.[49]

خاتمة:

ساهمت الأحداث التي كان مسرحها المغرب الأقصى في خضم الصراع بين قوتين متنافستين مختلفتين من حيث مذهبهما الرسمي وأهدافهما وحساباتهما الجيوسياسية،في إدماج الكيانات السياسية المحلية والإمارات والحركات السياسية في مسالة الصراع السني –الشيعي ،مما جعل هذه المشاريع السياسية الطموحة إلى إقامة دولة موحدة قادرة على مواجهة تحديات المرحلة وتجاوز حالة الانقسام والتفكك السياسي الذي استفادت منه القوى المجاورة ووظفته خدمة لمصالحها،واستخدمته لضرب من يعاديها منهم،بحيث تحولت الإمارات المحلية إلى أدوات سياسية لضرب من يعادي الدولة التي يخضعون لتبعيتها.

وبالرغم من التوجهات السلبية التي خلقها جو الصراع بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية على ارض المغرب الأقصى،كإفشال المشروع الوحدوي للإمارات السياسية ،فانه لم يستطع إزالة الوحدة المذهبية لأهل البلد الذين تمسكوا بالمذهب السني وكرسوا تبنيهم المالكية كاختيار للسلوك العقدي ،ليشكل إضافة نوعية نحو بناء وحدة الدولة المركزية التي شكلها الادارسة بالرغم من الصعوبات الداخلية والتحديات الخارجية.

---

[48] العربي اسماعيل،مرجع سابق،ص:183.

[49] حركات ابراهيم،المغرب عبر التاريخ،الجزء الاول،دار الرشاد الحديثة،البيضاء، الطبعة الثانية1993،ص:107.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلاقات الجزائرية المغربية على عهد الأمير عبد القادر الجزائري و السلطان عبد الرحمان المغربي (1832-1847)م

بن سيفي عزالدين

الهيئة أو المؤسسة : كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم التاريخ جامعة تلمسان

Algerian - Moroccan relations At the time of lEmir Abdelkader Eljazairy and Sultan Abd el rahman Elmaghriby (1832-1847)

Summary :

Algerian- Moroccan relations At the time of lEmir Abdelkader Eljazairy and Sultan Abd el rahman Elmaghriby (1832-1847)

At the time of lEmir Abdelkader and Sultan Abd el rahman; the Algerian-Morrocan relations have gone through varying periods in terms of attraction and repulsion. At the beginning, the relationship was based on support and cooperation but soon afterwards, there was a foreign intervention especially by the French. Hence, hostility, cunning and deception all became the basis of this relationship. In fact, it combined between two countries which share the same history, language, religion, blood and other numerous links such as neighbourliness and affinity... As France had a long experience in colonization and separation between the nations, it worked hard to disconnect these relationships so as it can reach its colonial goals in the Maghreb Arabe .

Key words : Algeria, Morocco, relations , Solidarity, france , contention ,

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملخص :

تميزت العلاقات المغاربية وفي أطوار مختلفة من تاريخها بالتجاذب و التنافر، رغم ما لشعوبها من قواسم وروابط لا تنكر ، ولعل ما طبعها على ذلك أسباب بعضها يرجع في أساسه إلى اختلاف الرأي بين قادتها و أولو أمرها ، وبعضها إلى أطراف خارجية لها غاية من ذلك ، وفي مثال العلاقات الجزائرية المغربية على عهد الأمير عبد القادر و السلطان عبد الرحمان خير دليل، حيث شهدت هذه العلاقة فترات متباينة من المد والجزر ، فكانت في البداية علاقة أساسها التأييد والتعاون، ثم ما لبثت أن تعكرت بالتدخل الأجنبي ، خاصة الفرنسي، لتصبح علاقة أساسها الصراع والعداء.

لقد مثلت في الحقيقة علاقة الأمير و السلطان عبد الرحمان علاقة بلدين يجمعهما تاريخ واحد ولغة ودين و دم وروابط أخرى لا تعد ولا تحصى من جوار و مصاهرة ...، و لما كانت فرنسا بتجربتها الاستعمارية الطويلة أعلم الأمم بفوائد التفرقة لتسود هذه الديار، فقد عكفت على فك أواصل هذه الروابط حتى يتسنى لها تحقيق أهدافها الاستعمارية في منطقة المغرب العربي.

كلمات مفتاحية : الجزائر ، المغرب ،العلاقات ، التضامن ، فرنسا ، العداء

العلاقات الجزائرية المغربية على عهد الأمير عبد القادر الجزائري و السلطان عبد الرحمان المغربي (1832-1847)م

مقدمة :

تستند العلاقات الجزائرية المغربية على عهد الأمير عبد القادر الجزائري والسلطان عبد الرحمان المغربي إلى خصوصيات فريدة ومميّزة، ولعل ما يميزها أنها مثلت أعقد حلقات هذا التاريخ من العلاقات التي ربطت البلدين في مختلف حقبهما ، هذه العلاقات التي تميزت بتاريخ من المد و الجزر ، وامتلأت بجراح لازالت أثارها بادية إلى اليوم ، ولأنّ موضوع العلاقات الجزائرية المغربية لم يحظى بدراسة موضوعية كافية من المخّتصين ، الذين تركوا المجال مفتوحاً لبعض الحاقدين المتطاولين على رموز هذه الأمّة المغاربية ، عارضين في ذلك عروضاً مدسوسة ، زادت الجراح عفناً و ألماً .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثلت علاقة الأمير عبد القادر و السلطان عبد الرحمان في الحقيقة علاقة بلدين يجمعهما التاريخ و الجغرافيا، ولشعوبهما أواصل يشدُّ بعضها بعضا، و وشائج تجعل بعضها من بعض، فما شئتَ من روابط التاريخ، و الدين و اللغة، و ما شئت من روابط الدم والجوار والمصاهرة ، وزادت هذه العلاقة متانةً في المحن و الخطوب، حتى أصبح البلدان كالبنيان المرصوص عشيت الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 م ، ولما كان الاستعمار يبني سياسته على أساس التفرقة تحت شعاره المعهود "فرق تسد"، فقد عكف على فك أواصل هذه الروابط تاريخياً وجغرافياً ، فعمد في البداية إلى النميمة بين رموز الفريقين ،لاعتبارهما - الأمير والسلطان - الفاعلان الرئيسيان في رسم ملامح العلاقات بين البلدين فقد كانا محل ضربات ممنهجة غرضها خدمة الاستعمار و أهدافه ، ثم فصلهما كلٌ في حدوده، لتبقى هذه الأجزاء تتطاول بعضها على بعض و تتنافر و تتجاذب إلى أن يهتدي الناس إلى خبث الاستعمار ودسائسه .

وفي هذا الصدد لا بد من الوقوف عند نقاط للتساؤل عن حال هذه العلاقة في ظل ما ذكرنا من ظروف، فما هي طبيعة هذه العلاقة ، وهل كان لفرنسا دورٌ في توجيهها ؟

دولة الأمير عبد القادر:

إن مسؤولية الدفاع وخلق جهة تعوض الفراغ القيادي الذي خلفه انسحاب الأتراك من الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي، والعمل على إعادة الاستقرار للبلد كانت الشغل الشاغل لمجموعة من الأعيان الذين يحسبون على الطبقة المثقفة الوطنية [50]، خاصة في ظل الظروف التي كانت عليها البلاد عقب خروج ممثل السلطان المغربي من تلمسان [51]، فبدأت تظهر ملامحها القيادية في أحد أبرز الزعامات الصوفية في منطقة معسكر خاصة بعد سلسلة الانتصارات التي حققتها ضد الفرنسيين في خنق النطاح، فكانت دافعاً للمرابطين و أتباعها أن يعقدوا عزمهم في قائدها الشيخ محي الدين [52]، فعرضوا عليه أن يكون أميراً عليهم [53] فَتحجَج بِعلو سنه وَوَهْنِ عظمه ، وعرض عليهم من هو أصلح لها و أقوم ؛ ولده وصاحبه الأميرُ عبد

---

[50]- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ،ج4، دار الأمة ، الجزائر ، ط 2010،3م ، ص280 .

[51]- للمزيد حول موضوع التواجد المغربي في تلمسان عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر ينظر:

A. cour: « l'occupation marocaine de tlemcen 1830-1836 », in revue africaine ,n°52,1908 .

[52]- ناصر الدين سعيدوني ، عصر الأمير عبد القادر الجزائري،مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود للبابطين للإبداع الشعري ، ط1 ، 2000 ،ص114.

[53]- شارل هنري شرشل ، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974، ص52 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القادر ، وفي هذا كانت مبايعته يوم 21 نوفمبر 1832 [54].

وكان لقيام هذه الدولة – دولة الأمير عبد القادر- في شرق المغرب الأقصى على أساس من رعاية الجوار والتفاهم والتعاطف بين الشعبين ، موضع رضا السلطان عبد الرحمان خلال السنوات الأولى من قيامها ، وقد زاد العلاقة متانة بين الشعبين الشقيقين شعور الإعجاب الذي كان يحمله السلطان عبد الرحمان للأمير الشاب عبد القادر بن محي الدين شخصياً [55]، لما أبداه هذا الأخير خلال أعوام طويلة من ضروب الشجاعة وحسن التدبير.

التأييد و التفاهم و التعاون عنوان للعلاقة :

إن أول اتصال كان بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان حسب الأدبيات الجزائرية هي رسالة التهنئة التي بعثها السلطان عبد الرحمان إلى الأمير عقب تحقيقه للانتصار السياسي في معاهدة دي ميشال ، وفي هذا يقول المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي الذي عبر عنه باعتراف دولة المغرب الأقصى بالحكومة الجزائرية « ...ويوم أن تم التوقيع على معاهدة وهران – ويقصد بها معاهدة دي ميشال– وأوفد سلطان المغرب الأقصى المولى عبد الرحمان بن هشام من يقوم بتمثيل دولته في تقديم مراسيم التحية والهناء إلى حكومة الأمير عبد القادر بمناسبة نجاحها في الميدان السياسي بهذا التفوق الباهر، وإحرازها على الفوز بعد هذا النضال ، حيث حل الوفد في الجزائر مصحوبا بهدايا نفيسة وذخائر وآلات حربية ، كما جاؤوا معهم بطائفة من الجند الفرنسي الذين كانوا قد فروا في ما سبق إلى المغرب الأقصى ، فبعث بهم المولى عبد الرحمان إلى الأمير ليرى فيهم رأيه، فقبل الأمير كل ذلك بقبول حسن و أكرم وفادة الوفد وعظم جانب السلطان... » [56] ،كما كانت لسلطان مراسلات أخرى مع الأمير في ما يتعلق بالخلاف الذي وقع بينه وبين الأغا مصطفى بن إسماعيل في محاولات لرأب الصدع وإصلاح ذات البين [57].

وفي رسالة أخرى يهنئُ السلطان الأمير في إحدى انتصاراته فيقول « ...محل الولد البار الأحضى المجاهد الأرضى السيد عبد القادر بن محي الدين، أمدك الله بالعون واليقين ... إن عادة الله في هذا العدو الأصفر أن يوبقه ببغيه كما وقع له بمصر وغيرها وأذكرك غزوة وادي المخازن على عهد السعديين فان أعداء الله خرجوا في مائة ألف فارس وخمسة وعشرين ألفا ... فهزم الله الكافرين » [58] ،كما بعث الأمير عبد القادر إلى السلطان عبد الرحمان بعض البعثات

---

[54]-يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنيين التاسع عشر والعشرين ،دار البصائر، الجزائر، 2009 ، ص 37 .

[55]- إسماعيل العربي ،المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982م ، ص267.

[56]-عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ،ج 4 ، ص 309.

[57]- عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم ، مج 10 ، الدار البيضاء ، 1988 ،ص 13.

[58]- نفس المرجع ، ص 13.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعل أهمها بعثة "هدية العيد " التي بعثها الأمير إلى السلطان بمناسبة عيد الفطر سنة 1836م ، وكان ابن عراش والبركاني مبعوثاً الأمير، ورافق ابن عراش محمد ولد الحاج علي ، وقائد تلمسان محمد بن عبد القادر بن حامد ، فأحسن السلطان وفادتهم ، وكتب لهم عند رجوعهم كتاباً إلى بني قيل وذوي منيع والعمور، وآنجاد يأمرهم أن يعينوا الأمير في الجهاد [59] ،كما كان من عادة الأمير أن يستشير السلطان المغربي كلما حدث ما يوجب هذه الاستشارة من الأمور الجسام، ومن ذلك استشارته له في شأن إرسال سفير جزائري إلى فرنسا سنة 1838م، ومن خلال رسالة السلطان إلى الأمير في هذا الموضوع نلمس روح المودة التي كانت تربط بين الرجلين في هذه المرحلة[60] .

ومن خلال هذه المراسلات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان بن هشام في هذه الفترة يتبين لنا أنّ الطرفين كانا على تواصل تام، حيث إستفاد البلدان في هذه الفترة من علاقات التعاون وحسن الجوار، فوائدَ لا تنُكر، فأمَّا المقاومة الجزائرية فقد كانت تجد في المدن والموانئ المغربية السّوق الضرورية لإبرام صفقات شراء الأسلحة والذخيرة التي كانت تأتي خصوصا من جبل طارق ، وتمر عبر الحدود بمساعدة السلطات المغربية[61] ، هذا بالإضافة إلى الدعم اللوجستي الذي كان يتلقاه الأمير من السلطان شخصياً وفي هذا الصدد يذكر الكونيل أوسكوت باعتباره شاهد على كيفية الإمداد بالسلاح والدعم الذي كان يتلقاه الأمير من السلطان عبد الرحمان فيقول:«...وفي الفاتح من سبتمبر بدأ هذا الشهر بوصول قافلة من فاس تتكون من ستين بغلا مثقلة بالأقمشة للجيش و بمائة برميل من البارود من نفس المصدر الذي جاءت منه مواد أخرى منذ بضعة أيام وقد رافق هذه القافلة ابن الحاج طالب بن جلول (ابن رئيس وزراء المغرب)نفسه... »[62].

كما كانت الأراضي المغربية قاعدة إستراتيجية يلجأ إليها الأمير كلما دعت ضرورة الحرب إلى ذلك ، علاوة على هذا فقد وجد الأمير الدعم الكافي المادي والبشري من القبائل المغربية خاصة الواقعة بالحدود والريف المغربي وحتى مدن الساحل كتيطوان ، وفي هذا يقول أُوسكوت «...ولما غادرنا تيطوان،خرج

---

[59]- الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر ، تحق: محمد الصغير بناي وآخرون، دار الأمة، الجزائر، ط2010،7، ص 172.

[60]- الحسن اليوبي " المغرب والجزائر ومواقفهما في مواجهة الزحف الاستعماري في عهد السلطان المولى عبد الرحمان العلوي والأمير عبد القادر الجزائري في النصف الأول من القرن 19 م " ، مجلة دعوة الحق الالكترونية ،وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، العدد 289 ، على الرابط التالي :- http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/7530

[61]- إسماعيل العربي ، مرجع سابق ، ص 268.

[62]- الكلونيل اوسكوت ، مذكرات الكلونيل اوسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841،تر: إسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1989م ، ص 149.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتوديعنا عدد كبير من الناس وقبل أن نخطوا الخطوات الأولى، تقدم إلينا شيخ عجوز ورفع يديه إلى السماء يدعوا الله أن يسهل سفرنا ويجعله ميمونا بحيث نلتحق بسلام إلى حامي الإسلام »[63].

ويضيف الكولونيل أُوسكوت في مذكراته الشخصية التوّثيق للكثير من مظاهر التّضامن المغربي خاصة الشعبي مع مقاومة الأمير عبد القادر ، فيذكر بعض هذه المظاهر فيقول: «...ولما وصلنا إلى إحدى هذه القرى ، قابلنا وفد منهم على رأسه قائد المنطقة الذي سأل مانوتشي [64]عما إذا كان هو سفير الأمير عبد القادر وعندما أجابه بالإيجاب ترجاه أن يقبل منه أربعين دولارا مساهمة منه في تكاليف حرب الجزائر، واثر ذلك رفع رجال الوفد أيديهم متضرعين إلى الله بان يقهر الغزاة الفرنسيين ويرشد السلطان عبد الرحمان ملكهم ويوفقه لينضم إلى الأمير عبد القادر في الدفاع عن قضيته العادلة . »[65]، و يبدو جلياً من خلال ما تقدم المكانة التي حُضيّ الأمير بها في الأوساط الشعبية المغاربية ولاسيما في الريف من الإعجاب والتقدير، فالمقاومة الجزائرية كانت تجربة حية ومثالاً للنضال الذي يمكن لكل مسلم أن ينال فيه فضل الجهاد والاستشهاد ،

[63]- نفس المصدر ، ص 22 .

[64]- نيقولا مانوتشي : من جنسية ايطالية هو معتمد الأمير في جبل طارق (مفوض للعلاقات الخارجية لدولة الأمير) ، وهو ابن قنصل ايطاليا في بتزرت .

[65]- الكلونيل اسكوت ، مصدر سابق ، ص 28.

وهذا لا يتسنى للمسلم إلا بتزكية العلماء والفقهاء، وفي هذا الصدد يجب أن لا ننسى الدور الذي لعبه علماء المغرب ، وعلى رأسهم العالم الفقيه أبو الحسن علي بن عبد السلام التاسولي[66] ، الذي كان يرد على مسائل الأمير عبد القادر ، حيث تذكر المصادر أنّ الأمير عبد القادر كان يستفتي علماء فاس في أمور الدّين كالجهاد والزكاة والرِدَّة ، فالسلاوي الذي ذكر إحدى هذه المسائل فيقول: «...وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ورد من عند الحاج عبد القادر بن محي الدين إلى علماء فاس يقول فيه ما نصه : " الحمد لله ...سادتنا الأعلام أئمة الهدى ، مصابيح الظلام فقهاء الحاضرة الإدريسية ... وقد أجاب عن هذا السؤال بإشارة من السلطان العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام مديدش بجواب طويل يشتمل على خمسة كراريس وزيادة »[67] ،وقد ذكر هذا النص أيضاً الأمير محمد صاحب تحفة الزائر الذي يذكر

[66]- هو علي بن عبد السلام بن علي التسولي ، ويلقب بـ(مديدش)، وهو أحد أكبر العلماء و الفقهاء المغاربة في هذا العصر. ينظر : المنوني محمد ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، ط1 ، مطبعة الأمنية ، الرباط ، ج1 ، 1973، ص 16.

[67]- أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج 4 ، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، ص 290.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة وما كان من رد الفقيه التاسولي على الأمير[68].

أما بالنسبة للمغرب الأقصى ، فقد كان استتبابُ الأمن في الجزائر أمراً حيوياً لتجارة المناطق الشرقية ، بل وللمنطقة الواقعة خلف نهر الملوية أيضاً ، فقد كانت القوافل التي تمر عبر التراب الجزائري وتنقل السلع بين بلاد السودان الغربي و فاس تتعرض للسلب؛ بسبب اضطراب الأمن في عهد الأتراك فكانت في كثير من الأحيان تتعرض لمضايقات عند الحدود ولهجمات القبائل التي تمر بأراضيها ولقطاع الطرق ، وكثيرا ما تُنْهَبُ القوافل ويقتل المرافقون لها ، إلا أن دولة الأمير وما إشتهر عنها من العدل و الاستقامة أصبحت القوافل التجارية في مَأمنٍ و تتمتع بحرية التنقلات[69].

وزيادة على ضمانات الأمن التي وفرها الأمير للقوافل ، فقد فتح الحدود وحرر التجارة بين البلدين من جميع القيود التي كان يفرضها الأتراك ، وزيادة على هذا فإن السلطان عبد الرحمان قد وجد في الأمير واسطة قوية لفرض الطاعة على القبائل الحدودية المعروفة بكثرة التمرُّد ، فالأمير استطاع بحكمته وقوته أن يروض هذه القبائل التي لطالما شكلت هاجساً في بلاط العلويين ، كقبائل الريف وقبائل الحدود كبني زناسن و آنجاد[70] ؛ وباختصار فقد كان تأيّيد المغرب الأقصى الذي يقوم على المصلحة ،وعلى رعاية العلاقات الأخوية تأييداً أخوياً شاملاً مادياً ومعنوياً.

ولكن هذا الوضع الجيد من العلاقات الذي كان كل من البلدين يجد فيه ما يبعث على الرضا سوف يتعقد وتدخل فيه حسابات سياسية داخلية وخارجية تؤدي في النهاية إلى تعكر هذه العلاقات.

موقعة إيسلي 14 أوت 1844 م:

إن فرنسا بخبرة جيوشها وتاريخها الاستعماري الطويل، لم تكن في غفلت عن العلاقات الطيبة التي جمعت الأمير والسلطان المغربي، فأعْيُنوها المبثُوثة في كل مكان كانت ترصد كل شاردة على الحدود، وتنقل كل صغيرة وكبيرة عن الأمير وعلاقاته بالمغاربة ، ولما اشتد عليها ذلك ، خاصة بعد الانتصارات المتتالية التي حققها الأمير قرب الحدود، وعلمها بالدعم الذي تتلقاه المقاومة الجزائرية من المغرب راحت تدبر الدسائس والمكائد للإخوة ، خاصة وأنها رأت في اتحاد السلطان والأمير مصيراً محتوم بنهاية التواجد الفرنسي في المغرب العربي.

أما الأمير صاحب الخبرة و الذي كان أعرف القادة بقوة فرنسا ونقاط ضعفها فقد كان يرى ذلك أيضاً ، فقد وجه بعثة دبلوماسية إلى السلطان برئاسة ميلود بن عراش من أجل إقناعه للدخول في مواجهة مباشرة مع فرنسا

---

[68]- محمد بن الأمير عبد القادر ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، ج 1 ، المطبعة الأهلية ، الإسكندرية ، ط 1، (د ت) ،ص ص 207-208-209.

[69]- إسماعيل العربي ،مرجع سابق ،ص 268.

[70]- شارل هنري شرشل ،مصدر سابق ،ص 219.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإطلاعه على نوايا فرنسا في منطقة المغرب العربي ، وحمله على التدخل العسكري ضد فرنسا لحمل لواء النضال الذي كان الأمير مستعداً أن يسلمه إياه[71].

ولما رأى الأمير أنّ السلطان قد تمسك بموقف الحياد ، حاول الأمير الشاب الطموح أن يضع السلطان أمام الأمر الواقع، خاصة و أنّ الأمير كان يعلم من مساعديه شغف الجماهير المغربية إلى الجهاد، وفي هذا يقول أوسكوت الذي يعتبر شاهداً على المناورات الفرنسية ضد الوضع في المغرب فيقول:«... والصحف الفرنسية في الوقت الحاضر تغزو النية إلى الحكومة الفرنسية بان تقوم الحملة بحربة لقصف طنجة والصويرة (موجادور) لكي تنتقم مما تسميه خيانة السلطان عبد الرحمان ، فهل يدرك الفرنسيين أن السلطان المغربي ملزم بحكم الروابط الدينية بحماية الأمير ؟ هل يدركون أنه مهما تكن الاعتذارات التي يقدمها إليهم السلطان لكي يتجنب قطع العلاقات بنيه وبين فرنسا فهو في نهاية الأمر ،سيفضل هذه القطيعة على محاولة استعمال العنف مع الأمير، فإن الأمير عبد القادر هو البطل الذي يدافع عن الدين الإسلامي الذي يدين به السلطان عبد الرحمان، وبالتالي فلو قام بأية محاولة من هذا القبيل ،لوجد الشعب المغربي يقف ضده ، وفي جانب الأمير عبد القادر»[72]

و يظهر من كلام أسكوت الخبير العسكري الذي زار المغرب وطاف في أريافه وقبائله، كان يعرف شغف المغاربة في الجهاد تحت لواء الأمير، وعلى الأرجح قام بنقل هذه الأخبار إلى الأمير الذي كان يرى في إقحام المغرب وضمه إلى ساحة المواجهة ونيل الشرف الجهاد الذي كانت تَتُوقه الجماهير المغربية ، التي كانت غير راضية على الموقف الحيادي للسلطان على ما يبدو[73].

إذاً كانت خطة الأمير أن توغل في الجزائر إلى ضواحي سيدي بلعباس فغزا قبيلة بني سليمان التي عرفت بميولها للعدو ثم عاد أدراجه إلى المغرب الأقصى ، حيث كان يهدف من وراء هذه الخطة إلى استدراج القوات الفرنسية إلى الحدود المغربية ، وبذلك يجد السلطان نفسه وجهاً لوجه أمام عدوان فرنسي واضح[74]، إلا أنَّ الفرنسيين الذين كانوا يتخوفون من أن تؤدي الحرب مع مولاي عبد الرحمان إلى اندلاع ثورة شاملة في المنطقة خاصة أن ظروف الحرب الطويلة في الجزائر أنهكت خزانة المالية الفرنسية ، مما أدى بتعالي أصوات المعارضة في مجلس النواب ، علاوة على هذا كان الفرنسيون لا يودون إعطاء أي فرصة لبريطانيا و اسبانيا التين كان يبدو عليهما الاستعداد للتدخل في وضع حد للأطماع الفرنسية في المغرب، وفي إجراء غير مسبوق قام الفرنسيين بإقامة مراكز عسكرية على الحدود ، وإنشاء نقاط مراقبة

---

[71]- إسماعيل العربي ، مرجع سابق ،ص 269.

[72]- الكولونيل أسكوت ، مصدر سابق ، ص17.

[73]- هنري شرشل ، مصدر سابق ، ص222.

[74]- إسماعيل العربي , مرجع سابق ، ص 270 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن ضمن المناطق التي اختارها الفرنسيين لإنشاء مراكز كانت مدينة لالة مغنية، وإزاء هذه التطورات أرسل السلطان على لسان عامله على وجدة السي الطيب القناوي إنذاراً إلى السلطات الفرنسية للجلاء على مغنية [75].

وفي 11 من شهر جوان وصل المارشال بيجو[76] إلى لالة مغنية [77]، حيث اقترح على القناوي أن يعقد الطرفان لقاءا للتباحث ، وكان بيجو قد تلقى أخبار حادث اشتباك القوات المغربية بالقوات الفرنسية لدى وصوله إلى

[75]- هنري شرشل ،مصدر سابق ، ص 223 .

[76]- هو المارشال توما بيجو من نبلاء بيكورني ولد سنة 1784 بمدينة ليموج الفرنسية يلقب بدوق إيسلي ، إنخرط في الجيش سنة 1804 وشارك في حروب نابليون الأولى ، وفي سنة 1836 عين قائد المنطقة وهران ،خاض مع الأمير معارك عديدة انتصر في بعضها وانهزم في أخرى ما دفعه لإبرام معاهدة تافنة في ماي 1837 التي اعترف فيها فرنسا ثانية بدولة الأمير ، ثم أستدعي إلى فرنسا ليشغل نائبا في البرلمان وفي سنة 1840 عاد إلى الجزائر وعين وليا عام بعد استئناف الحرب بين الجيوش الفرنسية والمقاومة الجزائرية بقيادة الأمير .بقي في الجزائر إلى سنة 1847 سلط خلالها على الجزائريين حرب إبادة شنعاء وارتكب جرائم كثيرة كمحرقة الفراشيش 1845 ، أما عن اتجاهه السياسي فقد كان يدعي الإنتماء إلى التيار الديمقراطي الليبرالي لكنه في الحقيقة كان من دعاة النظام الملكي، وقد أصبح بيجو في الذاكرة الفرنسية وخاصة لدى المعمرين عنوانا ، "للإمبراطورية الكولونيالية " توفي سنة 1849 بداء الكوليرا ينظر : https:/wikipedia./ar.org/wiki.

[77]- إسماعيل العربي ، مرجع سابق ،ص 272.

وهران في 5 جوان وفي ذلك اليوم نفسه ، كتب إلى قنصل فرنسا في طنجة ليبلغه تطورات الموقف ويطلب منه الاتصال بالسلطان المغربي ليعرض عليه رغبة فرنسا في أن يعين أحد أتباعه لينوب عنه ليتفاوض مع السلطات الفرنسية لرسم الحدود بين البلدين [78].

وفي لالة مغنية ،كتب المرشال بيجو إلى القناوي يعرض عليه أن يجري محادثات لتسوية النزاع مع الجنرال لاموريسال لأن بيجو لم يكن يريد أن يدخل في حرب مع المغرب للأسباب التي ذكرنا سابقاً، وقد قبل القناوي القائد المغربي هذا الاقتراح وتمت المقابلة يوم16 جوان، ولكن المحادثات توقفت بسبب إقدام بعض الفرسان المغاربة على إطلاق النار[79]، وأمام هذا الوضع شعر بيجو بضعف المغرب فقرر احتلال وجدة ، حيث كتب إلى القناوي يبلغه عزمه على احتلال مدينة وجدة ، ومما جاء في رسالة بيجو «... إننا نرغب في أن تكون لنا نفس الحدود التي كانت للأتراك ثم لعبد القادر بعدهم ....."،ولكن هذا الإنذار لم يأت بنتيجة ، فقد تراجع الجيش المغربي إلى الداخل في مقابل زحف بيجو على وجدة التي دخلها بدون مقاومة ، فيما انسحب جيش القناوي منها باتجاه إلى تازا[80].

[78] -Georges YVER : « Documents Relatifs à la guerre franco – marocaine de 1844 » in Revue Africaine , n°54 , 1910 , pp 63-69.

[79]- هنري شرشل، مصدر سابق ، ص223.

[80]- إسماعيل العربي ، مرجع سابق ، ص273.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغم من المعارك التي جرت عند لالة مغنية والإنذارات الفرنسية المتوالية ، إلا أنَّ السلطان عبد الرحمان إلتزم الصمت التام ، وقيل أنّ هذا الموقف الذي يَنِمُ عن الهدوء والثقة كان نتيجة تشجيع ممثلي بريطانيا؛ الجنرال ولصن في جبل طارق و دوق روموند هاي قنصل بريطانيا في طنجة ، اللذان نصحاه بمقاومة الضغوط الفرنسية بالوسائل بهدوء[81] ،ويبدو أن بريطانيا كانت قد أوفدت إلى فرنسا مذكرة احتجاج عن أحداث الحدود .

تواصل الضغط الفرنسي العسكري والسياسي على المغرب، فالنزاع الذي نشب على الحدود سرعان ما انتشر إلى الجنوب ، وفي شهر جوان انطلق الأسطول الفرنسي من طولون بقيادة الأمير" دي جوان فيل " الذي وصل في أواخر الشهر جوبلية إلى المياه الإقليمية للمملكة المغربية[82] ثم وجه ابن الملك " جوان فيل " إنذارا إلى السلطات المغربية ، محدد ثمانية أيام مهلة للرد على مطالب فرنسا ،ولما لم يتلق ردّا مباشراً شرع في قصف مدينة طنجة بالمدفعية يوم 6 أوت ثم الصويرة (موجدور) في يوم 25 أوت، وفي هذه الأثناء كان السلطان عبد الرحمان قد أنهى كل الترتيبات إلى الجيش الذي عهد به إلى ابنه المولي سيدي محمد ،الذي ضرب معسكره عند "وادي أسيلي" على مسافة كيلو متر إلى الشمال الغربي من وجدة[83] .

وفي نفس الشهر ،تلقى "بيجو" رسالة من "جون فيل" يعلن إليه فيها قيام الأسطول الفرنسي بقصف "طنجة "و "موجدور"[84] ،وفي 13من نفس الشهر وصل إلى بيجو أمر من الحكومة يقضي بعدم تجاوز الحدود المغربية ،ولكن المارشال ضرب بالأمر عرض الحائط وهيأ في الغد جيشه الذي يتكون من 11500 جندي ، ثم عبر النهر ، ودخل في معركة مع الجيش المغربي الذي يقدر بـ 30 ألف مقاتل ، فوقعت معركة استمرت طيلة النهار انتهت بهزيمة المغاربة[85] .

معاهدة طنجة 10 سبتمبر 1844م :

لقد لاحظنا كيف انتصرت فرنسا عسكرياً على جيش السلطان المغربي ،هذا الانتصار الذي له من المبررات ما يكفينا عن ذكره ،فهي -أي فرنسا-دولة قوية مرهوبة الجانب أما المغاربة الذين دخلوا المعركة دون تدبير رغم كثرة الجند ، فقد كانت الخسارة ثقيلة ومخزية أدخلت المغرب إلى مرحلة جديدة من تاريخه فَقَدَ فيه عزته وفقد فيها نشوة واد المخازن ،إن معركة "إيسلي" في الواقع أبرزت للسلطان مولاي عبد الرحمان حقائق الأمور فمنها ؛ أن قواته غير متكافئة مع الفرنسيين ،وأنه لا يستطيع

---

[81] - CHARLES - André julien: « Histoire de l'Algérie contemporaine », éd Casbah, Alger, 2005 ,p.197.

[82] - عبد الهادي التازي ، مرجع سابق ،ص13.

[83] - CHARLES-André julien: op –cit، p 198.

[84] - BENACHENHOU - a ": l'état algérien en 1830 ses institutions sous l' Emir Abdelkader"، éd ENAG ، Alger 2009 ،p128

[85] - إسماعيل العربي ، مرجع سابق ، ص 280.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مواجهتهم مستقبلا[86] ، وللحفاظ على العرش لم يبقى أمام السلطان عبد الرحمان من خيار سوى أن يدخل مع الأمير عبد القادر حرباً ضد الفرنسيين أو يستسلم لضغوطهم ،وهنا فوض السلطان لنائبه وعامله بطنجة بوسلهام بن علي في عقد المعاهدة والصلح المقترح عليه من لدن فرنسا[87].

جرت المفاوضات بين الطرفين ،حيث مثل الوفد الفرنسي كل من الدوق "ديك لو كوبارغ" والقنصل "دوري دي نيون "أما عن الجانب المغربي فحضر بوسلهام ابن علي قائد طنجة ،وانتهت المحادثات ، بعقد معاهدة طنجة يوم 10سبتمبر 1844، والتي تضمنت ثمانية شروط ،حيث جاء فيها، أن يلتزم السلطان المغربي في الشرط الثالث بعدم تقديم المساعدة لأي ثائر أو عدو لفرنسا ،أما الشرط الرابع فتمثل في وضع الأمير عبد القادر خارج عن القانون على امتداد الدولتين الجزائر والمغرب وعليه يجب متابعته بالسلاح على تراب البلدين[88] ، ويحتوي الشرط الخامس على تحديد الحدود ما بين أملاك فرنسا والمغرب تبقى ثابتة ، حسب ما كان معترف به على عهد الدولة العثمانية في الجزائر[89].

معاهدة لالة مغنية 18 مارس 1845 م :

بعد مرور ستة أشهر فقط عن توقيع معاهدة طنجة، طالبت فرنسا من المغرب تسوية وضعية الحدود، وفي هذا الباب الذي لا نجد الأسباب الحقيقية وراء طلب فرنسا لعقد هذه الاتفاقية إلا أنّه من الراجح أن أسباب عقد هذه المعاهدة يرجع في أساسه للطرف الفرنسي الذي كان يرى في معاهدة طنجة على أنها غير واضحة خاصة في ما يتعلق بمسألة الحدود ، علاوة على أنّ الجنرال "بيجو" الذي كان غير راض عن عدم إشراكه في معاهدة طنجة وهو صاحب النصر في إيسلي قد ضغط أمام البرلمان الفرنسي لإعادة النظر حول مسألة الحدود ويبدو أن الجنرال "بيجو"كان يريد ضم مدينة وجدة إلى نطاق حدود دولة الجزائر كما كان يرى أن مسألة الحدود ستكون موضوع اتفاقية خاصة .

أبرمت معاهدة لالة مغنية يوم 18 مارس 1845 [90]وقد اشترك في المفاوضات التي أسفرت عن هذه الاتفاقية من الجانب الفرنسي إضافة إلى الجنرال "دولاروا" السابق الذكر ليون روش الذي كان يشغل قنصل فرنسا بطنجة ، ومن الجانب المغربي ، عامل وجدة حميدة الشجعي و مندوب

---

[86]- أبو بكر القادري ، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930، 1940، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1992،1 ، ص16 .

[87]- عبد الهادي التازي ،مرجع سابق ، ص15.

[88] - CHARLES-André julien : op – Cit ,p.200.

[89]- إبراهيم مياسي ، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية(1837- 1934)م ، دار هومة ، الجزائر ، 2009 ، ص341.

[90]- توجد وثيقة المعاهدة في أرشيف ما وراء البحار(AOM) بمدينة إكس أونبروفنس بفرنسا العلبة 15H30.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخصي عن السلطان عبد الرحمان أحمد السلاوي[91] وبموجب هذه الاتفاقية وقع الطرفان على معاهدة لالة مغنية والتي رسَّمت الحدود بين البلدين حيث نصت معاهدة "لالة مغنية "على تعيين تفصيلي للحدود السياسية ما بين الجزائر والمغرب ابتداء من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى منطقة ثنية الساسي كما حددت أسماء القبائل التابعة لكل من البلدين .

كما تضمنت المعاهدة سبعة شروط تهم المسألة الفرنسية المغربية وحسب شهادة الموقعين على اتفاقية "لالة مغنية" أن الحدود بين الجزائر والمغرب قسمت إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول:حدد بالتدقيق من مصب واد كيس في البحر الأبيض المتوسط إلى" ثنية الساسي" ،الواقعة على بعد 150 كيلومتر إلى الجنوب .

والقسم الثاني: يمتد من" ثنية الساسي" إلى" فجيج "[92] جنوباً، وهذا القسم لم تعين حدوده بدقة و إنما نص فيه على القبائل والقرى التي ذكرت على أنها تابعة لسلطتين المغربية والفرنسية في الجزائر.

والقسم الثالث : يقع جنوبي "فجيج" وقد صار مفاوضون ،وبناء على برقية وصلت من "الكي دورصي " على أن لا تعين حدوده و لا قبائله بحجة انه صحراء ومراعي لرعايا الدولتين[93].

يمكن اعتبار المعاهدتين من أهمية بمكان أنهما تضعان أرضية جديدة لعلاقات المغرب مع فرنسا في الجزائر والأمير أيضاً ، والأَهم من هذا كله أن المعاهدتين تقحمان المغرب مباشرة في أحداث الجزائر وذلك من خلال :

-اعتراف المغرب بالسلطة الفرنسية في الجزائر.

-التنكر لجهاد الأمير عبد القادر وقبول أحقية مطاردته مع غيره من المجاهدين من طرف الفرنسيين والجيش المغربي

توتر العلاقات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان:

بقدر ما كانت هزيمة" إيسلي " نقطة تحول حاسمة في سياسة المغرب الداخلية والخارجية كانت أكثر وقعاً على المقاومة الجزائرية، فبعد " إيسلي" وقّع السلطان عبد الرحمان على معاهدة طنجة والتي وضعت المغرب من موقف المؤيد للأمير إلى موقف العدو،حيث وَلّدتْ المعاهدة غلياناً شعبياً وحماساً تغلغل إلى مستويات المخزن ، هذا الموقف الذي أثار سخط المغاربة وفي هذا يقول صاحب تحفة الزائر "...فقبل سلطان مراكش هذه الشروط وتقرر الصلح ولما شاع هذا الأمر في نواحي المغرب الأقصى وسارت الركبان بما وقع لجيوشهم وجموعهم مع

---

[91]- إسماعيل العربي ، مرجع سابق ، ص282 .

[92]- فجيج : أو فقيق هي إقليم واسع يمتد على مساحة تقدر ب900كلم 2 وتحتوي على واحات كثيرة بها ثمانية قصور أشهرها العابد وزناقة كانت في العهد الزياني تابعة إلى مملكة تلمسان وبعد حملة المنصور في صحراء السودان الغربي ضمها إلى ملك السعديين- ينظر : إبراهيم مياسي ، مرجع سابق ،ص 386.

[93]- عبد الهادي تازي ، مرجع سابق ، ص16 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفرنسيين كبر عندهم ذلك ونسبوا المعرة فيه إلى سلطانهم وقواد الجيوش، وكثر القيل والقال و اتفق أكثر القبائل على انتفاض على السلطان وإعطاء الطاعة إلى الأمير لما كانوا يسمعون عنه من الأقدام والشجاعة والقيام بأمور الجهاد على ما ينبغي ...فكتبوه في ذلك فلم يقبله منهم وقال إني دخلت بلاد السلطان لا لأكون ضده أو لتأخذ منه ملكه...."[94]

و انتهت كذلك معركة جانبية لا شك أن الأمير الذي هو صاحب الشأن الأول فيها قد حصد نتيجتها، فكان عليه الاستعداد لمواجهة عدوين أحدهما دخيل مُستعمر و الثاني أصيل مُسلم ،فقد تلقى الأمير خبر المعاهدة بالحزن والخيبة ،لأن هذه المعاهدة و إن لم تكن لنصوصها قيمة عملية في الحد من نشاطه فهي بالتأكيد قد وضعت حداً لآماله في توسيع نطاق المعركة، بحيث تندمج مقاومة الجزائرية و المغربية وتنطلق في مجهود المشترك لطرد العدو من البلدين .

بدأ تنفيذ الخطة الفرنسية المغربية التي تقضي بمطاردة الأمير ،منذ أواخر أكتوبر 1845م[95] وازداد الضغط الفرنسي الانجليزي[96] على السلطان بمقتضى معاهدة طنجة ،خاصة بعد عودة الأمير عبد القادر إلى دائرته بالمغرب سنة 1846 ، هذا الأخير الذي كان قد وجه مسألة إلى علماء الأزهر في شأن السلطان ،الذي واصل تهديده للأمير مطالباً إياه بمغادرة بلاده طوعاً أو تسليم نفسه، وإلا أنه سيضطر إلى استعمال القوة ضده، وفي نفس الوقت أمر السلطان الذي كان مجبراً تحت تهديد الفرنسيين القبائل المجاورة لدائرة الأمير بالتضييق وقطع التموين عنها، حيث كتب إلى شيخ قبيلة الأحلاف رسالة يؤمره فيها باتخاذ الإجراءات الفعالة لإخراج الأمير من المغرب الأقصى حيث جاء فيها ما نصه : «...بلغنا أن الأمير عبد القادر ومن إنظاف إليه من إخوانكم الذين استفزهم وخدعهم بتمويهه و أباطيله ...

---

[94]- إسماعيل العربي ، مرجع سابق ، ص ص 309-310.

[95]- محمد العربي معريش ، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول 1873-1894، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1989،1 ، ص35 .

[96]- حسب المؤرخ عبد الله العروي فان الانجليز الذين كانوا يخشون التدخل الفرنسي في المغرب ، بدءوا يضغطون على السلطان لطرد الأمير، وفي هذا يقول : « ... ليس الجيش المغربي غير منظم وسيء والتجهيز هو الذي كان يضمن استقلالية المغرب ولكن بالأحرى انجلترا التي بعد أن كشرت عن أنيابها بشدة ،قد انتهت بقبول غزو الجزائر غير أنها لم تكن تسمح بغزو المغرب .» - ينظر:

LAROUI -A: « histoire du Maghreb » tomé،2é, d fron cois maspero , paris ,1976 , P 07 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد خدعهم بإظهار الدين وأحوال الصالحين وما في ضميره إلا الفساد و إيقاد الفتنة بين العباد ...ونحن لا نكره الجهاد بشروطه ونكره ما يعود بالضرر والغلبة لجانب الإسلام ،ولكن هذا المشئوم أراد نقض ما أسسناه من الصلح الشرعي و إيقاد الفتنة بعد إطفائها سعيا في هضم جانب عزكم و إفساد دينكم ودنياكم ...فها نحن أمرنا الأمجد بو زيان بالقيام على ساق الجد وإخراجه ودائرته من إيالتنا السعيدة طوعا أو كرها ،وحسم مادة فتنتهم وظلالهم فكونوا معه يدا واحدة وشدوا عضده على ذلك حتى يقضي الغرض إن شاء الله»[97]، ونلمس من خلال هذه الرسالة السلطانية العداء المعلن من السلطان الذي يخاطب في هذه الرسالة رعاياه متخذاً أسباب محاولة نقض الصلح وإشعال الفتنة ، أسباب كافية للتخلي عن المقاومة الجزائرية وعن زعيمها الأمير عبد القادر.

ويبدو من خلال ما سبق أن الأمور ستزداد سوءاً فالأمير الذي لطالما عبر عن إخلاصه الفعلي للسلطان عبد الرحمان وذلك بشل الكثير من حركات التمرد على الحدود وتسليم قادتها مكبلين بالسلاسل إلى سلطات وجدة[98] ، أصبح متمرداً في نظر السلطان [99] ومن جهة أخرى عمل الجاسوس ليون روش الذي كان في المغرب على هذا النحو ، حيث زرع إشاعة أن الأمير يريد أن ينقلب على السلطة في فاس وينصب نفسه ملكاً على المغرب[100]، ومن جهة أخرى كان بعض عمال السلطان في الأقاليم المجاورة للحدود أن ينشروا الفتنة بين الأمير و السلطان الذي كان على دراية أن الأمير استطاع في الوقت الذي غابت فيه روح الجهاد أن يزرع هذه الروح في المغاربة ،وقد وصلت هذه السمعة إلى درجة أن الانجليز حسب جوليان كانوا يرون في الأمير خليفة محتملا لعبد الرحمن[101] .

وتذكر المصادر أنَّ الأمير بعث للسلطان رسالة أخيرة جاء فيها قوله : «... أما بعد ،فاني كاتبتم أولا ،و لتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعني ،وسوء معاملتهم لهم ،كلهم دين واحد وشريعة واحدة ، فلم يأتني جوابا عن ذلك ،ولم يحصل لهم ردع من طرفكم ،ومع هذا كله أنا صابر ومتحمل لما يجرونه كراهة في سفك دماء المسلمين مدة ستة أشهر طمعا في رجوعهم عن الغي والطغيان إلى العدل والإحسان مع قدرتي عليهم في كل آن ، فان لم تردعهم الآن عن أفعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم التزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة

---

[97]- إسماعيل العربي ،مرجع سابق ،ص ص 310،309.

[98]- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، المطبعة الأهلية، الإسكندرية، ط1، (د ت)ص 292.

[99]- هنري شرشل ،مصدر سابق ،ص220 .

[100]- يوسف مناصرية ، مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب 1832-1847 ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط1 ، 1990 ، ص 56.

[101] - CHARLES-André julien : op ,cit , p ,196.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن شرف أتباعي ولذا بادرت بإخباركم والسلام عيكم»[102]

والظاهر من خلال رسالة الأمير أنّه كان راسل السلطان في أكثير من مرة حول موضوع تحريض القبائل المغربية من طرف السلطان ،وذلك في قوله:«... فلم يأتني جواب عن ذلك » وعلاوة على هذا فقد كان الأمير طيلة الفترة التي عاد فيها إلى الدائرة صابراً على أذى قبائل المخزن المغربية ولم يواجههم رغم قدرته على ذلك .

ومع نهاية شهر نوفمبر، ومطلع ديسمبر كانت الأمور قد ساءت إلى أقصى الحدود بين الأمير والمولى عبد الرحمان هذا الأخير الذي جهز جيشاً كبيراً و أسند قيادته إلى ابنيه محمد و أحمد و كلفهما بطرد الأمير من الأراضي المغربية[103] ، وأما الأمير الذي كان حريصاً على حقن دماء المسلمين وعلى تجنب الدخول في معركة خاسر فيها سواء ضفر بها أو هُزم فقد اجتمع بقادة جنده وكبار ضباطه وأطلعهم على حقائق الأمور ، وذكر لهم أن السلطان عبد الرحمان قد عزم مع العدو على محاربتهم ، وطلب إليهم معرفة رأيهم ، فكان ردهم «...إننا بايعناك على السمع والطاعة والجهاد إلى الموت ونحن مستعدون للوفاء بالعهد »[104] .

و منذ ذلك الحين وقعت الكثير من المعارك بين الأشقاء ، و سقط عدد لا يحصى من المسلمين ، وفي يوم 16ديسمبر كانت آخر معركة بين الأمير و المولاي محمد بن السلطان، والتي انتهت هي الأخرى بهزيمة للجيش المغربي،إلا أن إصرار الجيش المغربي على النيل من الدائرة جعل الأمير مضطراً إلى الخروج من الحصاروذلك بالعبورإلى الضفة الشرقية لنهر ملوية، وفي 19ديسمبر بينما كان الأمير يجتاز على رأس الدائرة نهر الملوية متجهاً إلى الحدود الجزائرية، وجد أن الجنرال لاموريسيارالذي كان يتتبع أخباره في المغرب ،قد اتخذ جميع احتياطاته لحراسة المدخل إلى الجزائروخاصة مضيق جربوس.

ولما وصلت طلائع الجيش الجزائري بقيادة الأمير عبد القادرإلى هذا المضيق في يوم 22ديسمبر 1847 وجدت القوات الفرنسية بانتظارهم في اثني عشرة ألف جندي ،حينها أدرك الأميرأنه لا مفرمن الحصارفقررتسليم نفسه إلى الجنرال لاموريسيار[105].

---

[102] - إسماعيل العربي ، مرجع سابق ، ص310.

[103] -يحي بوعزيز ، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1999، ص ص 240 – 241 .

[104] - محمد بن الأمير عبد القادر ، مصدر سابق ، ص 215.

[105] - يحي بوعزيز ، مع تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ، ص 244.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاتمة :

وإننا ونحن نقف عند خاتمة هذا البحث الذي تتبعنا فيه علاقة البلدين على عهد رمزين من رموز الأمة المغاربية في فجر التاريخ المعاصر، لنتألم لهذه النهاية المأساوية التي تستوقفنا بغياب العبارات والكلمات الدالة، و أنّه مهما قلنا فيها من الكلمات لن ولن نستطيع شرحها ولا تفسيرها.

إن نهاية المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر أنهت معها آلام القلوب التي كانت تتحسر على سقوط دماء المسلمين ،دماء لو استغلت في حقها لكفت بعد الأمير حقها حقنا للدماء التي سقطت في الجزائر وتونس و المغرب وليبيا ،ولكن للأسف الشديد ضيع القادة المسلمين حلم وحدة لو تحققت في هذا الفجر من التاريخ المعاصر لكان الأمر مختلفا الآن .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإعدام جريمة قانونية وواجب وطني في عين الإدارة الاستعمارية .

دراسة من خلال وثائق أرشيفية عن تطبيق أحكام الإعدام في حق الجزائريين أثناء الثورة التحريرية.

الدكتورة: عائشة حسيني.

قسم العلوم الإنسانية ،جامعة أكلي محند أولحاج ،البويرة.

إن طبيعة عملنا في هذا الموضوع كدراسة أرشيفية تفرض علينا أولا التعريف بالوثيقة في حد ذاتها ، لهذا فان هذه الوثيقة التي نعتبرها هامة و أساسية جدا في مسار الثورة التحررية الجزائرية وردت هذا الوثيقة في ست صفحات أساسية ، صدرت بتاريخ 18 جانفي 1957، وتحمل رقم أربعة عشر ،وهي عبارة عن ملاحظات هامة موجهة إلي الحكومة العامة للجزائر، من المديرية العامة للشؤون السياسية تحت عنوان ملاحظة لجلب انتباه السيد الوزير والأمين العام للحكومة ، مع إضافة ملاحظة سري ،ما يعني أن هذه الوثيقة تعتبر من المصادر الإدارية الهامة للتعرف علي رأي الإدارة الاستعمارية بخصوص المساجين الجزائريين ومسألة تطبيق حكم الإعدام في حقهم ، وكيفية إدانتهم خاصة بعد انتشار الثورة التحريرية الجزائرية والتفاف الجماهير حولها، وقد اتضح هذا جليا وازداد الموضوع أهمية بعد الإضراب الأسبوعي الذي شنته جبهة التحرير الوطني وعكس مدي قناعة الجزائريين بعدالة قضيتهم .

تم تصنيف هذا التقرير ضمن وثائق أرشيف ما وراء البحار باكس اون بروفانس، d'Aix en Provence ; Marseille ضمن السلسلة الرئيسية Cabinet Civil، وفي السلسلة الفرعية (12 cab) ،ويحمل عنوانين رئيسيين ، الأول حول مسالة تنفيذ أحكام الإعدام في حق الجزائريين الذين تمت إدانتهم بالمشاركة في العمل الثوري ضمن جيش التحرير الوطني الجزائري ،والثاني حول إيجاد حل تم اقتراحه من طرفهم للمساجين من الجزائريين ،الذين أصبح عددهم فوق طاقة استيعاب السجون الفرنسية، كما كان يشكل أيضا هؤلاء المساجين المقبوض عليهم لأسباب الانخراط في العمل الثوري ، خطرا على الأمن العام ،وذلك بسبب دمجهم في السجن مع المساجين الآخرين المدانين بقضايا اخري مختلفة ، ومن جهة أخري بسبب نقص الحماية التي توفرها الدولة في السجون مما جعل عمليات الاعتداء على عمال السجون والفرار سهلة لعناصر جيش التحرير المقبوض عنهم والمودعين في هذه السجون، وقد تم التفكير في إقامة محتشدات خاصة بهؤلاء المساجين، من المحكوم عليهم من الجزائريين في مسائل أمنية مختلفة ،وخاصة بسبب انخراطهم في جيش وجبهة التحرير الوطني ، وتنفيذ عمليات عسكرية وفدائية ضد السلطة الفرنسية وأعوانها [1]

).

ما يبدو من خلال هذه التصريحات أن الإدارة الاستعمارية كانت أمام الأمر الواقع من ناحية الجزائريين ، ومن ناحية الرأي العام الفرنسي والدولي حول قضايا المحكوم عليهم بالإعدام ، وحول مسالة الاحتفاظ بالجزائر أو التخلي عنها ، مثلما فعلته مع الجارتين تونس والمغرب، ويظهر هذا الأمر من خلال تصريح الإداريين الفرنسيين بان التخلي عن الجزائر في الوقت الراهن يبدوا أمرا مستحيلا ،لذا يستوجب على الإدارة الفرنسية أن تعمل كل ما في وسعها من اجل التحكم في الوضع الداخلي، وذلك عن طريق تطبيق الأحكام القضائية في حق الجزائريين ، دون تخلي الفرنسيين عن ادني حقوقهم الإدارية التي يسمح لهم القانون بتطبيقها في إطار الشرعية الفرنسية بالجزائر في ذلك الوقت ، وذلك عن طريق تصريح وتأكيد الحاكم العام بان القانون الفرنسي سيبقي سيدا في هذه البلاد [1].

ويتابع التقرير في نفس الفقرة أن هذا ما يطرح المشكل العويص للمحكوم عليهم بالإعدام ،والذي سال بشأنه الكثير من الحبر وهول الرأي العام منذ أول نوفمبر 1954، حيث كان لهذه الثورة وسلوكيات الإدارة بخصوص جبهة وجيش التحرير وقعا علي الرأي العام الدولي والفرنسي في فرنسا، ما يؤكد أن بعض الإداريين الفرنسيين يوجد بداخلهم شعور كبير بالظلم تجاه الجزائريين من جهة ، وبعدالة القضية الجزائرية من جهة أخري ، وهذا ما يترجم أيضا الصراع بين الشرعية القانونية المفروضة علي الجزائريين ، وصراع الضمير الإنساني لدي بعض الفرنسيين دائما الذين كانت ضمائرهم حية نوعا ما، والذين كانوا مقتنعين بان الجزائر ليست أرضا فرنسية رغم تأكيد حكامها بالعكس،كما أن ساعة الخلاص بدأت تتضح معالمها ،من خلال تصاعد العمل الثوري.

ويضيف التقرير بخصوص كيفية الحفاظ على الجزائر والتحكم في الوضع الأمني بها ، انه لابد من اتخاذ العديد من الإجراءات ذات الطابع الإرهابي ضد الجزائريين للحصول علي تخليهم عن مسألة تقرير المصير، ويضيف أيضا انه منذ أول نوفمبر تم إصدار 250 حكما بالإعدام بصفة غيابية ،وهذا ما يعتبر تناقضا في منظور القانون الفرنسي ذاته، ونستنتج منه أن الإدارة الفرنسية نفسها تقر بأنها أصدرت أحكاما غيابية غير عادلة حتى في منظور القانون الفرنسي ،الذي يستوجب سماع المتهم قبل إدانته ، أو على الأقل إلقاء القبض عليه في شكل مخل بالقانون الفرنسي.

وقد ورد في مضمون العنوان الأول الخاص بمسالة تنفيذ أحكام الإعدام في حق الجزائريين ، أن رئيس الحكومة في منشوره الخاص بالجزائر الصادر في الخامس من جانفي من سنة 1957، والذي جاء تحت عنوان "إعلان عن نية" ، صرح أن فرنسا سوف لا تتنازل أبدا عن الجزائر، وهذا الإعلان يبين بان القانون

الفرنسي سيبقي سيدا في هذا البلد، ومن هنا يطرح المشكل العويص للمحكوم عليهم بالإعدام كما سبقت الإشارة إليه وكما ورد في التقرير، الذي وصفته الإدارة الفرنسية انه أسال الكثير من الحبر وهول الرأي العام منذ أول نوفمبر 1954.

ويضيف التقرير بأنه قد تم إصدار 250 حكما غيابيا بالإعدام في حق الجزائريين منذ أول نوفمبر ،انه لأمر فضيع ، هذا دون الحديث عن الأحكام الأخرى ،ثم يذكر انه في هذه المرحلة تتعلق الأحكام ب197 شخصا، من بينهم الكثير من تم الحكم عليهم عدة مرات في قضايا مختلفة، وقد تم رفض حق الطعن لصالح تسعة (9) أشخاص من بينهم ، ولهذا تمت تصفيتهم أو إعدامهم، كما استفاد سبعة وثلاثون (37) سجينا من تخفيف في الأحكام ، أما البقية الذين قدر عددهم بمائة وواحد وخمسون (151) فهم مازالوا ينتظرون قرار الإدارة الاستعمارية بعد طلبهم للعفو، لكن لا يمكن تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام حاليا لعدة أسباب ، من أهمها العدد الكبير للمحكوم عليهم والمقدر ب151 ،فهذا العدد لا يسمح بذلك ،ويبرر صاحب التقرير هذا التراجع أن هذا التنفيذ يتنافي مع العادات الفرنسية الرسمية طبعا ،والتي ليس من عادتها قطع هذا العدد الكبير من الرؤوس دفعة واحدة، ولهذا تم تفادي تنفيذ هذه الأحكام عدة مرات.

هذا حسب ما ورد في الوثيقة ،_ ولكن في الواقع أن هذا العدد لا يمثل شيئا أمام الرؤوس التي قطعتها فرنسا ضمن مشوارها الاستعماري في الجزائر منذ بداية الاحتلال وفي الكثير من المرات والمناسبات ،دون الحديث عن الماضي القريب المرتبط باندلاع الثورة التحريرية الجزائرية وتجربة فرنسا في مجال قطع الرؤوس والتفاخر بذلك، لكي تبرر عدوانها علي الجزائريين وتقر وجودها في هذه البلاد_ .

أما عن عدد هذه الرؤوس فقد تم قطع أكثر منها في العديد من المرات منذ اندلاع الثورة في الفاتح نوفمبر بطرق شتي وتحت عناوين مختلفة ، سواء من طرف الإدارة الاستعمارية بصفة مباشرة، أو بواسطة جنودها وقادة جيشها وأعوانها المخلصين دون ادني شعور بالذنب ، ولنأخذ علي سبيل المثال ملف جان مولي الشهير[2]، وان بحثنا عن الأمثلة فسنجد منها المئات ولربما ألاف دون ادني رحمة ولا شفقة، سوي تحت وازع واحد وهو خدمة العلم الفرنسي في الجزائر، وإطفاء لهيب الثورة بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة.

ويضيف التقرير انه في النهاية يجب تسليم أولائك المتمردين والإرهابيين المشار إليهم في جرائم شنعاء ضد الأوربيين والمسلمين (مدنيين وعسكريين) للجلادين، من اجل ماذا ؟ ، فحسب ما جاء في الوثيقة من اجل إرضاء الأوروبيين والتهدئة من روعهم، ولماذا ؟ يتابع التقرير أن هذا السلوك العدواني ضد الجزائريين من طرف الإدارة الفرنسية يساهم في تهدئة روع الأوروبيين ،وقد

يقابل تنفيذ هذه الأحكام بالرضا من طرفهم أي الأوروبيين ،ويقابل أيضا بالرضا من طرف جزء من السكان المسلمين المعتدلين الذين لا يفهمون تسامح الفرنسيين بأنه سلوك إنساني ،بل ويضنوه ضعفا منهم دائما حسب ما ورد في التقرير ، وفي المقابل تكسب الإدارة الفرنسية من وراء هذا السلوك تأثر كبير من طرف السكان المسلمون ، (يقصد بهم الجزائريون)، فهم الذين يتأثرون بإعدام المتمردين(المجاهدين)،فينتج أن يلتزموا الصمت من شدة الخوف، ولكن أيضا تتكون لديهم حساسية من عقوبة القتل ،إذن ما هو الهدف من وراء هذا السلوك، يجيب التقرير إن الهدف من تنفيذ هذه الأحكام هو تهدئة الرأي العام ،وخاصة السكان الذين تعبوا بسبب ترك هذا النوع من الجرائم بدون عقاب .

ثم يذكر أن رجال الأمن والجندمة يعرفون جيدا أن السجون معبأة أكثر من قدرة استيعابها ،وأحيانا غير محروسة جيدا ، ويعرفون أيضا أن بعض المحاكم تفرط في إجراءات الحريات الطائشة والمتهورة ،حيث يتم إطلاق النار بسهولة ، وحتى من طرف جيشنا ،مما يؤدي إلي اعتقاد الكثير أن العدالة غير مجدية، ولهذا يجب أن تعود العدالة إلى مهامها الأصلية.

ثم يضيف بقوله نحن نعلم أن الانتقامات العمياء "العشوائية" تسيء ألينا ، وتكون مصدر لكراهيتنا من طرف كل مسلمي هذه البلاد، وهي في غالب الأحيان تتسبب في موالاة الجزائريين ودفعهم نحو جبهة التحرير الوطني أكثر من جلبهم باتجاهنا ، والذين كانوا إلي غاية ذلك الوقت لهم موقف محايد ،وعلي وشك الوقوف إلي جانبنا أو موالاتنا ،إن أحكام الإعدام ستضع حدا لهذه التصرفات المؤسفة وتقدم الطمأنينة لكافة سكان هذا البلد [3].

ثم ينتقل التقرير إلى النقطة الثانية أو العنوان الثاني منه، والذي جاء حول معسكرات الاعتقال التي تم اقتراح إنشائها لمساجين الثورة كبديل للسجون العادية.

معسكرات الاعتقال[4].

فيما يخص المعتقلات يقول انه من المهم أن تأخذ العدالة الفرنسية مجراها حتى النهاية ، ويتم تنفيذ أحكام الإعدام ، إذ كان المتمردون و الإرهابيون_يقصد بهم عناصر جيش التحرير_ مذنبون بارتكاب جرائم بشعة علي وجه الخصوص ضد الأوروبيون أو المسلمون "مدنيون كانوا أم عسكريون"، لكن ليس كل المتمردين مجرمين ، فالمتمرد الذي لم يقتل في المعركة ، يعتبر سجين ولديه الحق في عدالة إنسانية ، إذن عدالة فرنسية [5] .

يا تري لماذا هذا التبرير من الإدارة الفرنسية ؟، ويبرر ذلك بأن عددا معتبرا من التقارير تفيد أن الكثير من المجاهدين يقومون بهذه الأفعال بدون تأكد تام وراحة ضمير ، ويستشهد على كلامه برواية احد الناجين من عملية عسكرية لجنود جيش التحرير، يقول فيها

انه في شهر أوت من سنة 1956 في بلدية شرشال المختلطة هاجم المتمردون القايد بدوار (Zatima) وحارسه، في بلدية شرشال المختلطة ، مع قايد دوار المدعو وزان ،وبعد أن تم قضاء الليل مع هؤلاء قتل القائد وحارسه ، ولكن وزان تمكن من الفرار بعد أن ألقى بنفسه من فج عميق ، وقد ذكر فيما بعد أن عدد المتمردين كان حوالي 50 فردا، كما ذكر أيضا أحاديثهم فيما بينهم حول مصيرهم في المستقبل ،ومما ذكره أنهم قالوا : "نحن هنا كلنا محكوم علينا بالإعدام ، لهذا علينا الاتجاه نحو الغرب ، وذلك قصد الدخول إلى الأراضي المغربية لإنقاذ حياتنا_ وقد ذكر وزان أنهم كانوا من بلاد القبائل _ " .

قم يقول في تبرير مخاوف هؤلاء أن مصدرها كان نابعا من الحملات الدعائية الصادرة عن جبهة التحرير ، والتي مفادها أن كل سجين يقع بين أيدي الإدارة الاستعمارية سيقتل ، وكل محكوم عليه بالإعدام سيشنق[6])، لكننا غالبا لم نعط هذه الادعاءات حقها بتقديم كل المتمردين الملقي عليهم وبحوزتهم أسلحة أمام العدالة ، ولهذا يجب الآن استخدام وسيلة أخري وبطريقة استعجاليه ،وذلك عن طريق الفصل بين المجرمين في الحق العام ، والمتمردين العاديين.

ثم يضيف على لسان وزان دائما عن المتمردين (عناصر جيش التحرير) ، قولهم بأنهم مشمئزين لذبح إخوانهم في الدين لأسباب تافهة ،الغرض منها نشر الرعب فقط ،أنهم غير متفقين مع قادتهم الذين يأمرون بالقيام بهذه الفظائع، لهذا يقول في التقرير انه يجب معاملة هذا النوع من المتمردين معاملة مختلفة عند القبض عليهم، فيجب إنشاء معسكرات اعتقال خاصة بهم ،وهذه المعسكرات لها فوائد عديدة ، ومنها أنها تساهم في ما يلي:

- أولا من المعقول التصور أن مجرد تواجدهم سيضع حدا للادعاءات الكاذبة لجبهة التحرير .
- وثانيا إننا متيقنون من المعاملات الإنسانية التي سيتلقاها المتمردون في هذه المعسكرات، وقد يساهم هذا في نزع كل إحساس بالمقاومة والدفاع الميئوس عن النفس، والشكوك في المعاملة القاسية، مما يجعل أصحابهم يستسلمون بكل سهولة.
- ثالثا هذا السلوك يؤدي إلي جر عدد كبير من المتمردين للاستسلام السري، (ذلك أن المتمردون يتفادون الاستسلام العلني خوفا من تعريض عائلاتهم للانتقام من طرف عناصر الثورة).
- رابعا يخفف هذا الإجراء من الاكتظاظ في السجون ،حيث ستكون هذه المعسكرات بمثابة أماكن توقيف، فهناك سجون تملأ بالعنف وأحيانا يوضع فيها أكثر من طاقة استيعابها بثلاث مرات، والأهم من ذلك أن حراسها غير مسلحين ،وبالتالي هم معرضون للتمرد والعصيان والفرار .

– خامسا يقيم في السجون إلي جانب المجرمين، كل المحكوم عليهم من مختلف القضايا، وبينهم الجانحين الأحداث، المرغمين والمتمردين، كل هؤلاء يكونون تحت تأثير الدعاية من طرف المتمردين المتواجدين معهم في السجن، لهذا يلتحق الكثير منهم بالثورة مباشرة بعد إطلاق سراحهم.

– سادسا الفائدة في معسكرات المساجين انه يمكن القيام بالمراقبة عن قرب، وفي نفس الوقت القيام بالعمل السيكولوجي من اجل إنقاذ الأشخاص الأقل تعصبا.

– سابعا وأخيرا فإن إنشاء المعسكرات للمساجين (عدا إطارات جبهة التحرير الوطني)، يعد ابتكارا مفرحا ومكلفا، يتطلب الدراسة في اقرب وقت ممكن.

ومن وجهة النظر السيكولوجية من المهم المحافظة على عدد كبير من المعسكرات الصغيرة ، (تضم حوالي مائة سجين فقط) أحسن من المعسكرات الكبيرة التي تحشد عددا كبيرا من السجناء،كما يستحسن التفريق بين المساجين سواء على حسب ذوي الأفكار الصلبة من ذوي الأفكار اللينة، يعني المتعصبين، أو حسب الانتماء الجهوي (مثلا التفريق بين العرب والقبائل...الخ)، غير أن هذا الحل يتطلب تجنيدا أكثر للحراس والمسيرين، وسيفيد في الدعاية للإدارة الفرنسية ، حيث أن نشر صور هذه المعسكرات لمساجين بألبسة جيدة وتغذية جيدة ومعاملات إنسانية، تكون بمثابة دعاية مفيدة تجاه المسلمين وحتى الأجانب، ولكن يجب تفادي نشر هذه الإجراءات بالصحافة الفرنسية في الجزائر الآن ، لأنه سوف يكون هناك رد فعل من طرف الفرنسيين والجزائريين على حد السواء ، وستكون ردود الفعل هذه سيئة بالطبع، وهنا ينتهي التقرير بتوقيع المدير العام للشؤون السياسية .

فأي عدالة يتحدث عنها صاحب هذه التقرير السري ، أهي تلك السياسة التي باشرت الإدارة الفرنسية بالجزائر في تطبيقها منذ الفاتح من نوفمبر ،أم هي العدالة المطبقة علي الجزائريين قبل الثورة ،كلتاهما لم تكن تعترف بالجزائريين وحقهم في تقرير المصير ،إذن ما كان يقوم به الجزائريون كان يري فيه الفرنسيون انه يجب القضاء عليه بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة ،وهذا ما فضحه الكثير من الفرنسيين أنفسهم في شهاداتهم التي نقلوها خلال سير العمليات العسكرية بالجزائر ،وعن تصرفات الجيش الفرنسي والمعمرين مع العزل والمنخرطين في صفوف جيش التحرير.

وبالإضافة إلى أعمال الإبادة العلنية والأعمال الإجرامية التي مورست على السكان تحت عنوان الشبهة التي ابتكرها لاكوست وأصدر أوامره بإلقاء القبض على المشبوهين والزج بهم في المعتقلات [7]، وكانت نتيجة ذلك أن امتلأت المعتقلات بالمشبوهين[8]، ولم تكن معاملة هؤلاء أحسن من معاملة من هم خارج المعتقل، ففي

معتقل الأخضرية كان يتباين عدد النزلاء بحسب العمليات الجارية، ولكن عددهم ارتفع في شهر أوت 1956 ،حيث احتجز المعتقلون في أقبية النبيذ المبنية بالإسمنت، ولم تكن لهذه الأقبية سوي فتحة واحدة ولا تتسع إلا لشخص واحد، يحشر فيها الناس ولا يسمح لهم بالخروج إلا مرة واحدة في اليوم ،والنتيجة أن مات عددا كبيرا منهم مختنقين بسبب الحرارة وكثرة المعتقلين[9]

كما ذكر ضابط صف آخر بأنهم كانوا ينهالون على الأسرى ضربا ولكما، ولما كانت هذه الأقبية عبارة عن حفر كبيرة فتحتها إلى الأعلى، فإن المعتقلين كانوا يتعلقون بأصابعهم على حافة هذه الفتحة ، وعندما يتدلون داخل الحفرة كان الجنود يرفهون عن أنفسهم بالضرب على أصابع الأسرى،.. وكان استجوابهم يتم بصورة فردية أثناء النهار ، ينتهي عادة بإرسالهم إلى غرفة التعذيب الكهربائي،... ولما لوحظ أنه غير كاف،... استبدل يوم 18 أوت بمولد كهربائي قوي ...وحدث أن أحد الأسرى صعقه التيار الكهربائي ففاضت روحه، أما بالنسبة لسعة سجون هذه المعتقلات فإنها لم تكن تتسع لأكثر من 150 معتقلا رغم توسيعها، كما كانوا يحشرون في الزنزانة التي تتسع لأربعة أشخاص 25 معتقلا لمدة أسابيع عدة، ولهذا كان لا بد من نوم المعتقلين وهم جلوس ...أما الجو داخل الزنزانة فقد كان مشبعا برائحة الأجسام و الرطوبة والحرارة المرتفعة، وكان هذا يضر بالرئتين في فصل الصيف[10].

ومن لم يمت داخل المعتقل تحت هذه الظروف القاسية يساق إلى سخرة الحطب، وهو اسم آخر لسياسة الإبادة تحت عنوان الشبهة، وفي إطار هذه العمليات قدم الجندي الفرنسي جان ميلير شهادته عن عمليات القمع تحت عنوان ملف جان ميلير ذكر فيه بأن الفصيلة الثالثة ذهبت لسخرة الحطب ومعها 20 مشتبها، ولما وصلوا إلى بكار المكان الذي وقع فيه كمين للفرقة 117/2للمشاة...أجهزوا عليهم رميا بالرصاص...وتركوهم من غير أن يواروهم التراب، وأخبروا الدرك بأنهم قتلوهم عندما حاولوا الفرار، وختمت هذه العملية بكلمة الكومندو الذي قال: لقد أخذت لكم بالثأر لرفاقكم فهؤلاء العرب الذين قتلوهم ولنفرض بأنهم لم يكونوا هم، فقد دفعوا الثمن بدلا عنهم[11].

كما ذكر هذا المجند دائما في شهادته بأنه سيق 150 مشتبها إلى تابلاط ، وتضمن استنطاقهم تسليط التيار الكهربائي على الأماكن الحساسة في الجسم ، ووضعوا في قفص تحت الشمس الحارقة، كما وضعوا على عصا ورفعوا فوق فرس وهم مقيدين من اليدين والقدمين مع الضرب المبرح، وفي نفس الوقت ألقي القبض على أحد المشبوهين وتقرر إرساله على العاصمة، لكنه قضى الليل كله بتابلاط موثوق إلى شجرة ،

وأسند ظهره إلى سياج شائك و سقي بالمياه القذرة[12].

وذكر في إحدى المرات الأخرى ما يلي:" بقي اثنان من أصدقائي بالسريط، وشاهدا أن الكلونال وآخران برتبة كومندو من المظليين يستنطقون جماعة من العرب، جلبهم المظليون بدعوى أنهم من المشبوهين، وشملت عملية استنطاقهم بالإضافة إلى تسليط التيار الكهربائي، وتضخيم الأجسام بالماء، حفر أجسامهم بقضيب حديدي...في كل مكان من الجسم، وقد صبغت الدماء أحد هؤلاء، وترك ملقيا على الأرض طيلة يوم وليلة، كما شاهدوا أحدهم مشدود إلى طائرة عمودية على ارتفاع 200متر، وكل المشتبه فيهم الذين عذبوا بهذه الطريقة، سلموا إلى جنود المظلات، فتخلصوا منهم فور ا دون محاكمة أو إثباتات [13].

وكان مصير الذين يقعون في الأسر وهم يرتدون اللباس العسكري أسوأ من مصير المعتقلين ، حيث وقع 7 من هؤلاء في أيديهم يوم 31 أكتوبر 1956 ، فطافوا بهم المدينة تحت حراسة مشددة ثم سلموهم للفرقة التي اعتقلتهم فقادتهم إلى سخرة الحطب الشهيرة[14]، أما المصابون فرغم نزيف دمائهم، ...وبالرغم من أن جراحهم كانت قابلة للشفاء...، غير أن القوات الفرنسية كانت تجهز عليهم بطريقة وحشية...، وكانوا يمزحون مزحا فضا أثناء التقاط صورهم الفوتوغرافية معهم...، ثم يسحبون السكين...ويشرعون في شحذه على الصخر على مشهد من الضحية ....قبل أن يذبحوها ذبحا بطيئا...ويبعدون النصل عن الضحية حتى يطول عذابها،...وقد يضيفون إلى الذبح إطلاق الرصاص عن كثب في الوجه، حتى يصبح عبارة عن كومة دموية مشوهة، وكثيرا ما كان يعرض هؤلاء على السكان بهذه الحالة من باب التحطيم النفسي، ففي مدينة الأربعاء كان الكلونيل أرغون يعرض قتلاه في الساحات العمومية أمام السكان وتحت الشمس الحارقة بحجة الاعتبار [15].

وفي مقابل هذه التصرفات الإنسانية التي كانت تدعيها الإدارة الاستعمارية، كانت السلطات تدعوا السكان لحضور الاجتماعات التي تنظمها محاولة بذلك التأثير النفسي عليهم [16] ، وفي حال عدم قبولهم تجمعهم بالقوة حيث صرح أحد ضباط الشؤون الأهلية متحدثا عن الكيفية التي يجمع بها السكان فقال:" إننا نذهب إلى المنازل، فنجرد النساء من ثيابهن،...وعند ما يأتي أزواجهن لطلب الثياب، يضطرون لحضور الاجتماع... [17]، ومن جهة أخرى كان ضباط لصاص يستخدمون سياسة اللين والمخادعة بواسطة علاج المرضى وتوزيع الأغذية وجلب البطالين وبناء المدارس[18]،خاصة أثناء الحملات التمشيطية إضافة إلى الأيام العادية لإيهام المدنيين بأنهم يسعون لخدمتهم ومساعدتهم على العكس من الثوار الذين يعيشون على حسابهم [19].

هذه فقط البعض من مظاهر التهدئة التي تكررت يوميا بالجزائر والتي تحدث عنها لاكوست ووعد بأنها ستتم في الثلاثي الأخير من نفس السنة(1956) ،وبعد ثمانية أشهر من تجربة التهدئة هذه تجنِي السلطات الفرنسية المقاطعة التامة للإدارة الفرنسية، وازدياد سوء الوضعية، وعوض كسب ود الجزائريين كسبت حقدهم وكراهيتهم مع إصرارهم للقضاء علي الوجود الفرنسي وإبعاده عن البلاد كلها[20]،ففي مدخل السنة الموالية أي سنة 1957 نجد أن الإدارة أصبحت تدق ناقوس الخطر كما لاحظنا في الوثيقة ،وتسعي بكل الطرق لان لا تفقد الجزائر الفرنسية بأي ثمن كان،حتى ولو تطلب ذلك التخلي عن أمور أخري أكثر أهمية في مقابل الحصول على التحكم في الوضع العام بالجزائر.

[1] _ FR, CAOM, GGA ,Cabinet Civil ,12 Cab .

[1]_ الفقرة الأولي في موضع الحديث عن مسالة تنفيذ أحكام الإعدام.

[2]- MULLER (Jean) ; de la Pacification à la répression. Imprimerie Commerciale D'Yvetot ; Paris : 1956.

[3] _ يقصدون بان الانتقامات من طرف الفرنسيين ضد عناصر جبهة التحرير تدفع باقي الجزائريين إلي مساندة ودعم الجبهة، في حين كان بالإمكان تفادي ذلك عن طريق عدم تطبيق الأحكام بالإعدام ضد عناصر الجبهة.

[4] _ للمزيد من المعلومات عن سياسة المعتقلات الفرنسية بالجزائر في الثورة التحريرية ووضعية وعدد الجزائريين بها علي المستوي الوطني ،ينظر تقرير مفتش المالية ،الذي ورد فيه تعداد المعتقلات وعدد المعتقلين الجزائريين بها ، وقد ورد في هذا التقرير ثلاثة عناصر رئيسية ،الأول تحت عنوان المعتقلات غير المعروفة ، والثاني تحدث فيه عن الوضعية المأساوية للمعتقلين الجزائريين، والثالث أشار فيه إلي ضرورة تحسين ظروف المعتقلين .

_Pierre Vidal _Naquet ,Les Crimes de L'armée Française, Algérie 1954_1962,EDIF، 2000,Michel Rocard, Rapport sur les camps de regroupement 139_152 .

[5] _ FR, CAOM, GGA ,Cabinet Civil, ibid; p2.

[6]_ هذا صحيح فالإدارة الاستعمارية كانت تفاخر بتنفيذ أحكام الإعدام في حق السجناء و الوطنيين الجزائريين، خذ مثال عن تنفيذ حكم الإعدام في فراج وزهانا و التفاخر بذلك.

[7] – حزب جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، تقرير الملتقى الجهوي للولاية الرابعة، المقدم للملتقى الوطني الرابع لتسجيل وقائع وأحداث الثورة التحرير ، قصر الأمة الجزائر 1986.،ص 174

[8] – "La bande aux brassards est revenue sur la route de Tablat ….Une vaste opération en cours dans la région à déjà permis l'arrestation de 200 suspects ; in, journal d'Alger ; N 2090, 21 avril1956, p1.

[9].– MULLER (Jean), op.cit. , p .170

[10]_ Ibid, p170_171.

[11] _ Ibid, p13.

[12] _ibid, p17.

[13]_ Ibid., p18.

[14]_ Ibid., p190.

[15] _ courrière (Yves) ,L'heure des colonels. , paris ; 1974, p.490.

[16] _ Ibid., p-472.

[17] – "كيف فضح الفرنسيون أنفسهم بدعائهم الانتصار على الثورة"، في:المجاهد، العدد 15، 1، 1، 1958، ص.6.

-[18] – Rapport sur la situation Militaire en Algérie ,fondation de la centrale syndicale à Alger ; p.53.

-[19]_Beyssad Pierre, " huit mois de pacification dans la région de palestro " ; in ;historia magazine ; n 200, guerre d'Algérie 1954,la toussait rouge, p.p. 69-70.

-[20]– ibid, p.69.

{أثر علم الآثار الوقائي في تجارب دول المغرب العربي}

»الجزائر دراسة حالة«

الأستاذ الدكتورة مطروح ام الخير

ملخص :

يتناول موضوع هذا المقال الموسوم بـ: أثر علم الاثار الوقائي في تجارب دول المغرب العربي ، دراسة لخطوات التقارب الفرنسي المغاربي في مجال علم الآثار الوقائي إبان الفترة الزمنية الممتدّة (2009 - 2010 – 2011- 2012 م) بوصف هذه الاستراتيجية حديثة الاعتماد في مجال السياسات الوطنية المعتمدة لحماية التراث القومي من خطر زحف المشاريع التّنموية على حسابها من جهة ، و من جهة ثانية النجاح للتجربة الفرنسية في هذا الشأن على الرغم من اقتحامها هذا الميدان متأخرة ، مقارنة بقرينتها في العالم المتقدم ، و هو ما جعلها تجربة جديرة بالمتابعة والدراسة و التقييم ، تمهيداً لبناء توجهات وطنية في إطار البحث عن اتجاهات جديدة للانتعاش من الخبرات الوطنية في هذه العملية .

فمن خلال هذا الموضوع نحاول عرض الإستراتيجية الجديدة التي ظهرت في الجزائر تحت عنوان "ميترو الجزائر و قصر المشور بتلمسان " في مجال حماية التراث الأثري و تثمينه ، ألا و هو علم الآثار الوقائي الذي وجد لحل معضلة جزئية في مجال وقاية التراث الأثري القومي ، إذ يهتم على وجه التحديد بحماية بقايا التراث الأثري المطمور تحت سطح الأرض في الأماكن التي لم يصلها التنقيب بعد.

الكلمات المفتاحية : علم الآثار الوقائي ، التنقيب الأثري ، الحفرية الانقاذية ، التراث الاثري ،التشخيص و الحفاظ ، التنمية المستدامة .آثار حوض البحر الابيض المتوسط.

Résumé:

le Thème de ce Article, Intitulé: "L'impact de l'archéologie préventive française sur les expériences des pays du Maghreb Arabe "« cas de L'Algérie » Porte sur une étude de différents aspects du rapprochement franco-maghrébin en matière d'archéologie préventive, durant la période (2009-2010,2011,2012), sachant que «L'archéologie préventive» est une nouvelle stratégie incluse récemment dans les politiques nationales réservées à la protection du patrimoine archéologique national des risques de dévastation causés par les projets de développements d'un coté; Et de l'autre coté la réussite inattendue de l'expérience française dans la

matière, bien qu'elle émergea tardivement le domaine para port au reste des pays développés dans le monde, ce qui l'a rendu une expérience digne d'étude approfondie et de valorisation, dans le cadre de la recherche de nouvelles orientations au redressement des Expériences nationales dans ce processus.

Mots clés : Archéologie préventive; Recherche archéologique, Fouille préventive; Diagnostic, Patrimoine archéologique; Conservation et valorisation, Aménagement du territoire, développement durable, Archéologie méditerranéenne.

تقديم:

يعد التراث الأثري ثروة حضارية و يمثل هوية الأمة و التاريخ المادي و المرآة الحقيقة لأي حضارة، فعلاقة الإنسان بتراثه علاقة عضوية في هويته و ترتبط في وعيه بأبعاد حضارية و تاريخية و دينية و ثقافية و اجتماعية و سياسية على حد السواء.

لذا نجد كل دولة في العالم تفتخر بتراثها الثقافي ، و تعمل كل منها على إيجاد حلول و أساليب ، و طرق جديدة للحد من وزوال آثارها ، في وقت يعرف فيه العالم ظهور مختلف المنظمات و الهيئات الدولية التي تنادي من خلال بنود تشريعاتها العالم أجمع ، إلى ضرورة المحافظة على هذا الارث الحضاري و الثقافي المتعدد ، الذي سرعان ما اصبح يعرف بالتراث الانسانية جمعاء. و انطلاقاً من حماية الهوية الثقافية بأبعادها الاجتماعية و الاقتصادية ، التي انتجت دو افع أدت إلى اتحاد مجتمعات الدوال الغربية ، لوضع آليات و مناهج خاصة ، تضع في مقدمتها أولويات التعاون المشترك فيما بينها أولا ، و دول المتوسط المدرجة ضمن سياساتها ثانيا ، إلى ضرورة التوفيق بين تجسيد المشاريع التنموية الاقتصادية الكبري من جهة ، و تحقيقي حماية متكاملة للتراث الثقافي الأثري من جهة ثانية ، وصولاً إلى تنمية مستدامة ، وسط تو افق في الآراء و الافكار في شتى المجالات ، السياسية و الثقافية و الاجتماعية ، على أن تؤدي كل دولة دورها وفق ما تملكه من قدرات و إمكانيات مالية ماديةِ ، و تقنية علمية .

و من ابرز تلك الدول نجد فرنسا ، التي عرفت وتبنت استر اتيجية جديدة ، خاصة بصيانة و حماية التراث الاثري ميدانياً ، و من ثم مساهمتها الفعالة في نشر تجربتها خارج الوطن الفرنسي ، فانظمت إلى عدة حملات دولية داعية إلى ضرورة الحد من خطر تهديد مشاريع التنمية على التراث الأثري المطمور بصفة خاصة. التجربة التي عرفت بدايتها صعوبة كبيرة في التوفيق بين جانبين جد مهمين هما الجانب الاقتصادي و الجانب الأثري.

و من ثم يمكن إثارة الإشكالية الآتية : انطلاقاً من ضبط الأسباب التي أدت إلى ظهور علم الأثر الوقائي أو مصطلح الوقائي عالمياً (نشأته و تطوره). و ما مدى تأثير التجربة الفرنسية ذاتها في سياسات الدول المغاربية المنتهجة في حماية التراث الاثري و تثمينه ، لا سيما بعد دخول الطّرفين في تقارب رسمي منذ سنة 1424 هـ/ 2003 م ؟ و ما مدى مرونة التجربة الفرنسية في هذا المجال بدءاً بضبط مصطلحه، مع التطرق إلى أدواته و شروط تنفيذه علمياً و ميدانياً ، و قدرتها على التكيف مع خصوصيات التراث الأثري بالبلدان المغاربية الواقعة من قبل الاحتلال ، أو الانتداب الفرنسي تحديدا (الجزائر –تونس –المغرب الأقصى - موريتانيا) ؟

ومن هذا المنطلق أردنا التعريف بهذا العلم الجديد الذي أصبح معروفاً عند الغرب الاوروبي ، ومنتجع مهم للبحوث الأثرية الوقائية. و في توثيق التراث الأثري المطمور و المغمور منه ، و القصد منه هو حماية التراث الأثري و تسليط الضوء على العلاقة التي تربط هذه المشاريع التنموية بالتراث الثقافي ، و للوصول إلى ذلك أثرنا بعض التساؤلات .

ما هي حقيقة هذا العلم الجديد ؟ و أهم مؤسساته الميدانية ؟ و من هو البلد العربي الذي قام بتطبيق هذه التجربة الجديدة الوقائية بمساعدة فرنسا في بدايتها ؟ .و هل هذه العلاقة علاقة تكافؤ أو علاقة تضارب و عدم انسجام ؟.

و لمعالجة هذا الموضوع الذي كنت طرفا فيه في مجال البحث الأثري بالمواقع التي كانت حقلا أثريا وقائياً (قصر المشور بتلمسان،و موقع ساحة الشهداء بالجزائر العاصمة)تطلب منا الرجوع إلى مصادر متنوعة لإثراء هذا الموضوع ، أهمها ما يلي :

- القانون الجديد لعلم الآثار الوقائي، [1] كتاب صدر تحت إشراف خبير قانون التّراث الأثري الفرنسي السيد (بيير لوران فريبه)، تضمن مجموعة من التدخلات التي عرضت في ندوة نظمتها وزارة الثقافة و الاتصال ، قسم الهندسة المعمارية و التراث ، بالتعاون مع مركز الدراسات و الأبحاث في قانون البيئة ، و تخطيط استغلال الأراضي ، و ذلك بجامعة باريس الاولى يوم 10 ديسمبر 1423هـ/ 2002 م، و الذي ركزت مداخلاته على موضوع الهيكلة القانونية لعلم الأثار الوقائي ، و مضامين و أبعاد الاصلاحات الواجب إدخالها على قانون إنشائه و ذلك سنة (1422 هـ /2001 م)، تلك المقترحات التي جسدتها على أرض الواقع فيما بعد ، مضامين القانون الصادر في شهر اوت (2003 م)، المعدل للقانون رقم 44 – 2001 م، المنشئ لعلم الآثار الوقائي بفرنسا.

- التراث و تهيئة المحيط ؛ علم الآثار الوقائي ،[2] كتاب صدر تحت الرّعاية السامية " أليونسكو " ، و قد تضمن الأبحاث المتداولة في ورشة العمل " الأورو مغاربية " التي جاءت بذلك العنوان ، و التي تم تنظيمها من 26 – 30 نوفمبر سنة (1425هـ / 2004 م) ، بمدينة الجزائر.

و اسفرت هذه الورشة التي جرت على شكل مائدة مستديرة موسعة . التي عرض الطرف الفرنسي تجربته فيها أهميته في ترقية البحث الاثري و تثمينه من جهة ، و المحافظة على الآثار ، المهدد بالزوال بفعل خطر المشاريع التنموية من جهة ثانية ؛ قبل أن يعقبه المتدخلون المغاربة لشرح سياستهم المعتمدة في مجال تسيير التّراث الأثري و حمايته ، و المفتقدة تماماً لمفاهيم "علم الآثار الوقائي " و انهى المؤتمرون أشغالهم بجملة من التوصيات ، تهدف أساسا إلى محاولة إرساء دائم علم الآثار الوقائي في البلدان المغاربية.

- علم الاثار الوقائي في العالم ، [3] و هو كتاب ضخم ، صدر تحت اشراف مهندس علم الآثار الوقائي بفرنسا السيد (جين بول دو مول)، و قد تضمن ثلاثين مداخلة ، ألقيت بمقر المكتبة الفرنسية بباريس في إطار أشغال ملتقى دولى ، تم تنظيمه من طرف المكتبة المذكورة أنفاً ، و المعهد الوطني للبحث في علم الآثار الفرنسي (inrap) في سنة (1425هـ / 2005 م)، تحت عنوان (علم الآثار الوقائي في العالم) ، الذي شارك فيه متدخلون من مختلف دول العالم.

- علم الآثار الوقائي الأوروبي [4] كتاب صدر بعناية " المجلس الأوروبي " بوصفه أعلى هيئة تشريعية في الإتحاد الأوروبي اليوم ، و قد تضمنت مداخلات المؤتمر السياسة الأوروبية المشتركة في مجال ترقية علم الآثار الوقائي ، و ذلك من خلال فتح مشروع طموح لم يكتب له النجاح ، ألا و هو المشروع الموسوم بـ " المشروع الاوروبي لعلم الآثار الوقائي (EPAC) Préventive European Project Archaeology.

و هو المؤتمر الذي حضره خبراء و مهنيون يمثلون ثمانية عشرة دولة أوروبية و منظمة دولية تنشط في حقل التراث الاثري بغرض دراسة ما يعرف بعلم الآثار الوقائي كإستراتيجية جديدة تسعى جاهدة للتوفيق ما بين متطلبات التنمية ، وواجب الحفاظ على التراث الاثري و تثمينه. كذلك تشديد الحرص على أهمية التعاون الدولي القائم في هذا المجال؛ إضافة إلى تركيز العمل على العناصر التي بوسعها تحقيق المزيد من نجاعة العمل الوقائي نزولا عند رغبة متطلبات التنمية الاقتصادية و حفظ التراث الأثري المهدد في وجوده بفعل

زحف مشاريع التنمية المستدامة على حسابه من جهة ثانية.

أولا : تعريف علم الاثار الوقائي:

في اللغة هو الوقاية و الصيانة ، استنادًا لما جاء في الحديث النبوي الشريف : " فوق احدكم وجهه النار" و الوقاية كل ما وقيت به شيئا ، و يقال وقاك الله وقاية , أي حفظك و صانك من مكر و خداع ،[5] و بذلك يكون علم الآثار الوقائي من المنظور اللغوي وسيلة ، أو أداة لحماية التراث الأثري الثابت بمختلف مكوناته المتعددة في آن واحد.

و اصطلاحا : قال المناوي رحمه الله : الوقاية هي حفظ الشيء عمّا يؤذيه و يضره ، و توقّيَ الشيء وقاية مما يخاف عليه ، فهي مجموعة تدابير متخذة لحذف أو تحديد الاخطار.

لقد جاء تعريفه بسيطا في حقيقة الأمر و مسايرا بالصدفة لنظيره الاصطلاحي باعتبار أن مفهوم " علم الآثار الوقائي " من هذه الزاوية ، كما خلص إليه المؤتمرون في مناقشاتهم بمؤتمر مدينة فيلفيوس (VILNIUS) بلتوانيا (LITHUANIA)، المنظم تحت الرعاية السامية " للمجلس الاوروبي "، أعلى هيئة تشريعية في الإتحاد الأوروبي اليوم سنة 2004 م،[6] على أنه توجه نظري جديد في مجال حماية التراث الأثري الثابت يعقب مرحلة الإنقاذ ، حيث كانت الهيئات المشرفة على التراث الأثري لا تتدخل إلا بعد انطلاق المشاريع التنموية الكبرى على حساب المواقع الأثرية ، و المعالم التاريخية عندها تسارع إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ألا و هو مرحلة ما بعد الإنقاذ ، أو مرحلة " الوقاية" حيث تقوم المصالح المذكورة بإجراءات إستباقية ميدانية قبل انطلاق المشاريع التنموية.

إلا أن اختلاف التوجهات السياسية بين الدول ، جعل المؤتمرون يؤكدن على مبدأ " الوقاية " تحت اسم ما يعرف باسم " علم الآثار الوقائي " ، و ترك حرية الاختيار ، و تصور وسائل تنفيذه للحكومات تبعاً لإمكانياتها و تصوراتها الخاصة و المتيسرة مع خصوصية تراثها الأثري ، و طبيعة برامجها التنموية.

كما عرفه التقرير التمهيدي الذي رفع إلى وزير الثقافة سنة 1998 م على انه : انضمام علمي ، يضمن وظيفة اقتصادية محددة ، أو هو شرط أساسي لتقديم أعمال مشاريع التنمية ، التي كانت تأخذ وقتاً كبيراً . و تزيد من ناحية التكاليف ، وهو جزء لا يتجزأ من البحوث الاثرية .[9]

اما قانون التراث الفرنسي فعرفه على انه " جزء من مهمات الخدمة العامة ، و هو جزء من علم الآثار تحكمه المبادئ التي تنطبق على جميع البحوث العلمية ، الغرض منه ضمان سلامة المكتشفات الأثرية المطمورة في باطن الارض ، و تحت الماء في الوقت المناسب ، عن طريق الصيانة و الحفاظ و الدراسة العلمية

العامة لعناصر التراث الأثري المتأثرة أو التي تتأثر جراء القيام بألا شغال العمة أو الخاصة المساهمة في التنمية ، و يقوم أيضاً على تفسير و نشر النتائج.[10] من خلال حرص الدولة على التوفيق بين متطلبات البحث العلمي و بين التطور الاقتصادي و الاجتماعي. [11] و علم الاثار في فرنسا يتم بطريقتين ، فعندما نقول " علم الاثار " فيعني – المبرمج - و هدفه البحث العلمي ، أما " علم الاثار الوقائي " فهو لضمان حماية التراث الاثري المهدد بأشغال التنمية ، إلا أن هدفهما واحد هو تطوير العلوم و معرفة الماضي.[12] (الشكل رقم 01).

وينفذ علم الآثار الوقائي وفق المخطط التالي (شكل رقم 02) ، و هو بذلك يفرض القيام بالتشخيص و تنفيذ الحفريات قصد جمع البيانات الاثرية الموجودة في الموقع لتحليلها و تسجيلها ، أو تغيير نسق المشروع كلياً أو جزئياً لتجنب حدوث أي تغيير تقني للمشروع قد يؤثر سلباً على المكتشفات الاثرية. [13]

اما تعريفه حسب الدوال المشاركة في الاتحاد الاوروبي في هذا المجال ؛ فهو إجراء استباقي لوقاية التراث الأثري المدفون في باطن الارض من اخطار توسع المشاريع التنموية [14] (أي أنه يتم قبل القيام بمشاريع التهيئة) و هو بذلك يؤكد على مبدأ حماية التراث الاثري المهدد بأشغال التنمية ، الذي يعني التنبؤية و تجنب تدميره بدلاً من القيام بالحفر ، سواء أكان ذلك بحفرية إنقاذية أو حفرية وقائية.

و بذلك يمكن القول أن علم الآثار الوقائي ليس بتخصص علمي يندرج ضمن فروع علم الآثار ، ولا بمنهج علمي جديد في الدراسات الأثرية ، وليس بمصلحة خاصة مستخدمة لوقاية التراث الأثري ، كما جسده المشروع الفرنسي في الآونة الأخيرة في المعهد الوطني لبحوث علم الآثار الوقائي ، و أنما هو خيار استراتيجي نظري يسعى إلى التوفيق بين مشاريع التنمية المعاصرة ، و حماية التراث الأثري الملازم لها مع ترك الحلول التقديرية لكل بلد باعتبار أنه لا توجد حلول نموذجية يمكن تعميمها على جميع دول العالم في هذا الاطار.[7]

ثانيا : مفهوم علم الاثار الوقائي :

هو علم يسعى لدراسة بقايا الحضارات القديمة و يهتم بجميع المظاهر و الأنشطة البشرية في العصور السابقة ؛ اي ماضي الإنسان ، و جميع نشاطاته و علاقاته بالبيئة ، من خلال الشواهد المادية المطمورة في باطن الارض أو تحت الماء قبل القيام بأعمال التنمية ، [8] ويعد "علم الآثار" من أهم و أكثر العلوم الانسانية تطوراً ، و ظهوره كتوجه جديد في استراتجيات الحفاظ على التراث الأثري ، وأمر ضروري بالنظر إلى الظروف المصاحبة لنشأته ، نظرا لحاجته الماسة للعديد من الدراسات المتعددة المناهج و

المختلفة التي تجمع بين مختلف الطرق و الوسائل العلمية و الأدوات التكنولوجية الجديدة و المتطورة للبحث و التنقيب و العرض ، و الإثبات لما جادت به بطون المصادر و المراجع التاريخية المختلفة ، ليس هذا فقط ، بل إن العثور على تلك المخلفات البشرية ، يعد في حد ذاته كنزاً تاريخيا لا يقدر بثمن ، فعلم الآثار الوقائي أصبح نتيجة حتمية أملتها ظروف تطورات العصر ، فهو يمنع وقوع الكارثة من خلال تدخله قبل انطلاق المشاريع التنموية الزاحفة ، و هنا تكمن جديته و أهمية في مجال حماية التراث الأثري من الاندثار و الزوال و التثمين.

كما أصبح له عدة فروع علمية تدرس في الجامعات الجزائرية ، و تعمل على تطويره في كل مرة ، نظراً للمعلومات و المعارف الكثيرة التي يدرها من خلال المعاينات الميدانية و الحفريات المستعجلة ، في وقت أصبح يستغل كأداة لكتابة تاريخ ماضي البشرية ، كيف لا ودول عدة تحاول جاهدة المضي قدمًا بدراسة تعرف بعلم الآثار الوقائي.

ثالثا : نشأة و تطور علم الآثار الوقائي و دوافع ظهوره .

1. نشأته : عرفت الدول الاوروبية الغربية نمواً اقتصاديا معتبراً ، مما أدى إلى حدوث صدمات بين من يقوم بحماية التراث الأثري و المهيئين ، حيث كان الأول يعاني نقصاً فادحاً من الناحية القانونية الداعمة لمبدئه ، أما الثاني فيقابله الدعم القانوني الكبير لمشاريع التنمية الاقتصادية ، و من خلال هذه الصدمات سعى الاتحاد الاوروبي إلى إيجاد حلول ولو ظرفية للتوفيق بين الجانبين الاقتصادي و الثقافي (الأثري). حيث جاءت المبادرة من خلال وضع الاتفاقية الاوروبية التي أكدت على أن التراث الأثري شيء ضروري من اجل فهم تاريخ البشرية سنة 1953 م ، خطوة دفعت باللجنة الثقافية و العلمية ، المنبثقة عن المجلس الاوروبي سنة 1963 م في الميثاق الذي نبهت فيه إلى أن التطور الاقتصادي و التقدم التكنولوجي سيشكل خطراً كبيراً على تراث المدن و جمالها ، إضافة إلى زيادة الكثافة السكانية و عدم مسايرة التشريعات[15] التي وضعها معظم الدول الاوروبية في هذا المجال ،[16] التوجه الذي دعم فيما بعد بميثاق (البندقية) الصادر في سنة 1964 م.

أما في يوم 19 من شهر نوفمبر من سنة 1968 م أصدرت منظمة (UNESCO) اتفاقية بشأن صون الممتلكات الثقافية التي تهددها الاشغال العامة و الخاصة ، التي اتخذت شكل مؤتمرات عالمية و توصيات ، للمساهمة في انقاذ عدة منشآت ذات قيمة أثرية بارزة على المستوى العالمي المهدد بالزوال ، ودعم نشاط الحفاظ على التراث الحضاري ،

خاصة بعد ما أحدثه مشروع اقامة السد العالي على نهر النيل ، من خطر إغراق و تدمير المعابد التي شيدت شمال أسوان التي تعود لأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وكذا المواقع المجاورة لها ، والتحت هذه الاتفاقيات على ضرورة التوفيق بين صون الممتلكات الثقافية و بين التغييرات التي تقتضيها التنمية الاجتماعية و الاقتصادية ، عن طريق (التشريع ، التمويل ، و الاجراءات الإدارية).[17]

ثم أصدر الاتحاد الاوروبي في السنة الموالية (1979 م) اتفاقية ثانية لحماية التراث الأثري ، التي جاء في مضمونها على أن الاولوية تكون لحماية التراث الأثري ، و ذلك بتطبيق الطرق العلمية الأكثر صرامة في البحوث و الاكتشافات الأثرية ، للحفاظ على أهميتها التاريخية كاملة ، و محاولة أعمال الحفر غير قانونية ، التي تسبب خسارة كبيرة للمعلومات العلمية ، و هي غير قابلة للاسترجاع ، المرهونة بالقطع الأثرية ، و يتم كل هذا من خلال إعطاء الحفريات الاثرية القيمة العلمية الكاملة حيثما كان ذلك ممكناً.[18]

أما في سنة 1972 م أصدرت منظمة (UNESCO) اتفاقية أخرى لحماية التراث العالمي الثقافي و الطبيعي ، التي حثت من خلال بنودها التشريعية على اتخاذ سياسة عامة تهدف إلى جعل التراث يؤدي وظيفته في حياة المجتمع ، من خلال المحافظة عليه و عرضه ، و اتخاذ تدابير (قانونية ، علمية ، تقنية ، ادارية ، و مالية)مناسبة لحماية التراث الاثري ، منشئة بذلك اللجنة الدولية الحكومية لحماية التراث الثقافي و الطبيعي العالمي ، مدعومة بصندوق حماية التراث الثقافي و الطبيعي العالمي.[19] كما اعترفت في السنة نفسها بالمركز الدولي (ICCROM) كعنصر من هيأتها الاستشارية ، يساهم هو الآخر في إعداد التوصيات و الاعمال و البرامج .[20]

ليتم في سنة 1984 م عقد ندوة في مدينة فلورنس (FLORENCE) بغية اعداد توصية إلى حكومات الدول حول موضوع " علم الاثار و التنمية " مشروع جسد من طرف مجلس أوربا بنيس (Nice) من 4 إلى 6 من شهر نوفمبر ، في ندوة بعنوان " علم الاثار و الاشغال الكبري" التي ألح فيها على ضرورة إدارة تنفيذ المشاريع التنموية الكبرى ، و إيجاد الحلول التقنية و القانونية و المالية ، من اجل دراسة و حماية التراث الاثري ، بعد النتائج المتوصل إليها من خلال معالجة عدة دراسات لتجسيد عدة مشاريع تنموية متعلقة بالبنى التحتية و التنمية الخضرية في مختلف البلدان الاوروبية ، هذه الندوة وجهة خصيصاً إلى المهيئين و علماء الاثار ، و المهندسين المعماريين و المخططين و العاملين ، التي أكدت على أن الوقت هو البعد الرابع من واقع الانسان ، لذا يتطلب وضع نقاط مرجعية للحفاظ على ذاكرة الماضي .[21]

و من خلال هذه الاعتبارات رأت انه من الواجب القيام بعدت عمليات منها ما يلي:

- الجرد الاثري .
- إدراج الاعتبارات الاثرية عند القيام بالتخطيط.
- تحسين الاطار القانوني .
- ضمان توفير الموارد الكافية للعمل الاثري.
- اتخاذ خطوات لتثقيف الجمهور بأهمية حماية التراث الاثري .[22]
- تحسين تبادل المعلومات بين الدول.

إلا ان هذه الندوة أثارت عدداً من التساؤلات نورد منها :

- كيف يمكن تحسين الاتصالات على المستوى العملي الميداني بين المقررين و المخططين و علماء الاثر ، فيما يتعلق بالإشغال الكبرى ؟
- كيف يمكن لعلماء الاثر و رجال الاعمال الاستفادة من انقاذ الاثار لعامة الناس ؟
- كيف يمكن تنظيم اتصالات دائمة ما بين رجال الاعمال الاوربيين و المهيئين و علماء الآثار؟[23]

لتعطي هذه الاعمال ثمرة بعد ثلاث سنوات في بنود الميثاق الدولي لإدارة التراث الاثري سنة 1990 م ، الذي دعا إلى ضرورة حماية التراث الاثري ، من خلال وضع سياسة متكاملة ، تعد وقف التشريع القانوني ، و القيام بـ(بالمسح ، و التحري ، الصيانة ، و الحفظ ، التقييم ، و إعادة البناء ، و النوعية المهنية ، و التعاون الدولي)،[24] الذي دعم فيما بعد بالميثاق الدولي الاوروبي المعروف باتفاقية مالطا ، التي تعتبر نقطة التحول و التوجه نحو علم الآثار الوقائي ، الأمر الذي دفع بفرنسا إلى إعداد مسودة تنظيم علم الاثار الوقائي في سنة 1998 م ، في وقت كان الاتحاد الاوروبي يسعى إلى حماية تراثه من خلال تأسيسه لفكرة علم الاثار الوقائي خلال سنوات الستينات ، لكن هذه الفكرة باءت بالفشل لما عولج موضوع ماضينا و الذي تم في سنة 1969-و 1980 م ، و هي الفترة التي عرفت فيها الدول الاوروبية ، ازدهارا اقتصادياً .كبيراً ، و كذا الانتشار الواسع لأعمال البنية التحتية ، في البيئات الحضرية و الريفية.

و نجحت فرنسا في استغلال الاتفاقية الأوروبية لسنة 1992 م المنعقدة في (valletta)[25] التي وضعت إطاراً متماسكاً لوضع سياسة تعزيز حماية التراث الأثري ، التي عرفت استجابة واسعة ، لهذا المشروع الأوروبي القديم الطرح الجديد المصطلح ، الذي قام بعملية تقنية لمسار علم الآثار الوقائي في سنة 2000 م لمشروع (E.P.A.C)، و خلص إلى أن المشروع لم ينجح خلال الاجتماع المنعقد في مدينة فيلينيوس في الفترة الممتدة من 16 إلى 18 ديسمبر 2004 م.[26] إلا أن فرنسا عملت جاهدة على وضع الإطار القانوني و المؤسساتي ، لعلم الآثار الوقائي الذي

يهدف إلى حماية التراث الأثري المطمور أو المغمور والمهدد بمشاريع التنمية ، وسنة 2001 م هي تاريخ صدور أول قانون فرنسي في هذا المجال .[27] الأمر الذي دفع بفرنسا إلى الترويج لعلم الآثار الوقائي داخل و خارج البلاد ، و إدعائها بأن علم الآثار الوقائي من صنعها ، في وقت يرجح فيه الكثير من الباحثين تاريخ ظهوره لأول مرة في المنظومة التشريعية المتعلقة بحماية التراث الاثري لدى إحدى الدول الأوروبية الشرقية ألا و هي " رومانيا " التي نص قانونها الخاص رقم (63 /1974) على مبدأ : " إلزام إجراء الاختبارات الأثرية على الأراضي المرشحة لتجسيد المشاريع التنموية ، كشق الطرقات السريعة و مد خطوط السكك الحديدية ، و القطارات النفقية ، و ترميم القصور ، و ذلك قبل بداية العمل فيها ،[28] و منه نجد أن علم الاثار الوقائي جاء نتيجة ظروف حتمية فرضها الو اقع على كل من يقوم بعمليات التنمية ، من أجل حماية التراث الاثري.

2. دو افع ظهوره: يمكن حصرها في النقاط التالية "

2. التدمير الذي حدث باسم التطوير و انجاز مشاريع التنمية ، علما أن عوامل التلف البشرية تكون نتائجها أكثر حدّة و تأثيراً على التراث الاثري من نظيرتها الطّبيعية ، إذ نشكل خطراً تخريبياً منظما باسم الثورة الصناعية ، و ما تلاها من تطورات اقتصادية و اجتماعية و سياسية ، حيث كانت البداية مع خطوط السكك الحديدية ، و بناء السدود و شق الطرقات ، و توسيع المدن الصناعية التي ادت في كثي من الاحيان إلى تخريب و إخفاء العديد من المو اقع الاثرية.[29]

2.2. الزحف العمراني الحديث غير المخطط و ما اسفر عليه من إنجاز بنيات تحتية على حساب مقّومات التراث الاثري بداخل التجمعات السكنية بنوعيها الحضرية و الريفية ، نزلا عند حاجة النّمو الدّيموغرافي المتزايد ، و ارتفاع نسبة الكثافة السكانية في الحواضر ، و مناطق توفّر الشغل [30] ،حيث أصبحت المجتمعات الانسانية بحاجة ماسة إلى متطلبات جديدة ، تحتاج إلى ضرورة توفير مباني جديدة ، ووظائف تتماشى مع حركة التطور التكنولوجي ، و ما الى ذلك من خدمات حضرية على حساب الآثار القديمة في كثير من الأحيان .[31]

2. انتشار الاحياء بضواحي المدن ، و تجديد البنايات ، اصبح يشكل خطرا حقيقياً على مكونات هذه المراكز، خاصة المكونات الفرعية منها المنطوية على القيمة الاثرية و التاريخية .[32]

2. تزايد وعي المجتمع الدولي بأهمية التراث الاثري في تخليد آثار الانسان على الكون و الحفاظ على الهوية الثقافية و الحضارية للمجتمعات الانسانية ، لا سيما بعدما شاهده العالم من دمار في غضون الحربين العالميين الاولى و الثانية ، و ما نجم عنهما من تدمير و

اندثار العديد من المواقع و المعالم التاريخية المهمة .

إذ لم تعد عملية الحفاظ على التراث تقتصر على الدولة التي توجد بها تلك المعالم فحسب و نما هو مهمة المجتمع الدولي ككل .

2. تطور تقنيات توثيق و ارشفة التراث الأثري ، حيث استطاعت الثورة الرقمية التي شهدها العالم مؤخرا تغيير الكثير من المفاهيم و الوسائل ، و بذلك اصبحت كل الدول تعتمد على عمليات مرتبطة بتسيير التراث الاثري و أرشفته على النظم المعلوماتية ، التي قوامها مجموعة من التقنيات التي تعمل على استقبال موارد البيانات و تحويلها الى منتجات معلوماتية مرنة التفاعل ،[33] مثل نظام المعلومات الجغرافية (SIG).

7. يعتبر التراث الأثري مصدر اساسي في الذي اصبح يستعان به في رسم الخرائط الرقمية الدخل القومي للبلدان السياحية ، و هو المتميزة بالدقة المتناهية في إسقاط المواقع الأثرية عامل مهم من عوامل الاستقطاب ضمن بيئتها الاجتماعية و الطبيعية ، فضلا عن جملة السياحي بنوعيه الداخلي و الخارجي ، إذا المعلومات و تخزينها في بنوك معلوماتية خاصة ، و منها احسنت عملية إدارته ، يكون مصدر ثم معالجتها آليا ، و تحليلها بشكل غير مسبوق .[34] الانتعاش الاقتصادي للبلد ، و بالتالي فʻن التراث الاثري عنصر فاعل في التنمية المستدامة للمجتمعات ، و ليس عائقا كما يدعي بعض المستثمرين خطأ.

2. تطور المنظومة التشريعية ، و التنظيمية للتراث الاثري على الصعيدين الوطني من خلال ما أصدرته الدول على المستوى المحلي و الاقليمي من قوانين جديدة في سبيل حماية التراث الاثري ، و على الصعيد الأممي الذي يستند إلى مجموعة من المعاهدات و المواثيق الدولية في هذا الشّأن.

ضيف إلى ذلك ظهور العديد من المنظمات الدولية المتخصصة في هذا المجال ، حيث تعمل جاهدة على سن القوانين ، و عقد المؤتمرات ، و تنظيم الندوات الرّفيعة المستوى حول سبل حماية التراث الاثري ، ووقايته من الاخطار المحدقة به ، و لاسيما زحف مشاريع التنمية المعاصرة على حسابه ، كمنظمة الامم المتحدة للتربية و العلوم و الثقافة (*UNESCO*)، و المركز الدولي لدراسة حفظ التراث و ترميم الممتلكات الثقافية (*ICCROM*)، [35] و المجلس الدولي للمعالم التاريخية و المواقع الاثرية (*ICOMOS*)،[36] التي لا تتوافق على عرض الخطط ، و البرامج التاريخية التي تعمل على تطوير الممارسات العلمية خدمة للتراث الاثري .[37]

ثانيًا : مبادئ و غايات علم الآثار الوقائي:

يعتمد علم الآثار الوقائي على أربعة دعائم أساسية من حيث المبدأ، و جزافية من حيث مستوى التطور المتفاوت بين بلدان العالم، و تباين أنظمتها التشريعية و هي:

1. المبدأ النظري : و هو حماية التراث الأثري من خطر مشاريع التنمية الزاحفة على حسابه.
2. التشريع: ضرورة مراجعة المنظومة القانونية المحلية وفق مبادئ و توصيات اتفاقية علم 1972 م الصّادرة عن "اليونسكو"،و اتفاقية " الإيكوموس " سنة 1990 م.
3. البناء المؤسساتي : ضرورة صياغة أطر العمل المؤسساتي المتناسق في هذا الإطار عن طريق إعادة تأهيل المؤسسات القائمة ، أو ابتكار هياكل آخرى جديدة ، و توفير الجّو الملائم لتعايشهما ، حتى لا تتدخل صلاحيات بعضهما البعض .
4. التمويل المالي: ضرورة رصد مصادر مالية ثابتة، و دائمة لتمويل مختلف عمليات " علم الآثار الوقائي " ، كابتكار مؤسسة عمومية تسهر على ذلك ، أو تخصيص ميزانية محدودة في هذا الإطار للهيئة الوصية على قطاع التراث الأثري.

و على هذا الاساس نجد مستوي " علم الآثار الوقائي " في بلدان أوروبا متبايناً ، تباينا شديدا ، فعلى سبيل المثال نجد فرنسا في قمة الهرم ، تليها بريطانيا و ألمانيا ، ثم دول أوروبا الغربية ، و تليها أوروبا الشرقية ، أو البلدان الاشتراكية قبل سقوط المعسكر الاشتراكي سنة 1989 م ، أين نلاحظ رومانيا في مقدمة الترتيب و روسيا في المؤخرة ، لأنها لم تبذل أدني جهد في هذا المقام.[38]

كما نجد "علم الآثار الوقائي " يهدف إلى غاية سامية، تتمثّل في إيجاد حل تو افقي للمفارقة القائمة بين التّراث الأثري باعتباره مورد طبيعي محدود غير متجدد، و ما يشكله من قلق متزايد نتيجة لما يتعرض له من أخطار و كوارث يكون الإنسان المتسبب الاول فيها ، و احتياجات التنمية الإقليمية و الاقتصادية التي لا تخدم المصلحة الخاصة فقط ، و إنّما المجتمع بأكمله من جهة أخرى.

خامساً : هيئات البحث المتخصصة في مجال التّراث الأثري:

1. المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) : يمثل هذا المركز شريكاً مهما لمؤسسات علم الآثار الوقائي بموجب اتفاقية التعاون المبرمة بينه ، و بين المعهد الوطني لأبحاث علم الآثار الوقائي بتاريخ 24 مارس سنة 2003 م ؛ لا سيما و أنَّه أكبر هيئة بحثية في فرنسا .
2. المجلس الوطني للبحوث الأثرية (*CNRA*) : تعتبر هذه الهيئة بمثابة أعلى هيئة توجيهية للدراسات و البحث في حقل الآثار عبر التّراب الفرنسي ، و هو بذلك يشرف على نشاطات كلاّ من اللجان اللإقليمية للبحث الأثري ؛ و المركز الوطني لما قبل التاريخ (*CNP*)، و مديرية البحث في علم

الآثار البحري (*DRASM*)، و المركز الوطني لعلم الآثار الحضري (*CNAU*).

فضلا عن مسؤولية هذا المجلس في مراجعة ، و اقتراح كل التدابير المتعلقة بالدراسة العلمية ، و جرد التراث الأثري من خلال قيامه على تحديث الخريطة الأثرية الفرنسية باستمرار ؛و العمل على نتائج العمليات الأثرية و حماية ، و حفظ ، و تثمين التراث الأثري بشكل عام بما فيها نتائج علم الآثار الوقائي ، هذا ما تصبوا إليه الوزارة القائمة بحفظ التراث بالجزائر.

<u>خامساً : عمليات و ادوات و تقنيات تنفيذ علم الآثار الوقائي:</u>

تعتمد عمليات علم الاثار الوقائي في اداء مهامها الميدانية على نوعين مهمين من التنقيب الاثري المستعجل ؛ اي التنقيب المربوط بتحديد الفترة الزمنية ، و الفضاء الجغرافي مسبقاً ، و يعرف الاول منها :

1. التشخيص : هو الاداة المستخدمة في عملية تحري الآثار المدفونة في باطن الارض و تعتمد أساسا على تقنيتين مختلفتين ، تقنية الاروقة المتوازية المعتمدة في التجربة الفرنسية (صورة رقم : 01) ، و التقنية الثانية هي تقنية المجسات الشبكية المعتمدة في اوروبا الشرقية (آلات خاصة) ، و منها التي تعتمد على إجراء مساير (SONDAGE) مكثفة بالمجارف الميكانيكية في اشكال أفقية متوازية (صورة رقم : 02)، او متقاطعة أحياناً أخرى (صورة رقم : 03)، و ذلك على امتداد مساحة تتراوح ما بين 5 ، 12 % من حجم المساحة الإجمالية المعرّضة للتشخيص.[39]

و يختلف التشخيص بين المناطق الريفية و الحضرية ، ففي الحالة الاولى يتم بواسطة الالة التي تهدف إلى تغطية مساحة الأرض الكلية ، المشروع التنموي من(7 % إلى 10 %) من مساحة الارض الكلية ، عن طريق حفر خنادق تمتد من (20 م إلى 50 م). و حسب المادة (523 -1) من قانون التراث ، فإن عمليات التشخيص يوكل بها إلى مؤسسة عمومية وطنية ذات طبيعة إدارية هي : (Inrap)، أو المصالح الاثرية المعتمدة لدى السلطات الاقليمية . بعدما يتم الإعلان عن لزوم التشخيص من قبل محافظ المنطقة ، وفقا لأحكام المادة 27 من المرسوم التنفيذي رقم 90 -2004 ، المؤرخ في 30 جوان 2004.

و بعد الانتهاء من التشخيص يتم إعداد تقرير التشخيص ، و إحالته على محافظ الإقليم ، و المصالح المعنية بإدارة التراث الأثري المتمثلة في المديرية الجهوية للشؤون الثقافية و المصلحة الجهوية للآثار، التي ترسل بدورها نسخة على المهيئ و مالك

الأرض. و استنادا على مضمون تقرير عملية التشخيص يتم اتخاذ القرار المتعلق بإقامة حفرية أثرية وقائية من عدمه.

2. الحفرية الوقائية:

هي إجراء غير دائم ، حيث لا يُنفذ إلاّ بعد إجراء عملية التّشخيص و تأكيد هذه الاخيرة من جهتها على وجود أثار كثيرة ، تستوجب إجراء حفرية أثرية قائمة بذاتها.

و الحفرية الوقائية كإجراء استثنائي ، لا تختلف عن الحفرية الإنقاذية سوي في موعد الإجراء ، حيث تنفذ بنفس التقنيات و الآليات المعتمدة تماما ، و لعل الاختلاف الوحيد بينهما ، يكمن في أن الحفرية الإنقاذية لا تنطلق إلاّ بعد انطلاق المشروع التنموي على حساب الآثار و إتلاف جانب منها في معظم الأحيان ، بينما الحفرية الوقائية فهي إجراء استباقي لمنع حدوث الكارثة أصلا ، غير أنها تبقى مربوطة بالظروف الاستثنائية المحيطة بالحفرية الإنقاذية من حيث ضغط العامل الزّمني المحدود جداً ، و عدم مراعاة الظروف المناخية ؛ و عدم الالتزام برزنامة الحفرية الأثرية المبرمجة خصوصاً.

كما يتم العمل بواسطة عقد مبرم بين المهيأ، و الجهة المكلفة بتنفيذ الحفرية الوقائية، حيث يتم الاتفاق حول شروط ز ظروف إنجاز، و تمويل الحفرية الوقائية بالإضافة إلى التقنيات العلمية و الموارد المالية و البشرية المستخدمة، و تحديد التاريخ المحتمل لبدء الحفرية، و مواعيد الانتهاء و التسليم.

خامساً : بوادر علم الاثار الوقائي في الجزائر:

لقد قامت الدولة الجزائرية بوضع نصوص قانونية ، من اجل حماية التراثها الحضاري ، و ذلك بالتعاون بين مصالح وزارة الثقافة و مصالح قطاع الأشغال العمومية في مجالين هما : .

1. المجال النظري : وضع المشرع الجزائري مبادئ علم الآثار الوقائي من خلال النصوص القانونية المتممة لبعض مواد القانون 98 -04 المتعلق بحماية التراث الثقافي ، و دمجها مع قوانين تخص التنمية المستدامة (مخطط استصلاح المواقع الأثرية الذي يعد خصيصا لحماية المواقع الأثرية و المحميات)، و كذلك من خلال عملية تقييم الأثر البيئي ، الذي يؤدي دوراً كبيراً في علم الأثر الوقائي ، حيث تعد دراسة و تشخيص الآثار تحت سطح الأرض في الموقع المعني بالتنمية العمرانية جزءا لا يتجزأ من وثائق تقييم الأثر البيئي [40] في المراحل المختلفة لإنجاز المشروع ، كما تساعد دراسة تقييم الآثار البيئية بدراستها حول الموارد الطبيعية ، الدراسة السطحية للموقع ، و الدراسة الجغرافية في التمهيد للحفرية الوقائية ، (مسح عام)، حيث تمد

هذه الدراسات المعلومات الضرورية التي تخص الموقع و المشروع المقترح.

2. المجال التطبيقي: و يتمثل في الجهود المبذولة بالتعاون بين قطاع الأشغال العمومية و قطاع الثقافة، على سبيل المثال تلقى مصالح مديرية الثقافة لولاية تلمسان مراسلة من المصالح المعنية بتخطيط طريق السيار شرق غرب ، تتضمن اتخاذ إجراءات للقيام بعملية مسح اثري لمعرفة إمكانية احتواء الفضاءات التي يمر بها هذا الطريق على آثار. كما قامت الجزائر بالتعاون مع الدول التي تبنت علم الآثار الوقائي في تخطيطها العمراني من بينها فرنسا و ذلك لاكتساب التجربة المتمثلة في التقنيات المتبعة و الوسائل المعتمدة مثل التقنيات الكلاسيكية ، و عملية التشخيص ، و الخريطة الاثرية التي تبقى اساسية في علم الآثار الوقائي.

سادساً: تطبيق علم الآثار الوقائي في الجزائر:

للحديث عن تطبيق علم الآثار الوقائي على التراب الجزائري ، يكتفي فقط التطرق إلى العمليات التي نفذت من أجل تحقيق هذه الدراسة الجديدة ، و إذا تمحصنا القانون الجزائري (رقم : 98-04 الصادر في سنة 1998 م) ، لا نجد تعريفاً أو إشارة إلى ما يعرف بعلم الآثار الوقائي ما عدى التطرق إلى المقصود بالأبحاث الأثرية ، التي عرفت بأنها كل تقصي يتم القيام به بصورة علمية ، و تستخدم فيه التكنولوجيات الحديثة في الميدان ، بهدف التعرف على المخلفات الأثرية ، بمختلف أنواعها و عصورها ، و تحديد مواقعها و هويتها ، بغية القيام بعملية إعادة إنشاء (بناء) ، ذات طابع اقتصادي و اجتماعي ، و ثقافي لإنماء معرفة التاريخ بمفهومه الأوسع و تطويرها وتشمل هذه الأبحاث :

1. أعمال التنقيب و البحث في مستوى مساحة معينة ، أو منطقة محددة ، سواء كانت طبيعية أو تحت مائية تكون في شكل حفريات و استقصاءات برية أو تحت مائية ، أو ابحاث أثرية على المعالم ، و تحف و مجموعات متحفية ، ويشمل طلب الحصول على رخصة البحث.
2. المكان أو المنطقة اللذين ستجرى فيهما الابحاث ، و الطبيعة القانونية للمكان.
3. مدة الاشغال المزعم القيام بها ، و الهدف العلمي المنشود.[41]

و للوقوف على عمليات تطبيق علم الآثار الوقائي ميدانياً على سبيل المثال نذكر ما يلي:

1. الورشة الاوروبية المغاربية :

جسدت هذه الورشة في إطار التعاون المشترك بين الجزائر و فرنسا تحت رعاية منظمة (Unesco) ، و انعقدت هذه الورشة في الجزائر في الفترة الممتدة من 26 لى 30 من شهر نوفمبر سنة 2003 م، و

دامت ثلاثة ايام ، تم خلالها دراسة و اقع علم الاثر الوقائي و التنمية الاقليمية بمنطقة شمال إفريقيا عامة ، و المغاربية خاصة، بمساهمة الوكالة الوطنية لحماية الاثار سابقاً ، و المعهد الفرنسي للبحوث في علم الأثر الوقائي (Inrap) ، [42] عرضت من خلاله سياسات كل من دولة(الجزائر، تونس ، موريتانيا ، المغرب) ، في مجال حماية التراث الأثري ، إضافة إلى عرض خاص بالتجربة الفرنسية في مجال علم الآثار الوقائي ، كما عرضت الورشة مجموعة من العمليات الميدانية المجسدة في الجزائر كموقع مدينة شرشال (مركدال) وكذا التطرق إلى عرض الترسانة القانونية و المؤسساتية في مجال ، لدول شمال إفريقيا .[43] و تبقى الحفرية الوقائية المجسدة بعاصمة الجزائر، تُعدُّ من بين أول التطبيقات الميدانية التي جسدها المعهد الفرنسي في علم الآثار الوقائي ، خارج حدود فرنسا. و على سبيل المثال نذكر نموذجين للحفرية الوقائية التي كان لي نصيب من المشاركة في العمل الميداني كتجربة أولية في هذا الميدان.

2. الحفرية الوقائية بساحة الشهداء.

قامت الجزائر بتجسيد مشروع الحفرية الوقائية ، على مستوى الجزائر العاصمة ، بالموقع الذي يقع أسفل قصبة الجزائر، والمصنف كتراث عالمي ، لدى منظمة اليونسكو سنة 1992 م، و تهدف الدولة الجزائرية من خلال هذه الخطوة إلى تحديد طبيعة الآثار الموجودة بهذا الموقع ، و الحد من تخريب ما بقي منها ، والحفاظ على المستويات الأثرية.

فأنجز التشخيص في موضع انطلاق القطار النفقي السريع (ميترو الجزائر) ، بالاشتراك مع فريق عمل مكون من اثنا عشر(12) باحثا مختصاً جزائريا ، من المركز الوطني للبحث في علم الآثار (CNRA) و اربعة باحثين و مجموعة من المهنيين من الديوان الوطني لتسيير الممتلكات الثقافية المحمية و استغلالها لولاية الجزائر العاصمة (OGEBC)، و إطارات من المعهد الفرنسي لأبحاث علم الاثار الوقائي ، و ذلك في إطار إتفاقية الشركة التي أبرمت ما بين المعهد المذكور من جهة ووزارة الثقافة الجزائرية سنة (1430 هـ / 2009 م)، من جهة ثانية ، تحت الرعاية السامية لمنظمة "اليونسكو" باعتبار أنّ الموقع مسجل في قائمة التراث العالمي ، فضلا عن المساعدة التقنية التي قدمتها شركة قطار الجزائر للأنفاق (EMA) بالاتفاق مع وزارة النّقل الجزائرية .

هذه الحفرية تعتبر امتداد و تكملة للتّشخيص الذي تم تنفيذه سنة (1424هـ / 2003م) ، على مستوى " جزيرة لالاّهم بالقصبة السفلى و المجاورة لموقع محطة النفق (ميترو الجزائر) من الناحية الغربية.

فكانت بداية الحفرية الوقائية فتح مجسين (سبرين) مربعين يبعدان عن

بعضهما البعض بنحوي (60 متراً) ، أحدهما يقع في شمال منطقة المشروع (المحطة المستقبلية)، و الثاني بجنوبها.(صورة رقم : 04).

لقد اسفرت هذه الحفرية في بدايتها على حفر مساحة اجمالية مقدارها (400 م^2) ، واكتشافات أولية ، من

(4 إلى 5 امتار) بحثاً إلى غاية بلوغ الطبقة العذراء ، حيث سمحت عمليات التشخيص في الكشف عن بقايا أثرية في منتهى الأهمية من تاريخ مدينة الجزائر الضاربة في عمق التاريخ عبر العصور ، و تهدف هذه العملية إلى تحديد طبيعة الآثار بهذا الموقع ، و الحد من التدمير ما تبقى منها عن طريق هذا المشروع ، و الحفاظ على مستويات أثرية يصل عمقها أكثر من 7 امتار ، ثم الكشف فيها عن حي سكني يعود للفترة العثمانية ، و المتمثل في احياء سكنية (صورة رقم : 05) و بيت المال وبقايا مسجد السيدة (صورة رقم : 06)، ومن اللقى الاثرية الفخارية و قطع من مسكوكات (صورة رقم 07). و نزولا في المستوى الارضي بحثاً عثر على بقايا تعود للفترة الروماني (صورة رقم : 08).

فكانت اول تجربة يشهد فيها للجزائر توقف مشروع تنموي كبير ، من اجل حماية تراثنا الاثري يصل عمقها أكثر من 7 امتار، حيث تم الكشف عن ما يلي :

* كنيسة في مستويات أسفل تتضمن صحن عرضه 10 امتار لم تعرف حدودها لأن جدرانها تخرج عن منطقة التشخيص.

* كشف عن ارضية في مستوى أعلى تتكون من فسيفساء قوام زخارفها دوائر و سلسلة من المربعات وضعت بالتناوب مع الدوائر.

تعتبر هذه النتائج أولية لأن المستويات الاكثر عمقاً لم يتم الكشف عنها ويمكن أن تعود حتى للفترة الفينيقية و حقب ما قبل التاريخ.

إن هذه العملية ساهمت في كسب تقنيات جديدة في عمليات التدخلات الأثرية ، و تدريب أيدي عاملة في حقل التراث الجزائري.

3. الحفرية الإنقاذية (قصر المشور):

1.3. تاريخ بناء القصر : بني قصر المشور من طرف السلطان يغمراسن بن زيان في أواسط القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي ، اتخذه مقرا له ولحاشيته بدلا من القصر القديم ، ولا يزال قائما بأسواره ، و بابه الرئيسي المعروف بباب التوتة.[44]

لقد ادى قصر المشور أدوار متعددة في التاريخ ، حيث اتخذ كقصر ملكي ، وسجن و حصن ، و ساحة للحفلات ،[45] كان قديما يحتوي على دور و حدائق ، تسبب في زواله عوامل الزمن.[46]

اما في الفترة الفرنسية ، قامت مصالح الهندسة العسكرية الفرنسية ، بدراسة للموقع : (حالته ، مواضيع التغيير في المخطط ، و القيام بمجسمات لمعرفة أهم الحقب التاريخية التي مربها) ، وانجز مخطط المشور في سنة 1843 م ، و حول

في ذلك الوقت إلى قاعدة عسكرية ، حيث دمر بعد الاستقلال و احتفظ بهذا الرفع في أرشيف الدفاع الفرنسي بقصر فينسان.

خضع المشور للدراسات منذ سنة 1989 م ، حيث قررت السلطات المحلية هدم البناية التي تعود للفترة الفرنسية ، و اكتشف على إثرها على قطعة جصية مزينة بزخارف نباتية ، حيث أوقفت عملية الهدم ، و أجريت مجموعة من الاسبار سنتي 1990 و 1993م، تم الكشف من خلالها على أرضيات من الزليج (القيراطي) ، و اساست لمباني .

برمجت حفرية إنقاذية في المشور على مرحلتين : الاولى كانت سنة 2008 م، و الثانية سنة 2010 م، على إثر إنجاز مشروع إعادة بناء القصر.

2.3. الحفرية الانقاذية 2008 م: قامت جامعة ابي بكر بلقايد بإجراء حفرية و ذلك سنة 2008م ، بالتعاون مع المدرسة العليا للدراسات (Sorbonne) بفرنسا ، بتنظيم تربص لمدة شهر و القيام بحفرية إنقاذية.

و قد دعم المشروع من طرف السفارة الفرنسية بالجزائر ، و مؤسسة (Max Van Berchem)- بجنيف ، و مسؤولين جزائريين و فرنسيين.[47] و تهدف هذه المبادرة إلى التعرف على طبيعة الآثار و إظهار القيمة الاثرية و التاريخية و التحليل المورفولوجي للمخطط العمراني لحي المشور الملكي ، و لتحقيق هذا النوع من الحفريات التي تتطلب سرعة التنفيذ و الدقة في الميدان ، قسم العمل على ثلاث فرق من الطلبة كل فرقة يرأسها أستاذ ، وكل فرقة قامت ضمن منطقة محددة . فكان من نتائج هذه الحفرية الانقاذية الكشف عن هندسة مدينة راقية .

3. الحفرية الانقاذية 2010 م: برمجت هذه الحفرية استناداً إلى الحفرية السابقة ، في إطار التحضير لتظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ، بالتعاون بين باحثين مختصين من المركز الوطني للبحث في علم الاثار ، و الديوان الوطني لتسيير و استغلال الممتلكات الثقافية المحمية ، ووزارة الثقافة ، و مكتب الدراسات (ARCADE)، و مقاولة مصمودي للبناء ، و مديرية الثقافة لولاية تلمسان .

نظراً للمدة الزمنية القصيرة المتمثلة في ستة أشهر ، اعتمدت في هذه الحفرية طريقة البحث الاثري الوقائي ، و ذلك باستعمال الآلة الميكانيكية لإزالة الأتربة المتراكمة في الموقع جراء التعديلات التي طرأت على المعلم ، ثم متابعة التنقيب اليدوي بدءا بتنظيف الموقع ، و الرفع المعماري ، و التصوير ، و جمع اللقى ، و التوثيق العلمي للموقع ، ثم قسم الموقع الى خمسة مناطق

، اكتشف على إثرها على بقايا أثرية في غاية الاهمية:

- اكتشاف بقايا القصر بحوض مركزي تتوسطه فسقية ، و غرف ذات أرضيات و جدران مزينة

بزليج القشاني ، قوام هذه الزخارف أطباق نجمية ، كما تم العثور على أروقة مبلطة بنفس الطريقة السابقة قوام زخارفها معينات ذات الوان مختلفة ، و غرف مزينة بأطباق نجمية (لوحة رقم : 9) .

- حوض مركزي بشكل مستطيل مبلط بزليج القشاني ذي اشكال هندسية موضوعة بطريقة المعينات ، و بألوان متناوبة ؛ ثلاث معينات سوداء ، وواحدة حمراء ، ثم ثلاثة سوداء وواحدة زرقاء .(لوحة رقم : 10)
- تم العثور على ثلاثة منازل متجاورة تتمركز كل منها حول فناء يتوسطه فسقية بجانبه بئر(لوحة رقم : 11)
- اكتشاف زخرفة فسيفسائية تزين قاعات و جدران غرف القصر (صورة رقم 12)
- مجموعة للقى أثرية من الفخار و الخزف و مجموعة من الجص بعضها منفذ بأسلوب التلوين، و البعض الآخر قوامه زخارف نباتية و كتابية. (لوحة رقم : 13).
- شواهد قبور استعملت في العهد الفرنسي لتغطيت قنوات صرف المياه غير صالحة للشرب. (صورة رقم : 14).

الخاتمة:

لقد عرفت فرنسا شوطاً مهماً في القطاع الثقافي ، و هو كذلك و اقع عند جيرانها في المتوسط ، بعد أن سبقتهم في ذلك ، في وقت عرف اهتماما دوليا منقطع النظير بهذا المجال ، فهي من بين تلك الدول الغربية الأوروبية ، التي تحمل مشعل تجربةِ رائدة في مجال حماية التراث الاثري المطمور ، و المهدد بالمشاريع التنموية الكبري ، القفزة النوعية عرفها هذا البلد الذي يعتبر فيه نفسه ، السباق في العالم ، فيما يعرف اليوم بـ (استراتيجية علم الآثار الوقائي).

دون أن ننسي ما جسده الاتحاد الاوروبي في مشروعه بـ (European Papers Préventive Archaeology)، المشروع الذي لم يصل إلى هدفه المنشود خلال مسيرته الاولى سنة 2000 - 2004 م ، الوقت الذي تفطنت فيه فرنسا بأهمية هذه الدراسة ، و جعلت منه إستراتيجية خاصة بها ، قبل أن تقوم بتجسيده على ارض الو اقع سنة 2001 م، ثم السعي إلى تصديرها نحو الخارج ، نحو جيرانها في الضفة الاخرى من المتوسط ، لدول شمال افريقيا عامة و المغرب خاصة ، لذا تعد الجزائر أول من قام بتجسيد الاستراتيجية و ذلك في سنة 2003 م، التي ساهم في انجاحها ، المعهد الفرنسي للبحوث في علم الآثار الوقائي .

إن ظهور علم الآثار الوقائي كتوجه جديد في استراتيجيات الحفاظ على التراث الاثري ، أمر ضروري بالنظر إلى الظروف المصاحبة لنشاته ، حيث يعتبر في هذا الصدد كنتيجة حتمية أملتها تطّورات العصر ، و عاد بذلك يمثل مرحلة ما بعد الانقاذ التي ازدهرت بين الخمسينات و ثمانينيات من القرن العشرين ، حيث كان القائمون على التراث الاثري ينتظرون حدوث الكارثة للتدخل بغرض إنقاذ ما يمكن إنقاذه على خلاف علم الآثار الوقائي الذي يمنع وقوع الكارثة أساسا من خلال تدخله قبل انطلاق المشروع التنموي ، و تكمن جدّة ما يعرف بعلم الآثار الوقائي في مجال حماية التراث الاثري و تثمينه.

و بالنظر إلى مختلف التجارب العالمية في هذا المجال لا سيما الأوروبية منها على وجه الخصوص ، يمكن القول بأن علم الآثار الوقائي يقوم على مبدأ نظري واحد غايته حماية التراث الأثري من خطر مشاريع التنمية المستدامة الزاحفة إثر التطور العمراني ، و شبه إجماع حول مصادر تمويل مشاريعه الطّموحة ، كما يمكن أن يستنبط من عباراته الشّهيرة " المتلف هو من يدفع" (CASSEUR PAYEUR) على خلاف بنائه التنظّيمي الذي ما زال في شكله الهرمي ، مثار للجدل بين المختصين في الوقت الحاضر.

إن علم الآثار الوقائي ليس بمصلحة متخصّصة في مجال حماية و صيانة التراث الاثري العام ، كما قد يفهمه البعض من استقراء التّجربة الفرنسية في هذا المقام ، و إنّما هو استراتيجية جديدة في مجال السياسات الوطنية المتبعة في ميدان حفظ التّراثو تثمينه ، و تعبر عن أُفق جديد في هذا الشّأن ، أى و هو أُفق ، أو مرحلة ما بعد " الإنقاذ " قياساً بنظرية " البنيوية " ، و ما بعد البنيوية ؛ أي التّفككية خلال القرن الماضي.

فعلم الآثار الوقائي تجربة رائدة ، إلا أنه يحتاج إلى المزيد من الدراسة و الفهم لتجسيده على أرض الواقع خاصة في الجزائر ، و للحصول على نتائج مهمة ، و تفادي المشاكل و العقبات لا بد من إعداد الخريطة الاثرية التي تسمح بمعرفة الاخطار التي تهدد التراث الاثري بالزوال و التدمير ، كما يجب وضع علاقات كافية لتطوير البحوث في القطاع الثقافي ، فيما بين هذا الاخير و مراكز البحوث في هذا المجال (معاهد . جامعات. مخابر.) ، و للوصول إلى حماية متكاملة للتراث الأثري كاملا ، كإحداث تغيير في منح صلاحيات مؤسسات القطاع الثقافي ، وتدعيمها من الجانب القانوني و توفير معدات و موارد آلية و مالية ، تحد على الأقل من خطر مشاريع التنمية الكبرى على التراث الاثري .

إن تلك الاستراتيجية التى كشفتها المجتمعات المغاربية في الآونة الأخيرة عن طريق الاحتكاك بالتّجربة الفرنسية المتميزة في هذا الشأن ، بداية من سنة (2003 م)، دون أن تتمكن من آلياتها

النّاجحة بعد لأسباب كثيرة ، قد تكون محلّ دراسة أعمق ، و أشمل مستقبلا.

الهوامش :

1. FRIER (P.L), Le nouveau droit de L'archéologie préventive édition L'harmattan, France ,2004.
2. Unesco : Atelier euro-maghrébin « patrimoine et aménagement du territoire- L'archéologie préventive», 20 - novembre 2004, Alger – Alegria.
3. Demoule (J.P) , L'archéologie préventive dans Le monde , édition La découverte, paris , 2007.
4. European Préventive Archaeology Papers of (EPAC) Meeting, Vilnius 2004 , National office of Cultural Héritage / Council of Europe ,2007.
5. ابن منظور جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم الانصاري الافريقي المصري ، لسان العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، 2005م، المجلد الثامن، (و- ي)، ص 818.
6. ينرج هذا المؤتمر ضمن السياسة المشتركة في مجال ترقية علم الاثار الوقائي.
7. European préventive archaeology Papers , of the EPAC Meeting , vilnius , 2004, National office of cultural Héritages / Council of Europe,2007, p 12.
8. Communiqué de presse, direction des affaires culturelle océan indien pôle Archéologie, première opération d »archéologie Préventive A La Réunion, sait- Denis, Le 25 janvier 2012, p 1.

- كامل حيدر ، منهج البحث الاثري و التاريخي، دار الفكر اللبنانية ، ط1 ، بيروت ، 1990م ، ص 11-12.

9. Jean- Paul démoule, L'organisation de L'archéologie préventive En France, op, cit, p 4.
10. Code du patrimoine , Livre v, Archéologie .
11. Loi 2004-44 du 17 janvier 2001 , Relative A L'archéologie Préventive, Article 2.
12. Sénat ; rapport d'information, N°760 , Au Nom de La commission de La Culture , de L'éducation Et De La communication (1) sur L'archéologie préventive Et La

valorisation scientifique , par MM. Pierre Bordier et yves Dauge, session extraordinaire de 2010-2011, p 15.

13. Ministère de La Culture et de La communication, Report to parliament, implementation of the Appended Law of january 17 TH, 2001, Relating to préventive Archaelogy , Volume 1 , February 2006, p 66.

14. European Preventive Archeology Papers of (EPAC) Meeting , Vilnius 2004, National Office of Cultural Héritage / council of europe , 2007 , p 12.

15. التشريع : هو قيام السلطة المختصة في الدولة بوضع القواعد القانونية ملزمة لتنظيم العلاقات في المجتمع طبقاً للإجرآت المقررة لذلك في صورة مكتوبة. و التشريع بهذا المعنى هو الذي يعتبر مصدراً للقانون ، محمد حسين منصور ، نظرية القانون ، مفهوم و فلسفة وجوهر القانون طبيعته و خصائص القاعدة القانونية مصادر القانون و تطبيقه ، جامعة الاسكندرية ، دار الجامعة الجديدة للنشر، مصر 2009 م ، ص 303.

16. عبد الباقي ابراهيم ، التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة ، مركز الدراسات التخطيطية و المعمارية ، جامعة عين شمس ، الكويت ، 1968 م ، ص 119.

17. Recommandation Concernant la préservation du bien culturel mis en péril par les travaux publics ou privés, 19 Novembre, Unesco, 1968.

18. Convention Européenne Pour La protection du Patrimoine Archéologique, Londrès, 6/ 6/ 1969.

19. Convention Concernant La Protection du Patrimoine Mondial Culturel Et Naturel 1972.

20. المركز الدولي لدراسة صون و ترميم الممتلكات الثقافية ، نشر (ICCROM) ، العدد 35 ، اكتوبر 2009م ، ص 1.

21. Rapport du Colloque de Nice Patrimoine Architectural Rapport et étude N° 12 , Archéologie et grands travaux , Colloque Européen Organise Par Le Conseil et de L'Europe Et Le Ministère Français de La culture Et de La Communication , Avec Le Coucours du Carrefour Universitaire Méditerranéen , Nice 4- 6 Novembre 1987, Strasbourg 1989, pp,1-4.

22. Rapport du Colloque de Nice Patrimoine Architectural op cit , p 5.

23. Ibid, p 6.

24. Charte international Pour La Gestion du Patrimoine Archéologique, Adoptée par L'icomos et 1990, p 12.

25. *Assemblée parlementaire, la recherche d'un équilibre entre le sauvetage des découvertes archéologiques et les projets d'aménagement, Documen t N° 12285, Juin 2010, p 8.*

26. European préventive archaeology Papers , of the EPAC Meeting , vilnius , 2004, National office of cultural Héritages / Council of Europe,2007, p 57.

27. Loi 2004-44 du 17 janvier 2001 , Relative A L'archéologie Préventive, Article 14.

28. European Préventive Archaeology Papers , Op, cit , p 168.

29. عبد القادر الريحاوي ، المباني التاريخية وطرق صيانتها وترميمها ، منشورات المديرية العامة للآثار و المتاحف ، دمشق، 1972م ، ص 21.

30. شوقي شعث ، المعالم التاريخية في الوطن العربي وسائل حمايتها و صيانتها ، نشر المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت . 2005، ص 87.

31. امير صالح أحمد أمين ، نحو رؤية جديدة لعمليات الحفاظ على التراث لتدعيم هوية المجتمعات الإسلامية في عصر العولمة ، ورقة مقدمة في مؤتمر الازهر الهندسي الدولي التاسع ، 12 – 14 أفريل 2007 م، القاهرة.

32. عبد القادر الريحاوي ، المرجع السابق ، ص 21.

33. هاشم عبود ، و رضا هاشم الموسوي ، ضرورة استخدام الوسائط الرقمية في التوثيق المعماري للمباني التاريخية الليبية ، ورقة مقدمة في ندوة تحت عنوان استراتيجية شاملة لتطوير و صيانة المدن التاريخية ، المنعقد في الفترة 24-1./ 2007م ، في مدينة غدامس ، ليبيا. و ياسر عثمان محرم محجوب ، تأثير التطور العمراني الحديث على التراث العمراني في الامارات ، دراسة حالات دبي ومنطقة العين ، ندوة حول الحفاظ على التراث المعماري في دبي، الامارات العربية المتحدة ، 1995.

34. زيدان عبد الكافي ، المدخل إلى علم الاثار، مؤسسة حماة للدراسات الجامعية و النشر و التوزيع ، الاردن ، 2004م ، ص 84.

35. نص الوثيقة الآتية : *ICCROM et Patrimoine mondial*, Juin 1996

36. نص الوثيقة التالية : *Chartes ,ICOMOS internationales sur la conservation*

37. جمال عليان ، الحفاظ على التراث الثقافي، سلسلة علم المعرفة ، نشر المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 2005، ص 169.

38. Les documents de travail du Sénat, série législation comparée : l'archéologie préventive, N° LC 138, Octobre, 2004

39. www.inrap.fr, Les étapes de L'archéologie préventive.

40. Vilnius, European préventive Archeology, Papers of the epec meeting. P,67.

41. الجريدة الرسمية للجمهورية الزائرية ، عدد (44) ، المواد ، 70، 76 ، ص 14 ، 15.

42. لقد تم تنفيذ علم الاثار الوقائي في الجزائر" ساحة ساحة الشهداء ، و قصر المشور" من خلال القيام بالمشاريع التنموية الكبري.

43. Organisation des nation unies pour L'éducation , La science et La culture , Atelier Euromaghrébin, patrimoine et Aménagement du territoire (L'archéologie préventive), palais de La culture , 26-30 Novembre,2004, Alger , p 71.

44. محمد بن عمر الطمار، تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1984، ص 206.

45. محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المذبوعات الجامعية ، الجزائر، (د.ت)، ص 76.

46. Louis abadie .Tlemcen au passé retrouvé. Edition jaques gandini,1994, P49.

47. Rapport préliminaire de stage archéologique19juin à20huillet, Tlemcen, 2008, p09.

هاجس وحدة الأمة لدى الشيخ البشير الابراهيمي

الاستاذ الدكتور سعودي أحمد
/جامعة عمار ثليجي-الأغواط

طرح الاشكالية

رغم الواقع الاليم الذي كانت تعيشه الجزائر تحت النيران الاستعماري الفرنسي فإن ذلك لم يمنع الجزائريين وخاصة نخبتهم الاصلاحية ذات التوجه العربي الاسلامي من الاهتمام بقضايا العالمين العربي والاسلامي ،تأكيدا لوشائج الارتباط معهما،وتكسيرا للحاجز الذي سعت فرنسا منذ 1830م لوضعه بين الجزائريين وإمتدادهم العربي الاسلامي و فق دعوة فرنسا لفرنسة الجزائرو تنصير مجتمعها.

ومن تلك النخبة البارزة يتجلى لنا إسم الشيخ محمد البشير الابراهيمي، كأقوى الحاضرين المنافحين على قضايا العروبة والحامين لبيضة الاسلام، متجاوزا ماكان يعيشه بلده من إحتلال بغيض آثم ،ومدركا أن نضال الجزائريين ضد الاستعمار وتوابعه ،لايجب أن يخضع لحدود ضيقة،فحمل الشيخ في كتاباته الهم الفلسطيني والمراكشي(المغربي) والطرابلسي(الليبي) والمصري والباكستاني والهندي وغيرها من البلاد العربية والاسلامية، ومن أبرز القضايا التى شغلت الشيخ البشير الابراهيمى نجد قضية الوحدة العربية بإعتبارها صمام امان العرب والمسلمين والسلاح الاقوى في مواجهة الاستعمار الغربي.

فماهو تصور الشيخ لضرورة قيام الوحدة؟وماهي فوائدها ومنافعها على مختلف الاصعدة؟وماهي آليات وخطوات تحقيقها عربيا ؟

- التعريف بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي :

هو محمد البشير الإبراهيمي، بن محمد السعدي، بن عمر بن محمد بن السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي، ولد يوم 13 جوان 1889 م بقبيلة " أولاد براهيم "بقرية" راس الوادي" بدائرة سطيف، وهي قبيلة عربية النسب تنتمي في أصولها إلى الأشراف الأدارسة. نشأ في عائلة جزائرية ذائعة الصيت، توارث أفرادها العلم أبا عن جد منذ أكثر من خمسة قرون ، يقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء البلاد للتعلم والتلقين. هاجر سنة 1911م إلى المشرق العربي، للاستزادة في طلب العلم و المعرفة، و مكث هنالك إلى غاية سنة 1920 م . بعد عودته إلى الجزائر، بذل جهودا كبيرة في التربية و التعليم لاسيما بعد لقاءه مع زميله الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد كانت فلسفته في تكوين النشئ، ترتكز على تربيته على الأفكار الصحيحة والأخلاق الاسلامية الحسنة ومحاربة الشعوذة والابتداع في الدين. كان من الأعضاء البارزين المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي الخامس من ماي 1931م،

في نادي "الترقي" بمدينة الجزائر العاصمة، التي كانت تهدف لاصلاح المجتمع ومواجهة المحتل بالتنوير والتعليم، اعتقلته السلطات الفرنسية في تلمسان يوم 12أفريل 1940م، ثم نفته إلى منطقة "آفلو" بالجنوب الوهراني(حاليا ولاية الأغواط). أختير رئيسا لجمعية العلماء، خلفا للشيخ عبد الحميد ابن باديس المتوفى يوم 16 افريل 1940، أعتقل اثر أحداث الثامن 1945م. أقام في المشرق العربي وبعض الدول الإسلامية، خلال الفترة الممتدة بين 1952 م– 1962 م، طلبا للمساعدة من الأشقاء العرب والمسلمين، لدعم النهضة العلمية والثقافية الناشئة في الجزائر، ولحشد الدعم المادي و المعنوي للثورة التحريرية، بعد اندلاعها في أول نوفمبر 1954م ،فقد لعب دورا بارزا حتى إرتبط إسم االبشير الابراهيمي بالثورة الجزائرية والحركة الاصلاحية في المشرق العربي والبلاد الاسلامية. توفي يوم التاسع عشر ماي 1965 م، عن عمر يناهز السادسة والسبعين عاما. ترك الكثير من المقالات والخطب، والأحاديث والدروس والمحاضرات، التي جمعت تحت عنوان "آثار الشيخ البشير الإبراهيمي"، وهي ذات قيمة أدبية و لغوية، وفكرية وسياسية كبيرة1.

1. ضرورة الوحدة وبواعثها لدى الابراهيمي :

يقول الشيخ البشير الابراهيمي عندما يتطرق لبواعث الوحدة وما يمكن أن يجنيه العرب من ورائها :"أفكر في قومي العرب فأجدهم يتخبطون في داجية لاصباح لها،ويفتنون في كل عام مرة أو مرتين،ثم لايتوبون ولا هم يذكرون،وأراهم لاينقلون قدما إلى امام ،إلا تأخروا خطوات على وراء،وقد أنزلوا انفسهم من الأمم منزلة الأمة الوكعاء من الجرائر."2

فإن اكبر مارزيت به الأمة العربية ،هي إنقسامها إلى دويلات ،ولولا هذا التمزق ماتجرأ الاستعمار على إحتلال بلدانها،وفي تلمسه لأصل هذا الداء الخطير الذي نخر جسد الأمة يذكر الابراهيمي انه بدأ بسيطا في شكل إختلافات دينية ومذهبية ،لينتقل إلى الشؤون الدنيوية،ثم ليتشعب في كل نواحي ومجالات الحياة من سياسية وثقافية وإقتصادية وغيره،ومن أبرز مظاهر هذا الانقسام مايلي :

- تعدد الزعامات السياسية والدينية في العالم العربي والاسلامي
- تصارع هذه الزعامات فيما بينها وإستقوائها بالأجنبي على حساب ابناء بلدنها.
- مقابلة القضايا المصيرية للأمة بكثير من المبالاة والاستهزاء.
- بيع الذمم والضمائر والتفريط في المصالح القومية.

- غياب وحدة عربية ،لاسيما على المستوى الرسمي تكفل توحيد المواقف تجاه القضايا المصيرية.

ويعلق على ذالك تعليقا جميلا فيقول:"ولو كان أجدادنا فهموا شيئا من التضامن الاسلامي ،لما ترك المراكشي والتونسي الجزائر تتخبط وحدها في المقاومة ،ولنبهتهم ضمائره ان هذا الغولان تغذى بالجزائر فسيتعشى بتونس ومراكش،ولكنه كان مستيقضا وكانوا نائمين ،حتى إنتهى الأمر إلى الغاية المحزنة."3

أما بالنسبة لتدوال موضوع الوحدة فنجد ان كثيرا من كتابات وتصريحات البشير الابراهيمي ،تستهجن التساهل في إمرها وحيث البعض عنها على انها مجرد عاطفة ،لاتصلح إلا أن تغذي قصائد الشعراء وأغاني المغنيين وهتافات المتظاهرين،بل يجب ان تكون هاجس العربي من حكامه إلى مثقفيه إلى عامته بشكل يومي،يجعلها من أكبر غاياته وأهدافه،فقدجاء في مقالة للإبراهيمي تحت عنوان"حالة المسلمين"نشرتها مجلة "الأخوة الاسلامية،في عدد 17،لسنة1953م ،مايلي:"لا أحمق منا ،نلقن أبناءنا الخلاف في الدين والدنيا بأعمالنا ونقول لهم بألسنتنا إتحدوا،وإن صالحة يأخذها الابن من أبيه بطريق القدوة ،خير من ألف نصيحة باللسان."4

ويمكن بوضوح أن نتبين من خلال المقولة أسلوب الشيخ الابراهيمي في التربية والدعوة وهو الذي يدعو إلى إعتماد مبدأ الافعال لا الأقوال، ففي كثير من كتاباته ومحاضراته وخطبه القيمة، نجده يستنكر على الأمة ،كثرة شعاراتها البعيدة عن التطبيق،وأن الغرب ماتفوق علينا إلا عندما أعمل العقل وقرن الأقوال بالافعال،ومن ذلك أن الكثير من المثقفين والحكام يكثرون من الحديث عن الوحدة العربية ،إرضاء وإستمالة لسامعيهم فقط من أبناء الأمة العربية ولكنهم في واقع الأمر لايبذلون الجهد المطلوب من أجل ذلك في الواقع ،فإن خلل الأمة ليس في قلة قيمها وندرة مبادئها ،بل في كيفية تفعيل تلك القيم التى هي من صميم التاريخ والمجتمع العربي وعلى رأسها نصرة العربي لأخيه في كل الظروف ،ولكن ما ينقص الأمة العربية بدأ بقادتها ونخبهما هو تفعيل هذه المبادئ والقيم الداعية للوحدة على أرض الواقع في البلاد العربية والاسلامية ،ولذلك نجده بمجرد أن سمع بتوقيع الرئيس المصري جمال عبد الناصر على إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة في فيفري 1958م حتى إنتشى فرحا وهلل للحدث وأرسل برقية تهنئة للرئيس المصري جاء فيها :" هذه الايام التي كنا ننتظرها ونستبطئها،وهذا هو الامل الذي قطعنا أعمارنا فيه أماني بالنهار وأحلاما بالليل،وهذا هوالحدث الذي كان يترقبه المصلحون والهداة إلى الحق والدعاة إلى الخير،وهذا هو الرجاء الذي بقي مترددا في لهوات الزمن إلى أن وجد الهمم التي تفل الحديد فأصبح حقيقة واقعة."5

ونجده في حديث له لاذاعة بغداد سنة 1952م يصرح مايلي :"آن الاوان لأن نتعارف،وآن الاوان لأن تجتمع هذه الأجزاء المتنافرة من الجسم الاسلامي الكبير ،ووجب على كل مخلص لدينه،أن يسعى في جمع هؤلاء الاخوة المتقاطعين في مصلحة غيرهم."6

كماجاء في تقديم له لأحد الكتب مايلي:"لم يمر على العرب عهد كانوا فيه أحوج إلى الاتحاد وجمع الكلمة من هذا العهد،لأن المصائب التي جرها عليهم التفرق كانت المواقع متباعدة الازمنة،بحيث لايحس بواقعها المؤلم جميع العرب إلى أن وقعت واقعة فلسطين،وسود عارها وجوه العرب كلهم،وزاد في إفتضاحهم بها ،أن حلت بهم القارعة وهم مجتمعون،فكانت صرخة خرقت الاذان ونفذت إلى مواقع الاحساس من العرب جميعا."7.

وكما يتضح لنا فان الشيخ الابراهيمي يدرك خطورة تلك المرحلة المظلمة من مراحل التاريخ العربي الاسلامي،التي تمكن فيها الاستعمار الاوروبي ثم الصهيوني من البلاد العربية الاسلامية منذ إحتلال الجزائر 1830م ووصولا إلى ضياع فلسطين بعد وعد بلفور المشؤوم سنة1917م.

وعند تشخيصه لأسباب هذا الاعتلال ،إمتلأت كتابات ومحاضرات الشيخ بذكرها،بدءا من الابتعاد عن قيم الدين الاسلامي الحنيف ووصولا إلى التمزق والتشتت،ليقوم بوصف مجموعة من الحلول التي يراها مناسبة لتجاوز هذا الوضع الصعب وتحرير العالم العربي الاسلامي من الاستعمار ثم الوصول به إلى أسمى الدرجات،فنجده يولى لإتحاد العرب والمسلمين بالغ الاهمية ،بل يعتبر أن كل الحلول المتبقية الأخرى لاقيمة لها إن لم تكن فعلا عربيا إسلاميا موحدا ومجتمعا ،تستخدم فيه إمكانيات الامة البشرية والاقتصادية والحضارية،حتى أن الشيخ إعتبر الوحدة كفارة للذنوب :"إن وحدة مصر وسورياهي كفارة ماحية لما إقترفه العرب من مآثم التفرق والاختلاف،وسيكون لحاق المتخلفين به عملا صالحا كله ،فيا بشرى للسابقين."8

آليات تحقيق الوحدة العربية في فكر الشيخ البشير الابراهيمي:

لاشك أن تحقيق الوحدة العربية في ذلك الظرف العربي الصعب مابين إستعمار يجثم على انفاس دوله ، وجهل يفتك بأبناءه وتخلف إقتصادي يرهن مستقبله،يعد مهمة شديدة الصعوبة،غير انها ليست بالمستحيلة ،إذاحسنت النوايا وتكاثفت الجهود بين القادة العرب وشعوبهم،ويحدد الشيخ البشير الابراهيمي من أجل تحقيق ذلك هناك مجموعة من الآليات والوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف كما يلي:

1- تقارب العرب بشير إتحادهم :

إن الجفاء والصدود من شيم الاعداء وإن أول مايذهب ريح الامة ويفشلها تفرقها وإنقسامها ،وما وجد الاستعمار يوما منفذا

للسيطرة على العرب والمسلمين كما وجد في تفرقهم وتجزءهم وفق سيادة (فرق تسد).

حيث قال في كلمة له بمناسبة زيارة الأمير عبد الله الجابر الصباح إلى مصر سنة1953م : "التقارب بريد الاتحاد، والتزاور دليله، والتحاور بشيره، والتشاور مفتاح بابه،وكل هذا يقع في هذه الايام بين رؤساء العرب وأولي الرأي فيهم ويتكرر وتصاحبه مبشرات مؤذنة بقرب تبلج فجر من الاتحاد تعقبه الوحدة الشاملة التي ترهب أعداء العرب و يقول عنها صهيون عن جزيرة العرب:إن فيها قوما جبارين."9فلا غرو أن الزيارت والتواصل الشعبي مابين أبناء الامتين العربية والاسلامية ،على مستوى الشعوب لم ينقطع في يوم من الأيام ،بين من يطلب العلم ،أومن يحج للبقاع المقدسة ،حتى من يفر من بطش المحتل لحضن أخيه في الوطن والملة، كما فعل الجزائريون بعد إحتلال بلادهم وفشل مقاومتهم لاسيما بعد1847م نحو بلاد الشام ومصر والحجاز.

ولكن الشيخ يلمح إلى أهمية العلاقات الرسمية مابين الحكام من رؤساء وملوك عرب ومسلمين التي تعد مقياسا حقيقيا للتواصل والتقارب بين الدول والشعوب،وإن كان ينتقد إمكانية قيامها على الطقوس الرسمية والدبلوماسية فقط،فالعلاقات مابين أبناء الأمة الواحدة بقدر ماتحمل بعدا دبلوماسيا ،فيجب أن تكتسي أيضا طابع صلة الرحم والتآخي ،فما كان يحدث سابقا في مثل هذه الحالات يقوم على المجاملة والنفاق بدل الإخلاص والمحبة، وعلى الرهبة والتملق بدل الرغبة والصدق. وختم كلامه بالقول إن هذا السلوك الحسن الذي بدر من الحكومة المصرية، باستقبالها الحار لشخصية عربية مرموقة، هو في حقيقة الأمر: "وصل لأرحام كانت مجفوة، والرحم إذا تنبهت أسبابها تأتي بكل عجيب، وتجرف كل ما كان يحجبها من حجب، وما كان يغطي عليها من عقوق وقطيعة"10.

وعلى هذا الأساس، اعتبر مصر أكثر البلدان العربية أهلية لقيادة العرب، فهي التي احتضنت العروبة، ونبت في أرضها لسانها، وتفتقت فيها حضارتها وآدابها، ولكل ذلك فمن الوفاء لها، أن يعترف كل عربي بهذا الفضل والسبق، فيقر لها بالقيادة والزعامة .

وقد برر ترشيحه لمصر لتكون قائدة ومتزعمة للوحدة العربية، بقوله إنه ينبع من التجربة، كونها أكثر من غيرها من الأقطار العربية وحتى الإسلامية، القادرة على لعب هذا الدور، فكل آمال العرب بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة، معلقة عليها لقيادتهم ولم شتاتهم .

وفي هذا الحكم كثير من الصحة، ففي تلك المرحلة كانت مصر هي البلد العربي الوحيد الذي يملك من المقومات خاصة السياسية والفكرية وحتى الجغرافية التي تجعله الأكثر قدرة على لم شتات العرب، ومن ثمة تزعم الوحدة العربية .

2 – إزالة الفوارق الاجتماعية وضرورة توحيد الرأي العام العربي :

لم يقصر الشيخ البشير الابراهيمي في التنديد وكشف مدى الضعف والهوان الذي لحق بالامة العربية الاسلامية جراء تشتتها،لامن قلة عدد،بل لهوانها على نفسها وقبولها الاثم بوضعها ،وقبولها بأن تكون تابعة لامتبوعة ومسودة لاتابعة فيقول :"إن المسلمين كثير ،ولكن التفرق صيرهم قليلا مستضعفين في الأرض،يشقون لإسعاد غيرهم،ويموتون في سبيل إحياء عدوهم،وإنها لخطة من الهوان يأباها الحيوانات العجماء فكيف الخلائق العقلاء."11

يرى الإبراهيمي أن من أولى خطوات و اهم شروط الوحدة، تضافر الجهود من أجل إزالة أقوى أسباب التنافر بين الشعوب العربية ومن تلك النزاعات الفردية التي تعبر عن الانحطاط في مستوى البعض الذي ينسى بأنه ينتمي إلى أمة ضاربة في التاريخ ،صنع امجادها أجيال وأجيال من القادة والعلماء والفاتحين ،لا بفرديتهم بل بإخلاصهم للجماعة والأمة ونبذهم للأنانية والفردية وعلى كل فرد او قطر من البلاد العربية الاسلامية أن يفكر في اخوته الأصعب منه واقعا وظروفا: "يجب أن تتضافر الشعوب العربية على إلحاق أخر قافلتهم بأولها،فإن بين الطرفين بعدا بعيدا في الثقافة والتفكير والاتصال بالعصر وأسباب الثروة وفهم الحياة وأوضاع الاجتماع،وأن هذا التباعد هو أقوى أسباب التنافر بينهم"12

ولاشك أن أول مظاهر اللحاق والتقارب ، هو تقارب الأفكار والأراء وتوحيدها لاسيما في القضايا المصيرية التي تهم الأمة بأسرها ،أو تلك التي تضمن مواجهة موحدة لما تتعرض له من عدوان خارجي على كافة الأصعدة ،فعلى كل عربي المشرق أن يفكر كما يفكر عربي المغرب العربي،وعلى مسلم آسيا ان يشعر كما يشعر مسلم إفريقيا:" ويجب عليهم ان يجتهدوا في تكوين رأي عام في كل شعب عربي ليسهل عليهم تكوين رأي عام أعم يوجه ويرشد وينشا ويخاف ويرجى،فإن بعض الشعوب العربية لم يتكون فيها رأي عام إلى الأن ،ومازالت تسيطر عليها النزعات الفردية التي هي علامة التفكك واساس التخاذل ،وبعض شعوبهم فيها رأي عام ولكنه لم ينضج بعد،والرأي العام لا نضج إلا في ظل الاستقرار والثقافة الهادئة الموحدة "13.وفي ذلك إدراك سابق لعصره لقيمة الأمن الاجتماعي والاستقرار السياسي لتحريك عجلة التقدم ،وتوفير الجو الصحي الخصب الذي تزهر فيه الثقافة ويبدع فيه المبدعون

ويبدو لنا أيضا، انه من المؤيدين لفكرة أن الوحدة العربية يجب أن يكون منطلقها شعبيا وليس فئويا، تشارك فيها جميع شرائح المجتمعات العربية وطبقاتها ومختلف أطيافها، فضلا عن كل التيارات الفكرية والتنظيمات السياسية والاجتماعية

والاقتصادية الموجودة في كل قطر، والوسيلة في ذلك هي الجهد الثقافي الذي يتولى التوعية و تكوين رأي عام في اتجاه التوحيد .

3 – لا وحدة عربية بلا تعريب للظاهر والباطن :

إن تحقيق الوحدة العربية في نظر الشيخ الابراهيمي يستلزم بعض البديهيات التي لامفر منها و لايمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال على جميع الأصعدة سواء لدى العامة أو لدى النخبة المثقفة أو لدى السلطة الحاكمة ،فإن عامل اللغة يعد بلا منازع المحرك الأول، بإعتبارأنه عامل ربط ، ليس بين الدول العربية وحدها بل وبقية دول العلم الاسلامي بإعتبارأنها لغة القرآن التى يتم تداولها على مستوى العبادات الرئيسة في أصقاع العالم الاسلامي ، وإن تعريب كل مناحي الحياة في المجتمع العربي أصبح ضرورة لابدمنها."نحن معشر العرب أصبحنا في حاجة ملحة للتعريب في كل علائقنا بلحياة،فنحن في حاجة إلى تعريب ألسنتنا وأفكارنا وعقولنا وأذهاننا وتصوراتنا ،وأكاد أقول ولباسنا ونعالنا وأسليبب معاشا،وهيئات أكلنا وشربنا ونومنا،وأثاث بيوتنا،فقد عم حياتنا كلها المسخوالقلب ورمانا الاستعمار بالناقرة وهي فساد الأخلاق فينا،فلم يبقى من صفات العرب شيئا"14.

ويضيف الابراهيمي موضحا بان التعريب الشامل هو اكبر غايات كل من يعمل بإخلاص للعروبة، إذ لا يتم على وجهه المطلوب إلا بالعلم وحده، حتى وإن بلغنا فيه درجات متقدمة جدا، فلا فائدة من العلم وحده، إذا لم يتطعم في كل خطوة منه بتربية نفسية، على ما للعرب من شمائل وهمم وبطولات، ووفاء وصدق في القول وتفان في العمل، وتضحيات وأباء و إيثار وكرم وشجاعة. وهذه قيم التربية الحقيقية في الدين الاسلامي والحضارة العربية الاسلامية.

وإن نجاح هذا التعريب بشقيه الجزئي والكلي يجعلنا:"نكون قد حصلنا على نتيجة عجز عنها من قبلنا من الدعاة المصلحين،وأدينا حق الله وحق العروبة على أكمل وجه ،وقمنا بالامانة والعهد كما امر الله،ومهدنا للقومية العربية الكاملة بإزاحة العقبات من سبيلها، وجمعنا ما فرقت السياسة والسياسيون منا والاجانب وأنفهم راغم"15

4 – استقلال الأمة العربية يبدأ في فكرها وأدبها قبل أقتصادها :

كان الشيخ البشير الإبراهيمي، خلال المؤتمرات الأدبية والمنتديات الفكرية واللقاءات العلمية،شديد الحرص إلى دعوة الأمة على ضرورة استقلالها أدبيا وفكريا ولغويا، أكثر من حرصه على الجوانب السياسية والاقتصادية، التي لا تبرز على نحو كاف خصائص الأمم و ومميزات الشعوب، لان الذي يبرزها ويستعرضها أكثر أمام الأمم الأخرى، آدابها وأفكارها و لغاتها ."16

ومنه نرى كيف ان الشيخ البشير الابراهيمي يصر على تفعيل كل الوسائل التى من شأنها تحقيق الوحدة العربية ولعل من أبرزها الأدب العربي "وقضية القومية العربيةتستمد أقوى حججها من واقع الأدب العربي وسلطانه ،ووحدة الأمة العرلابية تتمثل في وحدة هذا الأدب بصورة عملية ... وقضية القومية العربية ليست ميدان سلاح او حرب،وإنما هي ميدان عقل وفكر، والأديب في ميدان الفكر كالقائد بين يدي المعركة ،يوجهها بخبرته ويديرها بحكمته"17

وعلى ضوء ذلك، نستنتج أن الشيخ الإبراهيمي، قد راهن كثيرا على دور الأدب والأديب العربيين في إحياء القومية العربية وتمتين أواصرها من جهة، وفي الدفع بمشروع الوحدة العربية في مساره الصحيح من جهة أخرى، انطلاقا من مسلمة مفادها انه إذا كان الأدب يمثل : ((المرأة العاكسة التي تعكس عليها حضارة امة بجميع مقوماتها النفسية والعقلية والاجتماعية))، فان الأديب هو الذي يتحمل مسؤولية الحفاظ على الصورة الخالدة لامته .18

5 – الوحدة الشاملة علاج ناجع لكل الامراض :

إن أسوا ما يمكن أن يصيب أمة بعينها هو تمزقها إلى كينات صغيرة وضعيفة ،تخدم أهواء داخلية لطالبي السلطة الضيقة والمصالح الفردية والأسرية كما هو الشأن لدى بعض الأنظمة العربية على حساب المصلحة القومية ،ولاشك ان هذا التجزؤ والتفتت هومن خدم المحتل عندا إستفرد بهذا الوطن العربي عند تحوله إلى كيانات قطرية صغيرة وضعيفة يستقوى بعضها على البعض بإستدعاء الأجنبي .

ولذلك لم تكن العروبة لدى الابراهيمي مجرد جنسية يحملها الفرد"ففي كثير من الأحيان نجد الكاتب يتجاوز مجرد التعبير الفطري عن الانتماء الشخصي والوطني والمغربي، إلى العروبة إلى التشديد على وحدة المشرق والمغرب،وتضامن الأمة العربية في السراء والضراء،وتناديها في الملمات، وتجاوبها مع بعضها البعض في الظروف العصيبة... حيث يقول منوها بهذه الأخوة العربية:

رعى الله من عرب المشارق أخوة تنادوا فدوى صوتها في المغارب

توافوا على داع من الحق مسمع ووفوا بنذر في ذمام الأعارب

هموا رأسمالي،لانضار وفضة وهم ربح أعمالي ونجح مـآربي

وهم موردي الأصفى المروى لغلتي اذا كدرت(أم الخيار) مشاربي19

دعا الشيخ البشير الإبراهيمي إلى نبذ الانقسام الحالي، واستبداله بالوحدة الشاملة لجميع أجزاء البلاد العربية، وفي هذا يتساءل كيف يتسنى ذلك، وقد افرز ذلك التقسيم أوضاعا جديدة وممالكها وملوكا؟، فمن الصعب جدا تغيير الممالك، ومن الأصعب حرمان الملوك من لذة الملك ؟.

ويتعجب الشيخ الابراهيمي من عجزالأمة العربية عن التوحد وهي التي تملك الكثير

من المقومات الحضارية والبشرية والإقتصادية والجغرافية،فنجده يتساءل عن المانع من أن تكون دولة واحدة ؟، في وجود الأمة الواحدة التي لا تحتاج في غالبيتها، إلى ما قام به اليهود من جمع لشتاتهم من مختلف أنحاء العالم، المتباينة أعراقهم وأفكارهم و ميولاتهم، ولا تحتاج إلى وسيط محتل للتعمير، كلجوء الصهاينة إلى الاستعمار البريطاني. فمن الممكن جدا تحقيق الحلم في أقصر زمن، شريطة وجود قادة يتحلون بالإرادة والعزيمة اللازمين لذلك .

ويجيب على تساؤله بالقول إن البداية تكون بما هو ميسر و متوفر، وهو توحيد التعليم ومناهجه والتجارة وشؤونها، وإزالة الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، واعتبار المعتدي على جزء منها معتديا على كامل الأجزاء، وعدو الشعب العراقي هو عدو الشعب المغربي، وهكذا مع أخذ العبرة من ايطاليا في ضم أجزائها، وألمانيا، وفرنسا التي لم يهدأ لها بال في قضية " الألزاس و" اللورين" ، وأيضا من انجلترا الشبيهة بجزيرة العرب، والتي لو أن دولة اعتدت على جزء منها، لتسارع الانجليز في كل مكان لاسترداده، فلما لا يفعل العرب مثل ذلك ؟

ومن المنطقي بالنسبة إليه،ان يكون لهذا الوضع من التشرذم والتفرقة،آثار سيئة وعميقة على المجتمع،"حيث إتسعت الفجوة بين العالم العربي الاسلامي،وبين العالم الغربي الذي أضحى رائدا في العلوم والتكنولوجيا ،بينما مازلت العروبة بين إثنين ،واحد لاتتجاوز لسانه ووأخر يستحي من الانتساب لها مفضلا عنها جنسيات الغرب وأوطانه،وحتى العروبة كلغة باتت مهددة بالرطنات الأعجمية التي غمرتها ، واللهجات التي مزقتها،واللهجات الأجنبية التي نافستها،عن طريق أبناءها من ضعفاء الهمم والعزائم."20.

وهكذا دافع البشير الابراهيمي طيلة حياته المليئة بالجهاد والنضال،عن خيار الوحدة العربية بإعتبارأن العصر الذي نعيشه عصر التكتلات والاتحاد ولا عيش فيه إلا للأمم القوية.

وأن حتمية طرد الاستعمار لابد وأن تمر عبر توحيد الأمة لمواقفها وجهودها أمام هذه الهجمة الاستعمارية الصهيو –أوربية بعد الحرب العالمية الأولى، والصهيو– امريكية بعد الحرب العالمية الثانية فهاهو يؤكد:"إذا كان الاستعمار على درجة كبيرة من القوة ،كما يتصور العرب،فإنهم في الحقيقة إنما يزيدونه قوة بتخاذلهم وتفرقهم،وتطاحن هيئاتهم،وإضاعة اوقاتهم في الجهل الفارغ...وهيهات أن يحي وطن أويستقل بالهتافات المتوددة من الحناجر ،بين يحيا فلان ويسقط فلان."21

خاتمة :

مما سبق لا نجد إلا أن نصف الابراهيمي بأنه كان من أكثر المثقفين الجزائرين والعرب المنافحين والمدافعين عن العروبة الحقة ، كيف لا وهو القائل في مقال له

تحت عنوان (فلسطين ،واجباتها على العرب مايلي :"كاتب هذه السطور عربي ،يعتز بعروبته إلى حد الغلو، ويعتد بها إلى حد التعصب، ويفخر بأبوة العرب له إلى حد الإنتخاء"22

كما يجدر بنا القول :"على ان التأكيد على اللحمة القومية ووحدة المصير بين المشرق والمغرب هي المحور الاساسي لكل كتابات الابراهيمي،إذ قل ما نجد مقالا من مقالاته لا يؤكد على هذه الناحية أو يشير إليها من قريب أو بعيد،سواء في كتاباته التي تتناول القضايا الجزائرية المحلية،أو كتاباته التي تعالج الشؤون العربية بصورة عامة ،مما حدا ببعض المستشرقين الاستعماريين ومن يواليهم في نزعتهم يوجهون غليه تهمة الشعوبية والتعصب العرقي والتطرف الديني في محاولة لتشويه المقاصد النبيلة التى كرس لها قلمه وفكره وجهاده وهي تهمه دفعها الكاتب عن نفسه في قوله :"هذا القلم ليس شعوبي السن،ولا غمس شقاه في منكر ،ولاتحلبت ريقته منكر التفريق".23

ولكن ما يميز البشير الابراهيمي عن غيره في هذا المجال هو أنه إعتبر أن الوحدة العربية والقومية العربية تختلف كثيرا عن القوميات العربية والوحدات التي شهدتها بعض الدول الأوربة مثل إيطاليا اوالمانيا (1870-1871م) قد قامت بالقوة وحد السيف فإن الوحدة العربية يجب أن تتحقق بشكل أكثر حضارية عبر مجالات اللغة العربية والأدب العربي وبأيدي أبناء الأمة من طليعتها المثقفة الواعية ،التي يجب ان تقود الجماهير نحو الأمل الكبير بتوحد العرب والمسلمين.

ومن الواضح أن الابراهيمي يجعل من الوحدة الحل الأفضل لكل المشاكل والتحديات الكبرى التي تواجه الأمة العربية في عصره،بدأ بالاستعمار ومرورا بالجهل والتخلف،حتى أنه أقسم أن الحل الانفرادي لاجدوى منه فقال :"أما والله لن نفلت من مخلب الاستعمار فرادى ،ولن نفلت منه ،إلا يوم نصبح امة واحدة تلقى عدوها برأي واحد،وقائد واحد،وقلب واحد،فغن لم نفعل فلا نلم الاستعمار ،ولنلم أنفسنا."24

الهوامش

1 للمزيد أنظر،الابراهيمي، من أنا ، مجلة الثقافة ،عدد87،ماي-جوان1985،ص11. -

2 محمد البشير الابراهيمي ،معنى العيد ،آثار محمد البشير الابراهيمي،جمع وتقديم ،أحمد طالب الابراهيمي،ط1،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997،ص482.-

3الابراهيمي ،اتحاد المغرب العربي الكبير،الأثار ،ج302،4. -

4 - محمد دراجي ،المشرق العربي،(مواقف الامام الابراهيمي)،عالم الافكار ،الجزائر ،2009 ،ص 104.

5-دراجي مرجع سابق،ص129.

6الابراهيمي،"تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم"،الاثار،ج4،ص97. -

7،ص145. محمد دراجي ،مرجع سابق-

8 الابراهيمي،ميلاد الجمهورية العربية المتحدة،الأثار ،ج5،ص215.

9 الابراهيمي،تقارب العرب بشير إتحادهم،الأثار ،ج4،ص243.-

10- نفسه.

11 الابراهيمي، أخوة الاسلام"،الأثار ،ج4،ص60.-

12الابراهيمي،كلمة لمجلة الاذاعة المصرية ،الاثار ،ج4،ص376 -

13 نفسه.-

14 الابراهيمي، إلى مؤتمر التعريب بالرباط،الآثار ،ج5،ص266.-

15 نفسه.-

16 مقدمة محمد الهادي الحسني للكتاب ،الاثار ،ج5،ص26.-

17 الابراهيمي،حرية الأديب وحمايتها ،الآثار ،ج5،ص211.-

18،الجزائر ،1983م،ص26. عبد الله شريط ،تاريخ الثقافة في المشرق والمغرب،ط1،م و ك-

19 محي الدين صابر،محمد البشير الابراهيمي والدعوة القومية ، الثقافة ،عدد87 ،ماي- جوان1985،ص112.-

20- الابراهيمي،مشكلة العروبة في الجزائر ،الأثار ،ج5،ص150.

21الابراهيمي،اتحاد المغرب العربي الكبير ،الاثار ،ج4،ص302.-

22 الابراهيمي ،فلسطين واجباتها على العرب ،الأثار ،ج3،ص452.-

23 محي الدين صابر،محمد البشير الابراهيمي والدعوة القومية ،مجلة الثقافة،عدد87،ماي-جوان 1985م ،ص113.-

24الابراهيمي،الاستعمار والشيطان ،الاثار ،ج5،ص95.-

الشرق والغرب عبر التاريخ: بين التنافس والتثاقف

د. عبد اللطيف الركيك

مقدمة:

الشرق والغرب هما مجالان جغرافيان عرفا عبر التاريخ تحولات حضارية كبرى كان لها تأثير كبير على تطور المشترك الحضاري الإنساني. كما أن الشرق والغرب مفهومان غير ثابتين في دلالتهما باعتبار اختلاف الكيانات الحضارية بالمجالين عبر التاريخ. علاقة الشرق بالغرب قديمة، وترجع إلى حقب جد موغلة في التاريخ. وإذا كان الغالب في هذه العلاقة في عصرنا الراهن هو الصراع، فإن إرهاصات هذا الشد والجذب في العلاقة بين المجالين تعود إلى فجر التاريخ. وقد تراوحت العلاقات الحضارية بين هذين الكيانين الحضاريين منذ فجر التاريخ بالتنافس تارة والتثاقف تارة أخرى. وإذا كان السائد في مقاربة الموضوع هو التركيز على تطورات العلاقة بين المجالين، خاصة خلال العصر الحديث، فإننا نقترح في هذه المقالة العودة لسبر أغوار هذه العلاقة خلال الفترة القديمة من التاريخ، وذلك سعيا لمحاولة فهم أصول العلاقات الحضارية بين الجانبين، ومعرفة إسهام كل طرف فيما نسميه ب"المشترك الحضاري الإنساني"، مركزين في مقاربتنا على تيمتي: "التنافس" و"التثاقف".

I-الشرق والغرب خلال العصر القديم:

أ-إسهامات الشرق القديم في الحضارة الإنسانية:

أمسك الشرق بمشعل الحضارة في العالم القديم منذ فجر التاريخ على حساب الغرب، وشكل ورشة حضارية حقيقية بظهور كيانات حضارية كبيرة بمقاييس العالم القديم. ولاتزال آثار تلك الحضارات الشرقية ماثلة إلى اليوم تسحر ألباب الناس في عصرنا الراهن. فقد تركت لنا الحضارة الفرعونية لوحدها ما يمثل اليوم ما يقرب ثلث آثار العالم، كلها منشئات معمارية عملاقة تشهد بضخامتها وإتقانها وبرسوماتها ونقوشها على حضارة رائدة في ابتكاراتها وعمائرها وفنونها، حيث أذهلت العالم والعلماء بفكرها وعلمها، وأظهرت جانبا مما بلغه الشرق القديم من ازدهار حضاري. بينما يكتنز العراق آثارا ضخمة ومعالم تشهد على ازدهار حضارات شكلت منطلقا لتطور الحياة البشرية في شرق العالم القديم وغربه. وقد كشفت الحفريات الأثرية في سوريا عن بقايا متنوعة ومعالم تبرز تتابع الحضارات التي ساهمت بدورو افر في التطورات الحضارية في الشرق القديم، بحيث لا تكاد تخلو منطقة من المناطق سورية من المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات زمنية مختلفة،

والتي يزيد عددها على 4500 موقع أثري هام.

بلغت حضارات الشرق القديم أوج ازدهارها وقدمت للعالم القديم الكثير من الابتكارات التي خدمت المشترك الحضاري الإنساني، وجعلت الشرق مركز إشعاع حضاري بامتياز، ما جعل مركز الثقل الحضاري العالمي يميل منذ فجر التاريخ لصالح الشرق القديم. وفي المقابل انتصبت المجالات الحضارية الأخرى في العالم القديم كمجالات مستقبلة ومستلهمة ومتأثرة بحضارات الشرق القديم. ففي العراق، ومنذ الألف الخامس ق.م، ظهرت إحدى أقدم الحضارات الإنسانية، وهي الحضارة السوموية على دلتا الرافدين، حيث قدم بناتها ضروبا من الإبداع من خلال إنشاء المدن وتطور العمارة عبر تشييد القصور والمعابد وبناء السدود وحفر قنوات المياه، كما تقدم فن التعدين وسبك المعادن، وقطع فن النحت شأوا بعيدا من التقدم. وإلى السومريين تعود أولى المحاولات الفلسفية الجريئة الخاصة بأصل الكون والوجود والأساس في مكونات المادة. وإلى هؤلاء أيضا ترجع أعظم مساهمة في المشترك الحضاري الإنساني من خلال ابتكار مرحلة مهمة من مراحل تطور الكتابة، ويتعلق الأمر بالكتابة المسمارية. وفي نفس المجال الجغرافي تقريبا ازدهرت الحضارة الأكادية في أواخر الألف الثالث ق.م، التي عرفت تقدما كبيرا في العمارة والفنون. ومنذ الألف الثالث ق.م ظهرت بالعراق أيضا الحضارة الأشورية التي تميزت بتوسعات مجالية كبيرة جعلت الآشوريين ينشؤون إحدى أكبر الإمبراطوريات في تاريخ الشرق القديم. بعد سقوط إمبراطورية الآشوريين خلفتها في العراق القديم الحضارة الكلدانية التي ساهمت بدورها في استمرار الإشعاع الحضاري للشرق القديم، وإليها تعود حدائق بابل المعلقة، وهي إحدى عجائب العالم القديم السبعة. كما شهدت المنطقة بروز إحدى أهم الحضارات الشرقية، وهي الحضارة البابلية منذ القرن 18 ق.م، التي تميزت بازدهار المعارف والعلوم المختلفة، وإليها تعود إحدى أقدم التشريعات في تاريخ الإنسانية والتي تعد من أولى الشرائع المتكاملة في العالم حيث تجمع بين القانونين المدني والعقوبات فضلا عن الأحوال الشخصية، ويتعلق الأمر بقانون حمورابي. وفي العصر البابلي حدث تطور مهم في العلوم والمعارف البشرية، حيث انتقلت من أطوارها العملية إلى طور التدوين والبحث، بحيث يصح أن نرجع بداية ظهور العلوم البشرية الحقة إلى هذا العصر. كما عرف البابليون أسسا مهمة في خواص الأعداد وكذلك في العمليات والطرق والمعادلات الجبرية الأساسية، وذلك قبل الإغريق بفترات زمنية. ويرجح أن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك الرياضي، وبدؤوا يدونون ملاحظاتهم وإرصاداتهم أو

حساباتهم الفلكية منذ العهد الأكادي. كما تميز العصر البابلي بالاهتمام بالعلوم الطبيعية، ولا شك أنهم توصلوا إلى مقدمات مهمة في علم الفيزياء.

في مصر، ومنذ الألف الثالث ق.م، ساهمت الحضارة الفرعونية بقسط كبير في تطور الحضارة الإنسانية، ومارست تأثيرا كبيرا على باقي شعوب العالم القديم. فقد برع المصريون في فن العمارة وهندسة البناء بشكل كبير، والدليل على ذلك هو بناء الأهرامات بطرق هندسية متقنة. كما كان للفراعة دور كبير في ظهور الكتابة من خلال استعمال الكتابة الهيروغليفية، وبها دونوا أساطيرهم الدينية وما توصلوا إليه من تطور في شتى العلوم على ورق البردي وباستعمال الحبر. كما توصل قدماء المصريين في العصر الفرعوني لابتكار مفاهيم أولية في الحساب والهندسة، والطب، وتطوير علم الفلك، حيث توصلوا إلى تقويم خاص بهم حسب ملاحظاتهم للشمس والنجوم. وعرفت الفنون والحرف والتقنيات تقدما كبيرا بظهور تقنيات جديدة، وقد كان للمصريين-قبل الفينيقيين-فضل كبير على العالم باختراع الزجاج. وقام قدماء المصريين بالعديد من الأعمال الإبداعية المبتكرة والمذهلة للعالم سواء في التحنيط أو الموسيقي والنحت والأدب والرسم...إلخ. كما برع المصريون القدماء في الأدب الديني الذى تناول العقائد الدينية ونظرياتهم عن الحياة الأخرى وأسرار الكون والأساطير المختلفة للآلهة...

ومنذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ظهر على مسرح الشرق القديم شعب آخر تسلم مشعل الحضارة الشرقية القديمة و أثراها بإبداعاته و ابتكاراته الخاصة، ويتعلق الأمر بالشعب الفينيقي الذي استوطن الشريط الساحلي السوري اللبناني. لقد نقل الفينيقيون بحكم موقعهم في شرق المتوسط، وبسبب أعمالهم التجارية التي مكنتهم من التواصل مع شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، إبداعات حضارات الشرق القديم إلى مستوى "العالمية"، وجعلوا إرث حضارات الشرق القديم في متناول الحضارات الأوربية القديمة، ولا سيما الإغريقية منها. لقد أحدث الفينيقيون نقلة غير مسبوقة في التاريخ في مجال التجارة والإنشاءات البحرية من خلال بناء الموانئ وصناعة السفن وتجهيزها، الأمر الذي جعل من هؤلاء المشارقة سادة البحار في العالم، متفوقين بذلك على معاصريهم من الإغريق. فقد انطلقوا بسفنهم وجابوا سواحل البحر الأبيض المتوسط، وتجرؤوا قبل البرتغاليين والإسبان بقرون طويلة على اقتحام مجاهيل المحيط الأطلسي بعد تجاوزهم أعمدة هرقل الفاصلة بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي والنزول بسواحل المغرب القديم. لقد تمكن هذا الشعب الشرقي القليل العدد من تحقيق

إنجازات سوف يخلدها التاريخ وإلى الأبد، ولعل أبرزها على الإطلاق هو اختراع الكتابة الأبجدية وتقليص عدد الرموز الكتابية، التي كان قد توصل إليها السومريون والمصريون قبلهم، إلى عدد محدود من الحروف ذات صورة سمعية محددة، وهو الصنيع الشرقي الذي تلقفه وطوره الإغريق بعدما اقتبسوه من الفينيقيين. ويعود الفضل إلى الفينيقيين كذلك في تطوير الكثير من عناصر الحضارة في صورتها التأسيسية مثل علم الفلك والتعدين والصناعات الدقيقة والكمالية، هو ما شهد به الكتاب الإغريق القدامى الذين عددوا الكثير من الجوانب الحضارية التي أخذها الإغريق عن الفينيقيين.

2-النبوغ الحضاري في الشرق والانطلاقة الحضارية في الغرب خلال الفترة القديمة:

في الوقت الذي كانت تسطع فيه أنوار الحضارة الأكثر تقدما من الشرق القديم، كانت حضارات أوربا منكمشة على نفسها، وهي على كل حال ليست بأعرق من حضارات الشرق القديم. ففي الوقت الذي كانت تتقدم فيه حضارات الشرق القديم، كانت حضارة شرق أوربا، ونعني بذلك حضارة بلاد الإغريق أقل إشعاعا. فخلال الفترة المتراوحة بين منتصف الألف الثالث ق.م والألف الأول ق.م كانت بلاد الإغريق تعرف نشوء أنوية حضارية مثل الحضارة الكريتية والمينوية، قبل أن تتعرض لانكسار كبير نتيجة هجوم القبائل الدورية خلال القرن 12 ق.م. وخلال هذه الحقبة المبكرة من تاريخهم عرف الإغريق القدماء استعمال كتابة على شكل صور، كما أحرزوا تقدما في ميدان الإنشاءات البحرية، وفي الفن المعماري. وفي هذه الفترة بدأت صلات مبكرة بين الغرب والشرق القديمين من خلال العلاقات التجارية بين الإغريق من جهة ومصر وفينيقيا وشواطئ آسيا الصغرى من جهة ثانية. ولم تظهر الحضارة الإغريقية بسماتها المميزة وبإبداعاتها المؤثرة إلا منذ الألف الأول ق.م من خلال نظام الدولة المدينة. خلال هذه الفترة المبكرة من التاريخ الإغريقي حدث تلاقح مع حضارات الشرق القديم متجسدة في الحضارة الفينيقية، وقد طغى على هذا التلاقي الشرقي والغربي طابع سلمي وتبادل حضاري. فعلى امتداد ستة قرون ظل خلالها الفينيقيون المشارقة يجوبون ضفاف البحر المتوسط لم تحدث أي مواجهة بين الجانبين. وذلك لأن الفينيقيين كانوا تجارا وبحارة مسالمين كان غرضهم التبادل التجاري، ولم يكونوا يستهدفون التوسع المجالي في البلاد التي ينزلون بها بسفنهم. وعلى العكس، فقد رحب الإغريق بالحضارة الشرقية الفينيقية لما كانت تحمله تلك الحضارة إلى بلادهم من ابتكارات حضارية تعكس باكورة حضارات الشرق القديم، فلعل

هذا ما يفسر سماح الإغريق للفينيقيين بالاستقرار بعدد من الجزر الإغريقية خلال مرحلة التوسع التجاري الفينيقيين، حتى أن أول الجزر التي نزل بها الفينيقيون في حركتهم نحو الغرب كانت جزرا إغريقية مثل قبرص وكريت ورودس والسيكلاد وغيرها. وخلال العصر الكلاسيكي من تاريخ الإغريق(القرن 5 ق.م) حدث أول صدام مباشر بين حضارة الغرب الأوربي في صيغتها القديمة وحضارات الشرق، وذلك من خلال اندلاع حروب بين الإغريق وإحدى الشعوب ذات المنشأ والتأثير الحضاري الشرقي، ويتعلق الأمر بالقرطاجيين. وكان الصدام مع قرطاج نتيجة للتنافس على النفوذ التجاري بغرب البحر المتوسط وقد امتد هذا الصراع الحربي عبر القرنين 5 و4 ق.م، وهو الصراع الذي انتهى إلى تقسيم النفوذ على الجزيرة بين الإغريق والقرطاجيين. كما تجلى الصراع بين حضارة أوربا القديمة وكياناتها السياسية وحضارات الشرق فيما يعرف بالحروب الميدية التي خاضها الإغريق ضد الفرس الميديين خلال القرن الخامس ق.م بعد عزو الفرس للمدن الإغريقية بآسيا الصغرى. وبتمكن المقدونيين من السيطرة على بلاد الإغريق خلال القرن 4 ق.م انطلق شوط آخر من الصراع بين حضارات الشرق والحضارة اليونانية، وهو الصراع الذي برز أكثر في عصر الإسكندر المقدوني من خلال غزوه للشرق القديم، حيث تمكن من إخضاع المنطقة والوصول إلى الهند. بعد وفاة الإسكندر المقدوني بدأت تظهر في الشرق معالم التفاعل بين حضارة الإغريق وحضارات الشرق القديم في صيغة عرفت باسم الحضارة "الهيلينستية" في إشارة إلى المسحة الإغريقية التي انضافت إلى حضارات الشرق القديم خلال هذه الفترة.

ورغم طغيان التنافس والصراع الحربي على العلاقة بين الشرق القديم وبلاد الإغريق، فقد قامت بين الجانبين منذ فترة مبكرة تفاعلات حضارية سلمية مهمة. فمعلوم أنه في الوقت الذي كانت حضارات الشرق القديم تعرف أوج ازدهارها كان الإغريق يتلمسون طريقهم نحو تجسيد حضارتهم الخاصة، وفي نفس الوقت ينتظرون صنيع الشرق لاقتباسه والبناء عليه. فلعل هذا ما حصل من خلال اقتباسهم لعدد من مظاهر حضارة الشرق القديم. غير أن بلاد الإغريق قد تمتعت بدورها بأساس حضاري متين أهلها للتفاعل الإيجابي مع عناصر حضارة الشرق القديم من خلال استلهام بعض الجوانب الحضارية الشرقية وتطويرها. ولعل اقتباس الإغريق للأبجدية الفينيقية الشرقية خلال القرن 14 ق.م يمثل نموذجا لهذا الاتجاه. ويمكن التأكيد على أن فترة التلاقح المخصب الذي حدث بين الفينيقيين المشارقة والإغريق كان يمثل بداية لتحول هام في بلاد الإغريق سوف يسفر عن تحول موازين القوة الحضارية

من الشرق نحو الغرب. ذلك أن تاريخ أفول حضارة الفينيقيين في الشرق يمثل تحديدا تاريخا لبداية الانطلاقة الحضارية للإغريق في شتى المجالات. ولعل أكثر ما ساهم به الإغريق في المشترك الحضاري الإنساني منذ هذه الحقبة هو تطوير أنظمة الحكم وظهور القوانين والتشريعات. فضلا عن التراث الحضاري الهائل الذي أنتجه الإغريق في العلوم والفكر والفلسفة والأدب...

3-بداية انهيار حضارات الشرق القديم وبروز حضارة الغرب:

إن السؤال المحير الذي يلازمنا وبحثنا فيه أكثر من مرة هو: لماذا انهارت حضارات الشرق القديم بتلك السهولة؟ ولماذا توقفت عجلة البناء الحضاري في الشرق القديم؟ وكيف تبخرت منجزات الشرق القديم دون أن يقع البناء عليها وتطويرها؟ هل استنفذت حضارات الشرق القديم قدرتها على التجدد والاستمرارية؟ أم أنه يمكن فهم ما جرى انطلاقا من قاعدة السنن الكونية في نشوء وسقوط الحضارات والامبراطوريات؟

نستطيع القول بأن القرن 6 ق.م قد شكل مرحلة تحولات هامة في العالم القديم. ففي الوقت الذي صعد فيه نجم الإغريق حضاريا في الجزء الشرقي للبحر المتوسط كانت حضارات بلاد ما بين النهرين تتراجع، في حين كانت حضارة مصر الفرعونية تتوارى في ظروف غامضة، كما خفت بريق الحضارة الفينيقية وتراجع الفينيقيون خلف أسوار مدنهم منذ القرن 6 ق.م في انتظار هجمة الإغريق المقدونيين بزعامة الاسكندر المقدوني مع نهاية القرن 4 ق.م.

يبدو أن الزلازل السياسية التي عرفها الشرق القديم كانت سببا في الانتكاسات التي آلت إليها حضارة المنطقة. فقد عرف الشرق القديم اندلاع صراعات في أكثر من منطقة بين الكيانات السياسية المختلفة أدت إلى تمزيق الكيانات السياسية التي كانت ترعى حضارات الشرق، خاصة بعد تزايد أطماع الإمبراطورية الفارسية الذي جعل المنطقة تقع بين كماشة الفرس والإغريق ثم الرومان والبيزنطيين في مراحل لاحقة. يضاف إلى ذلك أنه في الوقت الذي انطلقت فيه الإغريق نحو الفكر الفلسفي والعلمي بدأ الشرق يعرف نكوصا على مستوى العقلانية، وساد اتجاه نحو المحافظة على الإرث الحضاري الشرقي القديم والانكفاء على الذات الحضارية ومحاربة التجديد والانغماس أكثر في غياهب الفكر الأسطوري والخرافة. ولعل هذه السمة تعد سمة شرقية بامتياز ستتكرر في تاريخ الشرق خلال الحقب الموالية كما سنذكر لا حقا. ارتكز هذا التوجه الفكري المشرقي على نوع من المحافظة التي عكست نظرة للحياة تقوم على تقديس الاستقرار وتعتبره غاية تطلب لذاتها. ولا نستبعد أن ضعف حركة

التمدين في الشرق قد كان سببا في تراجع الحضارات الشرقية، وذلك لأن المدن هي منبع الأفكار الجديدة لأنها تجلب خبرات مختلفة وتجارب إنسانية متعددة. وعلى العكس من ذلك، فإن غلبة الاستقرار الريفي في الشرق القديم ربما أدى إلى طغيان المحافظة والرغبة في الاستقرار على نفس النموذج الحضاري ومعادة التطوير والتغيير. كما أن النظم السياسية الشرقية القديمة تمثل على الأرجح سببا في انتكاسة حضارات الشرق القديم، فهذه الحضارات ارتبطت في الواقع بكيانات سياسية كانت ترعاها أكثر من أي شيء آخر، كما كانت تقوم على مركزية مفرطة جعلت حضارات المنطقة ترتبط أكثر بحكام وملوك كان يقع تقديسهم وإكسابهم صفات إلهية، هذا في وقت بدأت تتطور فيه الأنظمة السياسية في بلاد الإغريق وتتجه نحو الديمقراطية تكريس الإرادة الشعبية وتنظيم الحكم عبر الدساتير، وإن لم تكن هذه التحولات السياسية في صيغتها المثلى. كما أن المشارقة لم يُنضجوا ويطوروا ما توصلوا إليه من عناصر حضارية، بل حافظوا عليها بصيغتها البدائية. فمثلا لم يطور المصريون القدماء علم الهندسة والرياضيات بالرغم من تفوقهم في بناء الأهرامات. فلعل حضارات الشرق القديم قد قامت أساسا على تطبيقات عملية، ولم تتعد ذلك إلى التنظير العلمي وإنتاج الأفكار والنظريات.

لقد كانت حضارات الشرق القديم ممركزة حول فكرة الدين الذي يجسده الحاكم، وكان لهذا التوجه حرس يحميه، الشي الذي جعل حضارات الشرق القديم مغرقة في الخصوصيات المحلية وغير قادرة على اقتحام المجالات الحضارية الأخرى والتأثير فيها. إن الأمر كان يتعلق بمنظومات حضارية شرقية منغلقة، وهذا ما جعلها تحمل بين طياتها عوامل فنائها. إن ما ميز تلك الحضارات في العصر القديم، لا زال ساريا المفعول في ثقافة الشرق حتى أيامنا هاته، هو التعلق بعناوين مثل: الاستقرار، الثبات، المحافظة، معاداة التغيير، الإصرار على العيش بنفس الطريقة ولو لآلاف السنين...

وبينما طغى الفكر الأسطوري في الشرق القديم، وترسخت المحافظة، وتعطلت القدرة على الابداع والتطوير، انطلق الإغريق نحو آفاق حضارية رحبة. صحيح أن الإغريق استفادوا على ما يظهر من بروز بعض الأسس البسيطة في الرياضيات والفلك والجغرافيا في بلاد الرافدين ومصر، ولكنهم ذهبوا بعيدا في تطويرها وإخراجها في صورة أكثر نضجا. فقد تجلى الإبداع الحضاري الإغريقي في الاهتمام بالأدب والشعر (هوميروس) والفنون والمسارح والنحت والزخرفة والطب (أبوقراط) والرياضيات (طاليس) والفيزياء (أرخميدس) والفلسفة (أفلاطون) والتاريخ (هيرودوت) والرياضة (الألعاب

الأولمبية). كما طوّروا علم الجغرافيا والفلك ورسموا خريطة العالم القديم، وتوصلوا إلى كروية الأرض...

كان ينبغي انتظار منتصف القرن 8 ق.م لكي تنبعث من قلب إيطاليا القديمة مدينة ستتولى بناء إحدى أبرز حضارات الغرب الأوربي، ويتعلق الأمر بمدينة روما. غير أن الحضارة الرومانية لم تصل إلى ذروة قوتها إلا بعد مرور ما يقرب من قرنين على تأسيس روما، حيث انشغل الكيان السياسي الذي أوجدته الحضارة الناشئة بالحروب داخل شبه الجزيرة الإيطالية. ولهذا، فإن الرومان لم يعرفوا انطلاقة حقيقية إلا بعد قيام النظام الإمبراطوري مند 509 ق.م. اعتمد الرومان في حضارتهم على الإرث الإتروسكي في إتروريا بوسط إيطاليا القديمة، كما اتخذوا لأنفسهم الحضارة اليونانية منهجا، فأمدوها بحياة جديدة، ونشروها في كل الأصقاع. بعد أن قويت شوكتهم شرع الرومان في توسيع رقعة إمبراطوريتهم بالاتجاه شرقا، حيث سيطروا على بلاد اليونان التي صارت ولاية تابعة لهم. وما كاد ينتصف القرن الثاني ق.م حتى فقدت الكثير من شعوب الشرق القديم استقلالها بفعل التوسعات الرومانية. فقد دمر الرومان قرطاج، واحتلوها سنة 146 ق.م.، ثم أنهوا حكم السلوقيين في مصر، وسيطروا على باقي مناطق الشرق القديم. وبفضل هذه التوسعات امتدت حدود الجمهورية الرومانية من إسبانيا غربا إلى السواحل الغربية لآسيا الصغرى شرقا، إضافة إلى شمال إفريقيا القديم، وبذلك تكون قد ربطت الغرب بالشرق لأول مرة في التاريخ القديم.

ولما احتك الرومان بالشرق، وامتزجوا ببدورهم بأممه، أخذوا عنها الكثير من العلوم والمعارف لكنهم أخرجوها بطريقتهم الخاصة. ساهم توسع الرومان على حساب بلاد اليونان والشرق القديم في مدهم بجرعات حضارية أغنت حضارتهم وكرست هيمنتهم. فقد تطورت في العصر الروماني الفنون والعلوم والآداب والفلسفة والطب وفن العمارة والنحت وأنظمة الحكم والقوانين والإدارة... لم تكن روما قادرة على إدارة المجال الشاسع الذي توسعت به، فسرعان ما اندلعت الصراعات في الأقاليم، وهو ما أفضى إلى ظهور إمبراطوريتين إحداهما في الشرق وأخرى في الغرب. سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية على يد القائد الجرماني اودكر عندما احتل مدينة روما في عام 476م ويعتبر هذا التاريخ نهاية للتاريخ الروماني، واندحارا مؤقتا لحضارة الغرب الأوربي، وبداية لعصر جديد في أوربا هو العصر الوسيط. أما في الشرق فقد نجح قسطنطين الأول في أن يسيطر على الشرق عام 323م، وبذلك ظهرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتي عرفت باسم الإمبراطورية البيزنطية التي بقيت قائمة

حتى غاية احتلالها من طرف محمد الفاتح في القرن 15م.

لم يتسن للشرق أن يستفيدا كثيرا من اندحار حضارات الغرب الأوربي وسقوط كياناته السياسية، إذ ما إن زالت الاحتلالات المتوالية حتى كان موعد المنطقة مع تطور آخر تمثل في انتشار العنصر العربي بالمنطقة. فما مصير التنافس الحضاري بين حضارات الشرق والغرب بعد الذي حدث في المجالين الحضاريين معا من تراجع ونحن على أبواب العصر الوسيط؟ هل كان العصر الوسيط في أوربا بالفعل عصر انحطاط؟ وبالمقابل هل تحول ذلك العصر في الشرق بعد ظهور الاسلام وتوسعاته بفضل أعمال القومية العربية إلى عصر ازدهار؟ وهل سمح ذلك بميل موازين الحضارة مجددا نحو الشرق؟

II-العصر الوسيط: مصير حضارة الشرق بعد انتشار العنصر العربي:

1-قدم الانتشار العربي بالشرق القديم:

دشن صعود العنصر العربي نحو الشمال وسيطرته على مجالات الحضارات الشرقية البائدة نقطة تحول في تاريخ المنطقة كان لها تأثير على المسير الحضاري للشرق بأكمله. ظل العنصر العربي منكفئا على نفسه بمجاله الجغرافي المحدود بشبه الجزيرة العربية. ورغم ذلك، فإن نزوح العرب إلى الشمال لم يكن قط وليد العصر الوسيط، إذ يعود إلى فترة مبكرة من تاريخ الشرق القديم. لقد بقيت بلاد العرب خلال الفترة القديمة نسبيا بمنأ عن التدخلات الأجنبية، فإذا استثنينا مناوشاتهم مع الآشوريين والبابليين، فقد عاشوا في الواقع عزلة حقيقية في مجالهم، لقد عرفتنا الوثائق الآشورية والبابلية الحديثة ببلاد العرب، إذ ورد لأول مرة في وثيقة آشورية تعود إلى 853 ق.م خلال مشاركتهم كجنود ضمن الجيش الآشوري في معركة "قرقر" بشمال سوريا الحالية إلى جانب جنود آشوريين وفينيقيين ومصريين. لقد عاش العرب خلال الفترة القديمة كبدو على الرعي والترحال والتجارة، إذ تشير الوثائق الآشورية إلى بلاد العرب على أنها بلاد قاحلة تغطيها الأملاح ولا ماء فيها.. ويمكن إرجاع بداية نزوحهم نحو الشمال إلى القرن 8 ق.م، حيث صعدوا إلى مجالات الحضارات الشرقية القديمة من أجل التجارة، لاسيما مع الآشوريين والمصريين. ومنذ هذا التاريخ بدأ استيطان جماعات عربية بمجالات الحضارات القديمة ليصلوا إلى سوريا والأردن ومصر تحت نظر الآشوريين، قبل أن ينتبه هؤلاء الأخيرون إلى خطورة تقدم العرب، فعملوا على محاربتهم. غير أن سقوط الإمبراطورية الآشورية خلال القرن 7 ق.م سمح باستمرار تمدد العرب نحو الشمال، وهو شيء لم يعطله سوى التدخلات الفارسية

في المنطقة طيلة قرنين غامضين. وبهذا يكون الشرق على موعد مع تحول كبير تجلى في الاكتساح العربي للمنطقة. ومعلوم أن بعض الأبحاث التاريخية تحاول عمدا الخلط بين العرب وشعوب الحضارات التي نشأت في بلاد ما بين النهرين وفي بلاد الشام وفلسطين من منطلق أن الأمر يتعلق بشعوب سامية، وبمبرر أن أصل صانعي الحضارات الشرقية القديمة ينتمون إلى نفس الجنس السامي، وبالتالي اعتبار حضارات العراق القديم وبلاد الشام وفلسطين بمثابة حضارات عربية، وهو أمر لا يقوم على حجة كافية، والأصح هو اعتبار القومية العربية قومية مختلفة لم تتصل بشعوب الشرق القديم إلا منذ القرن 8 ق. م على الأقل.

لقد أخذت القومية العربية في الانتشار شمالا حيث ضمت مجالات الحضارات الشرقية القديمة في العراق والأردن وسوريا ومصر وبلاد الشام وفلسطين، غير أنهم انتشروا هناك كجماعات مهاجرة عملت على تأسيس كيانات سياسية. وخلال القرن 5 ق.م أشار هيرودوت إلى العرب كقومية متعاونة مع الفرس في مساعيهم لغزو مصر، وقد استعمل لفظ "عرابيا' أو "أرابيا" لنعت مجال استقرار العرب، قاصدا بذلك شبه الجزيرة العربية الواقعة شرق النيل. والراجع أنه بمرور الوقت توغل العرب أكثر نحو الشمال، ففي القرن 1 الميلادي يخبرنا المؤرخ بلينيوس الأقدم بأن بلاد العرب تمتد من الجزيرة العربية جنوبا حتى جبال أمانوس(لواء الإسكندرونة الآن) بتركيا. لقد انتشر العرب، الذين كانوا بدوا لا عهد لهم بالتمدن، بمجالات حضارية عريقة عرفت الاستقرار والتمدن والعمران منذ فترات جد قديمة. لقد تعززت السيطرة العربية على الشرق أكثر مع ظهور دعوة النبي محمد في شبه الجزيرة العربية. والظاهر بأن الحضارة العربية قد عملت على محو مخلفات الحضارات الشرقية القديمة ربما لأسباب ثقافية ودينية واجتماعية برغم القواسم المشتركة بينها وبين تلك الحضارات من حيث اشتراكها مع بعضها في الانتماء إلى الغور الحضاري السامي.

2-حضارة الشرق والغرب خلال العصر الوسيط:

حسب الوثائق المتوفرة، فإن العرب قبل الإسلام لم يتركوا ما يدل على أنه كانت لديهم علوم متوارثة في مجالات مختلفة إذا استثنينا بعض الإرهاصات الأولية في بعض المعارف مثل علم الفلك والرياضيات والطب. وأكثر ما تحفظه وثائقهم هو النبوغ الأدبي، خاصة في مجال الشعر. كما انصرف كل اهتمامهم الاقتصادي نحو أعمال التجارة من خلال تجارة القوافل الموسمية. إن السؤال المحير الذي يظل بلا جواب هو كيفية

تعاطي العرب مع إرث الحضارات الشرقية القديمة بعد انتشارهم بمجالاتها؟

بعد استثبات دعوة الرسول محمد في شبه الجزيرة العربية خلال القرن 7 الميلادي، انطلقت التوسعات العربية الكبرى ليس بهدف الاستيطان، الذي حدث قبل ذلك بكثير، وإنما لنشر الديانة الجديدة. وهكذا انطلقت التوسعات الخارجية، خاصة في عهد الخلفاء الراشدين، فامتدت أراضيها من شبه الجزيرة العربية إلى الشام فالقوقاز شمالا، ومن مصر إلى تونس غربا، ومن الهضبة الإيرانية إلى آسيا الوسطى شرقا، وبهذا تكون الدولة قد استوعبت كافة أراضي الإمبراطورية الفارسية الساسانية وحوالي ثلثي أراضي الإمبراطورية البيزنطية. وفي عهد الدولة الأموية أصبح العرب يحتكمون على مجال واسع من آسيا وأوربا و إفريقيا، إذ امتدت السيطرة العربية من أطراف الصين شرقا حتى جنوب فرنسا غربا، إضافة إفريقية والمغرب والأندلس وجنوب الغال والسند وما وراء النهر. وفي عصر العباسيين وصل المد العربي الإسلامي إلى الهند، بينما صرف العباسيون أكثر وقتهم لشن الغارات ضد البيزنطيين ولمواجهة القلاقل في البلاد المفتوحة في عهد الأمويين، إلى أن سقط العباسيون ككيان يحفظ وحدة العرب والمسلمين سقوطا رمزيا بعد سقوط بغداد سنة 1258م بيد المغول، وفعليا سنة 1519م، ليبدأ مشروع إسلامي وحدوي آخر تحت حكم العثمانيين.

بالرجوع إلى إشكالية مصير حضارات الشرق القديم في ظل السيطرة العربية على المنطقة، نجد أن العرب قد نجحوا في تعريب كل ذلك المجال، ومحو آثار اللغات الشرقية القديمة كالآشورية والفينيقية والمصرية. كما أن العرب في ظل الإسلام قد عاشوا عصرا ذهبيا امتد من منتصف القرن 8 الميلادي لغاية القرن 14 و15 الميلاديين. وقد تخلل هذه الفترة تصدع في العلاقات بين الشرق الذي أصبح إسلاميا والغرب الذي صار مسيحيا، وتجلى ذلك في الحروب الصليبية التي شنها الأوروبيون من أواخر القرن 11 حتى الثلث الأخير من القرن 12 الميلادي، والتي كانت عبارة عن محاولات من مسيحيي غرب أوروبا انتزاع الأراضي المقدسة في الشرق من قبضة المسلمين. لقد تميز العصر الاسلامي بالشرق ببعض الإضافات الحضارية الهامة. فقد ظهر علماء مسلمون ساهموا في تطوير عدة نواح حضارية مثل الفن والزراعة والاقتصاد والصناعة والأدب والملاحة والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا والفلك، من خلال المحافظة والبناء على المساهمات السابقة وبإضافة العديد من اختراعاتهم وابتكاراتهم. وقد كان لتلك الإضاءات الحضارية الإسلامية تأثير على عدد من جهات المعمورة، ومن بينها الغرب الأوربي المسيحي. ولكن هل استثمر العرب

المسلمون الإرث الحضاري الشرقي وطوروه إلى أبعد مدى؟ وهل أخرجوا حضارة مادية حقيقية كانت قادرة على إحداث تغيير ملموس في العلاقة بين الشرق والغرب؟ أم أن الأمر لم يتعد مجرد توسعات مجالية؟ ونشر قيم أخلاقية وتعاليم دينية بحتة؟

رغم أهمية الإنجازات التي تحققت، فلا شيء يؤكد استثمار العرب تحت راية الإسلام لمنجزات الحضارات القديمة والبناء عليها وتغيير موازين الحضارة العالمية، خاصة على ضوء العلاقة مع الغرب المسيحي. فقد تقهقرت المنطقة في الكثير من المجالات، وطغى الجانب الديني في حضارة الشرق على حساب التفكير المادي العقلاني، فرغم وجود بعض النقط المضيئة، فإنها لم تكن كافية لإحداث تحولات عميقة في بنية المجتمع الإسلامي تدفع به نحو التطور، وبوسعها استغلال التراخي الوقتي الذي عاشه الغرب الأوربي خلال العصر الوسيط. وهنا لا بد من إعادة النظر في بعض المسلمات، ومنها ما تم ترسيمه في الأبحاث التاريخية بصدد و اقع حضارة الغرب الأوربي خلال العصر الوسيط الدي امتد بين القرن 5 حتى القرن 15 الميلادي، من خلال الاعتقاد بأن حضارة الغرب الأوربي قد نزعت نحو المحافظة والجمود وسيادة معتقدات تعتمد على الأساطير والروايات الخيالية والخرافات وسيطرة الكنيسة، وإلا فعلى ماذا بنى الأوربيون نهضتهم خلال العصر الحديث الأوربي؟ كما أن ثمة مقابلة غير سليمة بين عصر وسيط إسلامي مشرق يطبعه الازدهار وعصر وسيط أوربي مظلم ساد فيه الانحطاط في كافة مناحي الحضارة، والحكم تبعا لذلك بأن هذه الفترة قد شهدت تحولات حضارية كبرى لصالح الشرق على حساب الغرب. هذا المنحى، الذي تطغى عليه العاطفة، لم يعد مجديا لفهم حقيقة التحولات التي حصلت في الغرب والشرق خلال العصر الوسيط. فهناك اليوم الكثير من الأبحاث التي راجعت الكثير من المسلمات بهذا الخصوص. لقد تبين أن بأن أوربا قد عرفت خلال العصر الوسيط تطورات ضخمة على الصعيد السياسي والديني والجغرافي تفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التي كيّفت تاريخ أوروبا خلال العصر الوسيط، وخلقت أساسا حضاريا وقع البناء عليه خلال العصر الحديث الأوربي. ومن ذلك مثلا ازدهار الفلسفة اللاهوتية والشعر والفن المعماري.. ويمكن الاستنتاج، مع استحضار النسبية، بأن تاريخ الغرب الأوربي هو عبارة عن مسار متصل بين الحضارة الإغريقية والرومانية وصولا إلى النهضة الأوربية في العصر الحديث، وأن الحديث عن ثغرة حضارية يمثلها العصر الوسيط أمر مبالغ فيه. إن التراجع الذي حصل في أوربا خلال العصر الوسيط إنما كان تراجعا في التنظيم السياسي بالدرجة الأولى.

وبناء على ما سبق، فإن العصر العرب خلال العصر الوسيط لم يستطيعوا قلب موازين الحضارة لصالح الشرق لعدة اعتبارات. منها أن العرب المسلمين كان كل همهم هو السيطرة السريعة على أوسع مجال جغرافي، دون أن يقع الإعداد لتبعات ذلك التوسع، بحيث لم يستطع العرب إدماج الشعوب التي دخلت في الإسلام، فكان ذلك مقدمة لإحداث ثغرات في الجسد الإسلامي سيتوغل عبرها الغرب المسيحي. ينضاف إلى ذلك اختلاط الدين بالدولة على امتداد التاريخ الإسلامي، هذا فضلا عن السقوط في مستنقع الخلافات الفقهية والعقدية التي شغلت المسلمين لفترات طويلة، وأدت إلى انقسامات مؤثرة سمحت بظهور العديد من الطوائف والفرق الدينية والكلامية المتصارعة. الشيء الذي بث بذور الفرقة والانشقاق داخل العرب المسلمين، وفتح المجال أمام الخلافات السياسية والصراع من أجل السلطة. وقد ترك هذا التناحر داخل الصف الإسلامي الفرصة للغرب لمحاولة شق صفوف المسلمين. وقد جعلت تلك الاحداث البيئة غير مناسبة للابداع العلمي أو الفكري، وساهمت في تراجع المسلمين القهقري على امتداد فترا زمنية مهمة. إن الذي حصل هو تغليب الغيبيات والإيمانيات، وحدث تطويق حقيقي للعقل وتكريس التبعية الفكرية، بالرغم من بعض الفلتات القليلة، فقد جرت عملية شيطنة الفلسفة والفلاسفة، وملاحقة كل من يُعمِل العقل أو يُساهم في تعليم ممارسة التفكير. فتلقت الفلسفة نكبتها الموجعة، ومحن الفلاسفة المسلمين خير دليل على هذا المنحى، ونذكر من بين هؤلاء أبو يوسف اسحاق الكندي وأبو بكر الرازي وابن رشد وأبو نصر الفارابي وغيرهم.

إن كل ما حصل في الشرق خلال العصر الوسيط الاسلامي، وإذا استثنينا التحولات الدينية والأخلاقية، لا يتعدى مجرد تمنيع المنطقة عسكريا وامتلاك القدرة على صد الأطماع الأوربية بفضل الالتفاف القوي حول العنصر الديني الذي طغى على آفاق الشرق خلال هذه الحقبة من التاريخ.

III-العصر الحديث: انكفاء الشرق وبداية انقلاب موازين الحضارة لصالح الغرب

1-عصر التحولات في الغرب الأوربي

يحدد الأوربيون تاريخ بداية العصر الحديث بالانتكاسة العسكرية التي حدثت بعد الصدام مع المسلمين وما تمخض عنها من فتح القسطنطينية من طرف العثمانيين سنة 1453م. ولكن ذلك كان بداية انطلاقة لحضارة الغرب الأوربي خلال القرنين 15 و16 الميلاديين. فقد عرف الغرب الأوربي منذ القرن 15م ثورات حقيقية في كافة المجالات، ترافقت مع

تحولات عميقة مست المجتمع الأوربي. فقد أطلق الأوربيون خلال هذا العصر العنان للعقل بفضل حركات فكرية أسست لهذا التوجه، وتخلصت أوربا من النظام الاقطاعي على المستوى الاقتصادي ما فتح المجال أمام نشوء اقتصاد حضري تركز في المدن من خلال أعمال التجارة، وما أتاحته من تراكم الرساميل التي أفرزت طبقة اجتماعية متنورة يعود لها فضل قيادة التحولات اللاحقة وهي الطبقة البورجوازية. كما بدأت معالم الانتقال من الاقتصاد الفلاحي نحو الاقتصاد الصناعي من خلال ظهور الأوراش والمعامل الصغيرة، وهو ما أفضى إلى تراكم الرساميل ونشوء الأبناك. وفي الجانب الاقتصادي أيضا، أتاحت الكشوفات الجغرافية للأوربيين مراكمة المزيد من الثروات التي تم توظيفها في النشاط الصناعي. وقد أسفرت هذه الدينامية الاقتصادية الجديدة عن ارتفاع الانتاج في القطاعين الفلاحي والصناعي، وبرزت الحاجة إلى الأسواق الخارجية لتسويق فائض الإنتاج. الأمر الذي خلق رأسمالية أوربية أصبحت تتطلع إلى الخارج لتحقيق طموحاتها الاقتصادية. وفي هذا السياق أحكم الأوربيون سيطرتهم على محاور التجارة البحرية باكتشاف طرق جديدة تتيح الاتصال بعدد من أنحاء العالم عبر المحيطات بدل البحر الأبيض المتوسط. وقد أدى هذا التفوق التجاري والملاحي الأوربي الذي رافق الكشوفات الجغرافية إلى تطويق كامل للشرق الإسلامي وعزله عن الأسواق التي كان يتعامل معها، وبالتالي إضعافه اقتصاديا. كما انعتقت أوربا خلال هذا العصر من النظام التراتبي الاجتماعي القائم على العسف والاستغلال، وتمكن مفكرون أوربيون كبار من شق الطوق الذي ضربته الكنيسة على الإنسان الأوربي وفرض إصلاحات دينية انتهت بسقوط وصاية رجال الدين على حياة الأوروبيين. كما عرفت أوربا خلال هذا العصر اتحاد الممالك وظهور الدول القومية مع ما صاحب ذلك من تحولات سياسية سترتقي إلى مستوى الثورات خلال القرن 17م من خلال الإصلاحات العميقة التي جاءت بها الثورتان الإنجليزية والفرنسية. وفي الميدان الفكري شهد هذا القرن تطور الفكر العقلي وازدهار الفلسفة التي أعلت من شأن العقل والتفكير العلمي. وقد صاحب ذلك ازدهارا غير مسبوق للكثير من العلوم الحقة والإنسانية.

ولم يكد الأوربيون ينهون مسيرة تحولاتهم المثمرة حتى انبعثت لديهم فكرة الاتجاه نحو الشرق مثلما هي العادة في العصور السابقة مدفوعين إلى ذلك بقوتهم العسكرية المدعومة بحضارتهم المادية لتصفية الحساب مع الشرق عامة، والشرق الإسلامي خاصة. وبهذا بدأ مسلسل الضغط الأوربي على العالم الإسلامي بطرفيه الشرقي والغربي. ففي

الغرب أعلن الأوربيون حروب الاسترداد، وتوغلوا في سواحل الغرب الإسلامي. أما في الشرق، فقد عانت الامبراطورية العثمانية من التدخلات الأوربية المستمرة التي اتخذت أشكالا متعددة اقتصادية وسياسية وعسكرية ومالية.

1-الجمود الشرقي في مقابل التحولات الغربية

أما العصر الحديث في العالم الإسلامي، فقد تميز ببروز الإمبراطورية العثمانية في الشرق. لقد ساهمت الإمبراطورية العثمانية في إحداث نوع من التوازن مع قوى الغرب الأوربي في النواحي العسكرية والاقتصادية. وتجلى ذلك في قدرتها على التوسع على حساب مجالات جديدة بما في ذلك الأراضي الأوربية، حيث وقف العثمانيون في أوج قوتهم العسكرية على أبواب فيينا. لقد مكنت القوة العسكرية للعثمانيين من السيطرة على مناطق شاسعة في آسيا و إفريقيا وأوربا، والمحافظة على الكيان العثماني، إضافة إلى توفير موارد مالية مهمة من خلال لعب دور الوساطة التجارية بين الشرق الأقصى والغرب الأوربي. إلا أن هذا التوازن سرعان ما بدأ يختل تدريجيا، خاصة منذ القرن 16 الميلادي لصالح الأوربيين بعدما تمكن الأخيرون من تجاوز دور الوساطة واحتكار الطرق التجارية ما أسفر عن انكماش العثمانيين اقتصاديا، وبداية طور من التدخلات الأوربية في الشأن الداخلي العثماني. لقد عجلت التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي عرفتها أوربا منذ القرن 15م في تغيير الموازين لصالح الغرب على حساب الشرق الإسلامي العثماني. وإذا كان العصر العثماني قد شهد بعض التحولات الإيجابية مثل الشروع في إدخال الفكر الصناعي بالمنطقة، ومحاولة الاستفادة من الغرب عبر إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج، ومحاولة العمل بالإدارة الحديثة، فإن تلك المحاولات التحديثية النادرة لم تسفر عن إحداث تحول حضاري ملموس، بل بالعكس فالذي حصل هو سيطرة الجمود الفكري وتراجع كبير في عدد من مظاهر الحضارة، فضلا عن التصدع السياسي الداخلي للكيان العثماني، وبداية فترة من القلاقل والتوترات والحركات الانفصالية. لقد أسفرت عملية إخضاع العصر العثماني للمقاربة التاريخية النقدية التحليلية عن بروز تيارين مختلفين واحد يدافع عن التجربة العثمانية ويمدحها ويعدد حسناتها ويشكك في نوايا كل من ينتقدها، وتيار ثان يرى بأن الفترة العثمانية شكلت مرحلة تراجع وفترة ضائعة من تاريخ الشرق.

لقد ترسخت عدد من مظاهر الجمود إبان الحقبة العثمانية بالشرق، حيث تميزت المنطقة بشلل فكري تجلى في تراجع الآداب، وسياسي تمثل في اعتماد نظام

حكم مطلق وراثي، وإداري من خلال استشراء الفساد في دواليب الدولة، وعسكري تجسد في عسكرة الدولة. كما تم توريط المنطقة العربية في حروب كثيرة أهمها الحرب العالمية الأولى وما أعقبتها من معاهدات، مع محاولة إضعاف الشعوب الخاضعة للخلافة العثمانية وبخاصة العرب. كما تميزت الفترة العثمانية بصرف كل المجهود نحو الحروب وإهمال التقدم العلمي، وقد مكن ذلك التخلف الغرب من التفوق المادي فاخترع الأسلحة الحديثة ووسائل الصناعة وبدأ عصر الآلة والبخار والكهرباء. وقد أدى تظافر جملة من العوامل الداخلية والخارجية إلى سقوط الكيان العثماني سنة 1923م كآخر دولة خلافة للمسلمين في الشرق. تميز الحكم العثماني أيضا بالانغلاق ما حرم شعوب الشرق من الاتصال بالحضارات الناهضة في أوربا. ولعل هذا ما يفسر محاربة الدولة العثمانية لإصلاحات محمد علي بمصر على النمط الغربي. لقد أدرك مفكرو الشرق خلال أواخر الحكم العثماني بأن الخروج من نفق الجمود لا يمكن أن يتم إلا باقتفاء النموذج الأوربي، وتجسد ذلك في ظهور تياري اليقظة الإسلامية والقومية. وقد أدى نمو الوعي القومي العربي إلى ثورة العرب ضد العثمانيين مقابل التعلق بالوعود البريطانية، وهو المنحى صب في خدمة الأجندة الاستعمارية في المنطقة أكثر من تحقيق المشروع العربي الوحدوي. كما أن التيارات الفكرية العربية والاسلامية قد آلت بدورها إلى الفشل ولم تقدم بديلا حقيقيا أفضل من النموذج العثماني، في وقت باءت فيه بالفشل بعض التجارب الإصلاحية على الطراز الغربي التي عرفتها بعض المناطق العربية، وخاصة تجربة محمد علي في مصر.

3-اختلال التوازن بين الشرق والغرب:

يظهر من خلال المقارنة بين التحولات التي شهدها الشرق والغرب والشرق خلال العصر الحديث بأن هذا العصر قد شكل منطلقا لانعطافة تاريخية حضارية كبرى لصالح الغرب على حساب الشرق، وهو الأمر الذي سيزداد استفحالا في الفترات التاريخية اللاحقة، حيث ما انفكت الفجوة الحضارية بين الجانبين تتسع أكثر إلى غاية العصر الراهن. فقد تفوق الغرب الأوربي وقام بحزمة منسجمة متكاملة من الاصلاحات، بينما ظل الشرق الإسلامي ميالا نحو المحافظة على النمط الحضاري السائد. إن عمل الشرق الإسلامي خلال العصر الوسيط قد انصب بالأساس على الحفاظ على الكيان الإسلامي من الأخطار المحدقة به من طرف الغرب الأوربي، ولم يتجاوز ذلك إلى محاولة بناء نموذج حضاري مادي قادر على مواجهة آثار التحولات التي كانت تعتمل في الغرب الأوربي. إن ما حدث من تحولات عميقة وجذرية في الغرب الأوربي قاد نحو ترسيخ

الحداثة الفكرية والانتاج المادي، قابله من جانب الشرق نزوع مفرط نحو الاستغراق في حالة من الركود الفكري والتصدع المذهبي والدوران في فلك الخلافات الفقهية والانكفاء على النقل على حساب إعمال العقل. فمنذ العصر الحديث تبدّت العلاقة بين الشرق والغرب على النحو التالي: غرب حداثي وشرق محافظ.

IV-التاريخ المعاصر: اندحار الشرق وتفوق الغرب.

1-التحولات الاقتصادية في الغرب.

ارتكز الغرب الأوربي على أساس قوي من تحولات العصر الحديث لينطلق منذ القرن 19م في حلقة متكاملة ومترابطة من التحولات المختلفة طغى عليها الجانب الاقتصادي. فقد أسهمت تحولات العصر الحديث كما بينا سابقا في بروز بوادر الرأسمالية الصناعية والمالية بقيادة الطبقة البورجوازية، وهو ما ترسخ خلال القرن 19م بإعمال الليبرالية الاقتصادية التي ساهمت في ظهور أقطاب صناعية ضخمة. وفي نفس الفترة أيضا بدأت تظهر في أوربا تطورات و ابتكارات تقنية متسارعة شملت كافة الميادين، سواء بظهور المحركات(المحرك الانفجاري والكهربائي)، أو الآلات الجديدة التي ساهمت في تطوير مختلف أنواع الصناعات الحديثة(اختراع الجرار وآلة الحصاد)، كما برزت مستجدات هامة في مجال المواصلات أحدثت ثورة حقيقية في مجال النقل بظهور وسائل نقل حديثة برا وبحرا وجوا(اختراع القاطرة البخارية والسفينة البخارية، السيارات، القطارات)، فضلا عن ظهور اختراعات غير مسبوقة في ميدان الاتصال(الهاتف والتلغراف). كما ظهر فاعلون اقتصاديون جدد ساهموا في التحولات الاقتصادية في أوربا خلال القرن 19م مثل الشركات العملاقة والأبناك والبورصات...إلخ. وقد أفضت هذه التطورات التقنية المتسارعة والمترابطة إلى بروز صناعات حديثة في بلدان الغرب الأوربي واستعمال مواد طاقية جديدة. وبهذا، فإن فترة القرن 19 م ومطلع القرن 20م كانت فترة ثورات صناعية كبرى غيرت ملامح الاقتصاد الأوربي وكان لها انعكاس كبير على باقي عناصر الحضارة في البلاد الأوربية.

وبهذه التحولات يكون الغرب الأوربي قد صنع فارقا كبيرا عن الشرق، وبالتالي تكون الموازين الحضارية قد انقلبت هذه المرة بشكل فج لصالح الغربيين، بينما ظل الشرق غارقا في مستنقع الجمود كما توصلنا إلى ذلك سابقا إلى أن أصابته شظايا التطور الغربي في شكل حملة استعمارية تعرض لها المشرق العربي. لقد صنع الغرب الاسلحة الحديثة وأسباب التفوق العسكري فضلا عن السبق في المناحي الاقتصادية، وشرع يخطط للاتجاه نحو الشرق كما هو ديدنه منذ العصر

القديم، وذلك بعقد الاتفاقيات العلنية والسرية التي استهدفت استعمار المشرق العربي.

2-إعادة الكرّة من جديد: التوسع الغربي في الشرق.

بينما كان الغرب يصنع مجده في الميادين كافة، سادت حالة من التردي في الشرق مع تصدع الكيان العثماني، ولم يشد عن هذه القاعدة سوى بروز ما سمي بحركة النهضة العربية أو اليقظة العربية خلال القرن 19م، كحركة تنويرية وحالة فكرية واجتماعية سادت بالأساس في مصر وسوريا. غير أن هذا التململ الفكري المتأخر الذي شهده الشرق لم يحقق مقاصده في نهاية الأمر بفعل تضافر عدة عوامل، منها محدودية أفقه، حيث أنه تمحور حول هدف رئيس هو الانعتاق من الحكم العثماني، فضلا عن محدودية تأثيره في طبقات المجتمع المشرقي بحكم طابعه النخبوي الفئوي وتركزه في أوساط معينة، ومحدودية تأثيره المجالي، إذ تركز في بعض البلدان دون أخرى، بينما كان تأثيره محدودا في أغلب رقعة الشرق الجغرافية. وفي الأثناء توجهت نخب عربية أخرى لمحاولة استغلال حالة الانهيار التي كان عليها الكيان العثماني بتنسيق مع القوى الأوربية التي كانت تحركها الأطماع في اقتسام المجال العثماني، وهو ما حدث بالفعل، حيث نكثت تلك القوى عهودها للعرب، وشرعت في فرض الانتداب على المنطقة.

وهكذا، وبمقتضى اتفاقية سان ريمو لسنة 1920 والتي كانت بمثابة تطبيق علني الاتفاقية سايكس بيكو السرية لسنة 1916م، تم فرض الانتداب الإنجليزي على العراق والأردن وفلسطين، والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان. وفي الأثناء استفحلت التدخلات الاستعمارية في المنطقة التي تم تشكيلها على مقاس الغرب الاستعماري. مع ما ترتب عن ذلك من انعكاسات سلبية على المجتمعات المشرقية في المجالات الفلاحية والصناعية والتجارية والمالية بفعل عمليات الاستغلال الاقتصادي الذي تعرضت له بلدان المنطقة، والعسف الاجتماعي الذي عانى منه السكان، فضلا عن تغذية النعرات الإثنية والطائفية خدمة لأجندة الاستعمار البريطاني والفرنسي. وقد ترتب عن أعمال الاستعمار بالمنطقة نشوء حركات تحريرية أفضت إلى منح المنطقة استقلالات شكلية كرست تبعية المنطقة للاستعمار، بالرغم من الثورات التي شهدتها المنطقة بعد موجة الاستقلالات الوطنية، والتي لم تغير في شيء من تبعية الشرق للغرب إلى غاية عصرنا الراهن. فلازالت دول المنطقة تفتقد للقرار الوطني وتدور في فلك الغرب وتخطب وده باعتبار ذلك هو الضمان لاستمرار أنظمة المنطقة. وفي الأثناء تكرست الهيمنة الاقتصادية

للغرب بمفهومه الواسع، وتطورت صناعاته واختراعاته التي لا تكاد تنتهي، بينما انتصب الشرق، منزوعا من كل قدرة على التصنيع، كمستهلك نهم للإنتاج الصناعي الغربي.

خاتمة:

عبر هذا المسار التاريخي الطويل الذي يبتدأ من العصر القديم إلى غاية العصر الراهن، فإن السمة الغالبة في العلاقة بين الكيانين الحضاريين الشرقي والغربي هو التنافس. فإذا كانت إمبراطوريات الشرق القديم لم تتوفر لديها الرغبة في اقتحام أوربا القديمة، إذا استثنينا الإمبراطورية الفارسية، فإن الغرب الأوربي ظل ومنذ التاريخ القديم وإلى عصرنا الراهن يتطلع دوما للسيطرة على الشرق في كل العصور التي توفرت له فيها اسباب القوة. غير أن هذا التنافس، ظل يستبطن تفاعلات حضارية لم تنقطع عبر العصور في ظروف السلم والحرب على حد سواء. ومن المفيد التأكيد على فضل الشرق على المشترك الحضاري الإنساني في الطور القديم من تطوره، ولكن الشرق لم يذهب بعيدا في تطوير منتوجه الحضاري بسبب ترسخ قيم المحافظة، وهو ما أفضى إلى سلسلة من التراجعات لازالت تلقي بذيولها إلى اليوم، بينما بنى الغرب حضارته الخاصة، وخصّها بصنيع الشرق في نواح عدة، ثم طورها عبر العصور وأخرجها في شكل أكثر نضجا بفعل القطع مع المحافظة والاتجاه نحو إرساء الحداثة.

مراجع المقال:

محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، الطبعة الأولى، القاهرة، 2002.

قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية. قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، الطبعة الثانية، بيروت، 2003.

نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، تعريب أحمد بوملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (دون تاريخ).

أحمد مغنية، تاريخ العرب القديم، دار الصفوة، الطبعة الأولى، بيروت، 1994.

محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، 1987.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس للطباعة والنشر، بالطبعة الأولى، بيروت، 2009.

سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بيروت، 1987.

سيد احمد علي الناصري، الاغريق تاريخهم وحضارتهم، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، (دون تاريخ).

محمود فهمي، تاريخ اليونان، مكتبة ومطبعة الغد، الجيزة، 1999.

ابراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الروماني، الطبعة الأولى، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1992.

جون كلود مارغرون، السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية، ترجمة سالم سليمان العيسى، دار علاء الدين، الطبعة الأولى، دمشق، 1999.

أبو اليسر فرح، الشرق الادنى في العصريين الهللنيستي والروماني، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، الهرم، 2002.

جون كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة وطه حسين، شركة مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، 2001.

محمد علي سعد الله، في تاريخ مصر القديمة، مركز الاسكندرية للكتاب، 2001.

*كاتب وأستاذ باحث

gmail.com@abdellatif.ereguigue

المظاهر الاقتصادية والدينية لسكان بلاد الشام في فترة ما قبل التاريخ.

الأستاذ قوعيش شريف*

الملخص:

تعد فترة ما قبل التاريخ في بلاد الشام من أهم المراحل التاريخية التي عرفت تطورا ملحوظا في الإنتاج المادي الحضاري لدى سكان المنطقة، إذ نجد أن التغيرات المناخية والطبيعية اثرت على تشكل البنية الاجتماعية والاقتصادية منذ حوالي الألف السادس(قبل الميلاد، فأضحت المظاهر الحضارية لدى إنسان بلاد الشام قديما تتطور تدريجيا مكونة الملامح أولى لتقنيات وطرق العيش وكسب القوت اليومي، لذا نجده استعمل أدوات بسيطة حجرية، وأخرى عظمية استغلها في عملية القنص والصيد وفي عملية الزراعة، إضافة إلى ذلك شهدت منطقة بلاد الشام تطورا في المعتقد الديني تمثل في تقديم الطقوس والقرابين واستخدام رموز توحي بالاعتقاد بالعالم الآخر.

Abstract :

Considered the prehistoric period in the Levant of the most important historical stages that I knew a remarkable development in the physical production of civilization to the inhabitants of the region, we find that the climate and natural changes have helped to influence the form of social and economic infrastructure around the sixth millennium BC, since, dropping to the cultural manifestations of the man Levant old evolve gradually made up the first features of the techniques and ways of life and earning a living, so we find it used simple stone tools, and other bone exploited in hunting and fishing process and in the process of agriculture, in addition to that it witnessed the Levant developed in religious belief represented in providing rituals and sacrifices and the use of symbols to suggest to believe the other world.

مقدمة :

يختلف علماء الآثار واللغات في تحديد المدلول الجغرافي للمنطقة الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط، إذ نجد عدة تسميات مختلفة ووفقا للحدود الجغرافية و الظروف التاريخية التي مرت بها المنطقة، فنجد تسمية إقليم سوريا والذي يشمل قديما جبال طوروس وشبه

جزيرة سيناء والبحر الأبيض المتوسط[1]، وهناك تسمية بلاد الشام[2] التي ما زالت الى يومنا هذا متداولة في الادبيات اللغوية، وكذلك تسمية الهلال الخصيب الذي يمتد من الخليج العربي إلى منطقة سيناء ويضم العراق وسورية ولبنان وفلسطين[3]، أما المتعارف عليه في الكتابات التاريخية خلال الفترة القديمة نجد إستعمال تسمية الشرق الأدنى القديم و هي الأخرى يختلف حولها المؤرخون و علماء الآثار ، فالشرق حسب مفهوم بعضهم يعني منطقتنا العربية في غرب آسيا بإضافة إلى الهند والصين واليابان ، ويعني لبعضهم الآخر تلك البلدان المجاورة للبحر الأبيض المتوسط بما في ذلك تركيا و إيران وشبه الجزيرة العربية ويحدد آخرون الشرق في منطقة الهلال الخصيب بحدودها الطبيعة، وكل له ما يثبت وجهة نظره ويدعم رأيه سواء بالوثائق والبراهين الجنسية العرقية، أم جغرافية بشرية[4]، كما نجد اصطلاح أخر وهو الساحل الفينيقي نسبة إلى التسمية التي أطلقت على الشعوب التي سكنت منطقة الساحل .

وبالرغم من هذه الاختلافات إلا أن حضارة الإنسان القديم في بلاد الشام كانت مميزة عن الحضارات الأخرى، وهي وحدة لا تتجزأ جمعتها التفاعلات الحضارية، على الرغم من تعدد الأجناس البشرية والأماكن الجغرافية.

1- المظاهر الاقتصادية:

عرفت المنطقة الممتدة على طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بما فيها المناطق الداخلية (بلاد الشام) تحولات جذرية مست كافة الميادين على مستوى تطور التجمعات السكانية والاستقرار، والبحث عن مادة العيش في الحيز الجغرافي الذي يقطن فيه خاصة و أنه يحمل عدة أنواع من مصادر العيش والاستئناس، كما نجد أن الصيد هو اول مظهر من مظاهر تطور الشعوب القديمة من حيث المسايرة مع أحوال الزمان والمكان منذ العصور القديمة بما فيه العصر الحجري الحديث الذي دام نحو ألفي سنة اعتبارا من 6000 ق.م [5] ، فنلاحظ تقدم ملموس في الزراعة وتربية الحيوان واستعمال الآلات الحجرية المصقولة والحياة المستقرة[6] التي تنوعت وتعددت حسب توجه الإنسان في ذلك، وبجانب الآثار المعمارية التي تم الكشف عنها، فقد تم العثور على أثار الصناعة الزراعية ومن أهمها الفؤوس والمناجل الحجرية والأجران والمخازن[7]، وهذا ما جعل من الشعوب تعتمد على موارد متعددة استخرجت من باطن الأرض.

على الرغم من أن الانتقال إلى الزراعة الحقلية كان تحولا جذريا في سائر

ميادين الحياة لإنسان العصر الحجري، إلا أن هذا التغيير كان طويل الامد ، ويرجح أنه بدأ بمحاولات نشر الأشجار المثمرة المستنبتة، والاحتفاظ بالحيوانات البرية الملائمة في الحضائر المسيجية وهي تحسينات في مستلزمات الحصول على الغذاء[8]، فكان على الإنسان أن يعطي للحيوان حقه كسائر الكائنات الحية الموجودة في الطبيعة، وتشير اللقى الأثرية ومن أهمها العظام والأحجار على أن الإنسان حاول منذ تلك اللحظة استخدام أساليب محسنة لاستغلال ثروة البحر في هذه الحقبة "أي العصر الحجري الحديث" و بناء مستقرات أولى للصيادين على الشواطئ[9] وهذا إن دَل على شيء إنما يدل على أن البحر كان مقصدا للاستقرار البشري .

كانت حياة الإنسان القديم في العصور الحجرية صعبة جدا، فيما يخص البحث عن الوسائل الدفاعية والغذائية والبحث عن ظروف طبيعية مواتية له، ولهذا يشار على أن منطقة "جبيل" بقيت خلال زمن طويل مستقرا لصيد الأسماك ، كما يبدوا أن ظروف هذه الحقبة لم تشهد غير تغير بسيط[10] في مجال تقنيات وأدوات الصيد الحجرية، وما دامت المنطقة الساحلية للبحر الأبيض المتوسط كانت قديما وحدة جغرافية متكاملة فلا بد من أن حركة الاقتصاد كانت تسير باتجاه واحد سواء من حيث الزراعة أو الصناعة ، فقد اعتمد اقتصاد سكان فلسطين[11] قديما على زراعة المناطق الخصبة التي تحيط بأماكن استقرارها بأشجار مثمرة ومحاصيل زراعية عديدة، وعلى تربية الماشية وعلى الأعمال الحرفية المتنوعة وكذلك على التجارة الداخلية والخارجية واستقر بعضهم في الكهوف الطبيعية، ومنهم من سكن القرى.[12]

فعلى ما تنتجه الطبيعة، بدأت أولى مظاهر الاستقرار البشري في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط فعثر على أدلة تشير لهذا الاستقرار في عدة مواقع أثرية مثل "جبيل" "بيبلوس" « Byblos»، "وحراجل" "وبركة راما" "وعين راجل" "ونهر الكلب" "ونهر الزهراني" وغيرها[13] من المواقع التي شهدت استيطان بدائي، إضافة إلى موقع "مرسين"، "وطرسوس" في قيليقيا وأيضا بحماة ورأس شمرا (أوغاريت)[14]، وقرقميش- طرابلس، وأريحا(جريكو قديما)[15] وقع نهر الجوز شمال البترون ("تقع بين جبيل وطرابلس)" ، ومواقع نهر "إبراهيم" ونهر "بيروت" و"عدلون" التي تقع جنوبي صيدا[16]، ولاشك في ذلك أن هذه المواقع قد حظيت باكتشافات دقيقة ودراسات علمية مكثفة.

وعن تطور أمكنة الاستقرار البشري وما فيه من اشكال الابنية البدائية تميز

أسلوب بناء البيوت على شكل غرف واسعة دائرية الشكل استخدم الإنسان الخشب في بنائها الذي كان يشذب بواسطة قدوم من الصوان ليضع منه العواميد التي كانت كنصيب بجانب بعضها البعض لتشكل حاجزا يصقل من الداخل بالطين بطبقة خفيفة و الى جانب بعض الأغصان وجلود الحيوانات[17] هذا فضلا عن استخدامه لأنواع مختلفة الأشكال من واجهات المسكن، من جانبها غدت البيوت أكبر وأمتن (لتكونها لكون مادة البناء الرئيسة مكونة من) شجر الصنوبر الإبري الدقيقة، وإلى جانب البيوت الرباعية الزوايا نجد نموذجا ذو أبعاد شبه دائرية، ودائرية تماما، فكانت البيوت تشبه خلية النحل السورية(هل ان خلية النحل السورية هي الوحيدة ذات شكل دائري ؟ يرجى التحقق من المعلومة) المعروفة[18]، كما نجد البيوت متوازية الأضلاع التي لم يبق منها سوى الأرضية المطلية بالجص تماما في "تل الرَماد" و"أريحا"، ويلاحظ كذلك استمرار البناء المتوازي الأضلاع[19] إلى فترة زمنية طويلة، وكشفت لنا أطلال القرى منطقة "بيل" عن مساكن مستطيلة الشكل مبنية فوق أساسات حجرية.[20]

فقد اكتشفت الدلائل السكنية الأولى في أوغاريت (رأس شمر) بطريقة غير مباشرة، يعود تاريخها إلى مرحلة الاستيطان الأخيرة في المربيط أي الألف السابع ق.م[21] التي أصبحت بمثابة جوهرا ثابتا يستدل به الباحثون من كل الاختصاصات في معرفة خصوصية المو اقع الأثرية المجاورة، و في نفس الموقع (أوغاريت) قد وجد نوع من البيوت تتألف في بداية أمرها من بيت سكني واحد، يشبه شكل بيضوي الذي تحول فيما بعد إلى مستطيل، فهذا يشكل نمط الإستيطان القديم للجماعات البشرية الأولى التي وجدت في سوريا ولبنان وفلسطين ومنطقة الشرق الأدنى القديم.

بالإضافة إلى الآثار المادية التي ثم العثور عليها وبالرغم من اختلاف العلماء حول تاريخها فهذا لا يدعي إلى(لا يعني) أن نماذج الأولى لحياة الإنسان القديم اقتصرت على جانب مادي واحد فقط، بل تعددت الطبوع؟؟؟ والأشكال فنجد الفخار هذه المادة التي أصبح لها دور كبير في حياة الإنسان عند استعماله بشكل يومي في صناعته، فصنعت الأواني الفخارية التي استخدمت في فرن الحبوب والغلال والطهي[22]، وكذلك في الحفاظ على بعض المواد التي هي قابلة للتخزين، ولهذا نجد أنواع من الفخار يستعمل لمهام كبرى، بما فيه منفعة للإنسان والطبيعة.

ويرجح أنه تم اختراع عجلة الفخار(بهذه الصيغة افضل) في سوريا قبل عام 4000 ق.م ولكن لم تستخدم بصورة بارعة في جنوبي فلسطين حتى

حوالي عام 2000 ق.م ، وكان الفخار قبل ذلك يصنع بواسطة اليد[23]، حيث نجد بعض نماذج من الأدوات الفخارية تختلف بشكل كبير عن مثيلاتها أثناء إدخال تقنيات جديدة في الصنع، أما بالنسبة لأصل اختراع الفخار بالساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، فهناك اختلاف كبير بين علماء الآثار في تحديد المكان، وحتى الزمان، فيعتقد عالم الآثار (غار ستانغ) الذي نقب في أريحا[24] أن الفخار أخترع في هذه المدينة صاحبة التاريخ العمراني الموغل في القديم[25] علما أن سكان أوغاريت في الفترة الممتدة منذ الألف السابع ق.م لم يكونوا قد اكتشفوا صناعة الفخار بعد[26]، فنحن لا ننفي أنه كانت هناك اتصالات واسعة الأرجاء بين شعوب الشرق الأدنى القديم وأخذ عن بعضها البعض نتاجات عقولهم المادية وما يستمدونه من الطبيعة، فمثلا نلاحظ من خلال دراستنا لحضارة مصر أن أشكال البناء بالأجر المستطيل المجفف أو المشوي جاءت لهذه الحضارة بعد احتكاك سكانها وسكان سوريا وفلسطين في الألف الرابع ق.م ، كما أخذوا عنهم الفخار المزين بالرسوم الحيوانية والنباتية والبشرية[27]، ويعود ذلك للحضارة نقادة؟؟؟ المصرية التي انطلقت حوالي 4500 ق.م حتى 3500 ق.م حسب الباحث (بيار ليفاك)[28]، مما يبين أن منطقة بلاد الشام كانت أهل للحضور(تعرفت على صناعة) مادة الفخار قبل أن تعرفه مناطق أخرى.

كما يجب أن نعرف بأن الشعوب الساحلية للبحر الأبيض المتوسط كانت لها مواصفات تتماشى والظروف المعيشية حتى أنهم أصبحوا أبناء البحر بلا منازع ، يصنعون وينحتون على المواد والأواني الفخارية وكذلك إنتاج مادة الخزف بأنواعه، وقد عرف الفخار في المنطقة السورية تطورا ملحوظا عبر فترات زمنية متعددة وإليك الجدول الآتي يبين ذلك:[29]

نوع الفخار	تاريخه
فخار موشح	العصر البرونزي المبكر الحقبة الأولى (ج)
فخار ملون بخطوط فخار أحمد مصقول	العصر البرونزي المبكر الحقبة الأولى (ب)
فخار رمادي مصقول	العصر البرونزي المبكر الحقبة (أ)
الغسولية	العصر النحاسي المتأخر
فخار عادي	العصر النحاسي المتقدم

من خلال الجدول نلاحظ أن الفخار قد شهد تقدم وزيادة في التفنن والزخرفة حسب الحقب التاريخية من العصر البرونزي الأول إلى العصر النحاسي، هذا الأخير الذي تحسنت فيه العمارة بشكل كبير[31]، ولاسيما المواد التي صنعت بمختلف المصادر التي استخرجت من

الأرض، ولهذا استطاع الإنسان أن يوفر لنفسه أداة يوظفها في حياته اليومية، وهذا فضلا عن الابتكارات الأولى التي تميزت بها المجتمعات القديمة على المستوى الداخلي أو الخارجي عن طريق وضع طرق وجسور اقتصادية واجتماعية لخدمة متطلبات الحياة، واستمر الإنتاج الحضاري وتقدمت الصناعات الحجرية وازدادت خبرة الإنسان في منطقة الشرق الأدنى القديم عامة في تلك المرحلة المسماة بعصر الحجر والمعادن "العصر الكالكوليتي "[32]وفي هذه الفترة تطورت حضارة "جبيل"Byblos فامتدت أرجائها جنوبا حتى وادي اليرموك[33]بالحدود الفلسطينية الحالية، كما شهدت كافة المناطق المجاورة نفس التقدم الملحوظ، فبدأ الإنسان يعرف الحديد والبرونز والاستخدام المتفرق للحديد النيزكي الذي وجد منذ الألف الثالث والثاني ق.م، لكن الصناعة الفعلية لم تظهر إلا في نهاية الألف الثاني ق.م[34]، وتؤكد لنا الآثار أن رأس شمرا-أوغاريت- كانت على صلة من جهة قبرص وأعالي الر افدين، إذ عثر على أوان خزفية من طراز قبرص، وعلى خزف آخر من الطراز المعروف باسم حلف[35] شمال وادي الر افدين، كما كانت جبيل متأثرة بالوجود الحضاري العراقي لكن بدرجات متفاوتة، والذي عاصر فترة نهاية حكم أوروك[36]، ففي هذا المجال يتضح لنا أن الصلات التي كانت قائمة في فترة زمنية قديمة، اقتصرت على تبادل منتوجات أبرزها "الفخار" ، و"الخزف"، و"الحديد" وغيرها من مجموع السلع و البضائع المنتجة بالنطاق الجغرافي لشرق البحر الأبيض المتوسط ساحليا و داخليا ، وكل هذا يفسر أن النظام أو بوادر تشكل التجمعات كان بمحض إرادة الإنسان وحده الذي يسير ضمن الطبيعة التي يعيش فيها .

2- الخصائص الدينية :

إن دراسة الخصائص الدينية لمجتمعات منطقة بلاد الشام، يحتاج لوضع ترتيب زمني محدد وذلك من اجل معرفة النوعية والبدايات الأولى للمعتقد الديني لتلك الشعوب، غير أن العصر الحجري الوسيط لم يشهد ظهور ملحوظ لأفكار الاعتقاد والتعبير الفني، إذ توجد فقط ملامح قليلة تدل على ذلك، وقبل أن نتطرق لمعرفة خصوصية الديانات التي كانت منتشرة أنذاك قديما، لابد من معرفة كيفية نشأة الدين، فيرى الباحث "تايلور" « Taylor» (1838م-1917م) أن فقدان الجيد للحياة كان سببا مباشرا وراء اعتقاد الناس البدائيين بأن نفسا أو روحا تسكن الجسد وتفارقه حتى الوفاة، وأن الروح تستمر في العيش بعد موت صاحبها وتحل الأشياء الطبيعية مثل الأشجار والأنهار محلها ، أما العالم الأنتروبولوجي الإنجليزي (مارت) (PR.MART)) (1860م-1943م) يرى أن الناس البدائيين اعتقدوا

بوجود قوة غير ذاتية، أو قوة فوق طبيعية تحيي كل شيء، وأما فرويد (Freid) (1858م- ؟؟؟) في كتابه الطوطم والحرام يرى أن الدين البدائي نتج عن مرض نفسي له علاقة بشخصية بالأب المهيمنة في الأسرة البدائية كذلك، أما فرايزر (Frayzer) (1854م-1940م) يبين أن نشأة الدين جاءت عن طريق السحر[37]، فكل هذه الاجتهادات تبرز أن الدين عن (في) الشعوب القديمة إنما هو ذاتي يدور بالنفس قبل الطبيعة الأبيض المتوسط بما تحتويه هذه المنطقة من مناظر خضراء تتعدى الأشجار وحتى البحار، كما نجد في ذلك دور الصفات التي تحملها تلك المظاهر الخارجية من اللون، وعامل القوة، وشكلها النفعي، ولشك أن الإنسان ما قبل التاريخ قد اكتسب العديد من التجارب الطويلة التي يمارسها خلال عمليات صراعه مع البيئة بقواها المختلفة، كما أنه من ناحية أخرى قد اكتسب أيضا العديد من التجارب المتوارثة مما هيأ له مكانة بداية التوصل إلى بعض الأصول الخاصة بتفسير بعض ظواهر الحياة من حيث كنهها وغايتها، ومحاولة ربط ذلك بحاضره ومستقبله.[38]

وهذا راجع لتأملات الإنسان خاصة بعد إشباع غرائزه وضمان سد قوته اليومي، وبحسب تفكير إنسان الشرق القديم، بدأت أشياء جديدة تحدث حوله فكان هو الأول والأخير في مجال الصنع والتدبير، حيث أخذ متسعا من التأمل وظهر نوع من العقيدة بدليل العثور على بعض الأواني الطعام والتقدمات في أماكن الدفن، كما أخذ ينمي ملكته الفنية، حيث أصبح يحاكي ما حوله من أنواع الكائنات[39]، فهي مختلفة تعدت بين ما هو طائر وماشي وزاحف، وكلها تمثل منابع الدين لما قبل التاريخ، وإذا ما فسرنا هذا الأمر فنجده يتماشى وفق نظر العقيدة.[40]

فكانت الشعوب القديمة بين أمرين أو ثالوث طبيعي، الإنسان خلقه الله عز وجل مكرما بعقله والحيوان كائن حي غريزي، والبيئة هي احتوت الإثنين معا، وهنا نشأت أولى مراحل الممارسات الدينية الدنيوية، وظهرت أفكار ميتولوجية[41] متنوعة تنمو تدريجيا واحدة تلوى الأخرى.

وكان أهل سورية القديمة يمارسون المعتقدات الدينية وعلى رأسها عبادة الثور ومعبودة الأم وتقديس الأجداد على امتداد الألف السابع والسادس ق.م، وكانت هذه الشعائر لم تكن معروفة من قبل ودفن الموتى وتقديس الحيوانات كالدَب والغزال[42]، لهذا نجد أن الحيوان في تلك الفترة كانت له أهمية كبرى في التعبير الإنساني، ففي البداية نجد أن الإنسان بدأ يدفن موتاه، مما ساعد في العثور على الكثير من الهياكل العظمية المحفوظة في العديد من المواقع وفي قبور جماعية أو فردية زودت أحيانا بالأسلحة والأدوات

الحجرية الجميلة، ومعظم الاكتشافات بلاد الشام إنحصرت في فلسطين القديمة، فقد وجدت في موقع مغارة جبل "قفزة" جنوب شرق الناصرة حوالي ستة عشر جثة[43]، ربما كانت كأول ملمح وشاهد أثري مادي حول ديانة المجتمعات في العصور القديمة خاصة في العصر النيوليتي، وإلى جانب ذلك نمت أول ظاهرة تلفت الانتباه في هذا المجال، وهي ظاهرة إعطاء صفة التقديس من وجهة نظر الإنسان القديم إلى تلك القوة الخفية للخلق الجديد سواء كان إنسانيا أو نباتيا أو غير ذلك وأعطى لها رمز[44] معبر عنها، فاختار الأمومة الإنسانية، كرمز قريب يلمسه بوضوح في مجتمعه الإنساني، ويعبر في أبسط صور التعبير عن صورة من صور الخلق الجديد، ومن هنا بدأت فكرة آلهة الأمومة[45] وكانت هذه الفكرة قد ظهرت من قبل حسب ما جاء به الباحثون والاختصاصيون وتطورت مع العصور الأخرى المتتالية، ونجد عقيدة عبادة الأجداد أو عبادة الأسلاف فقد جسدت هذه العقيدة من خلال الجماجم البشرية المحنطة التي فصلت عن الأجساد، وتمت معالجتها وقولبتها بالجص بعد كشط اللحم عنها مع الحفاظ الاحتفاظ بها ، ويستخدمها بالمناسبات والشعائر الدينية وهي تمثل مركز الفكر والعقل والروح خاصة ما نجده "بتل أسود" بسوريا التي اكتشفت فيها العديد من الجماجم المقولبة وكذلك "تل الرماد" هذا الموقع الذي كشفت فيه أنواع من الجماجم البشرية معظمها من النساء.[46]

أما الحديث عن النماذج التي تبين مدى تطبيق هذه الممارسات القديمة، فقد عثر على جرار خزفية مدفونة في الأرض تحتوي على هياكل عظمية لأطفال صغار، ويظن البعض من علماء الآثار أن بعض الموتى إنما كانوا يحرقون ومن المعروف أن حرق الجثث عادة غير معروفة عند الشعوب السامية، كما وجدت بموقع "جبيل" جرار خزفية كذلك وضعت فيها الموتى بشكل كأن جثة الميت جالسة وركبتاها منطويتان ومرتفعتان[47] وتبدو أن هذه الصفة كانت منتشرة بشكل واسع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط خاصة والشرق الأدنى القديم عامة، كما وجدت مقبرة بها امرأة شابة مستلقية على الجانب الأيمن ومثنية الأرجل وإلى جانبها طفل نائما برأسه على صدرها، وبين ذراعي هذا الطفل جثة غزال رمز للحياة والخصب.[48]

والمثل في هذا نجد تعدد الأشكال في عملية الدفن والسبب راجع إلى تعدد الأفكار وتنوع البيئات، وكما عرفنا أن جماجم الإنسان كانت أحد المواد الرئيسية في تكوين المعتقد فقد رافقتها تماثيل أسطوانية الشكل تساعد على حمل هذه الجماجم المحنطة، والتي يعتقد أنها توضع فوق هذه التماثيل أثناء المراسم الدينية،

ولم يعرف هل ان هذه العمليات وضعت لتبارك المنزل وتحميه، أم أنها تجسيد للأموات في بيوت الأحياء.[49]

هذا التخمين ربما يلح إلى وجود اعتقاد ما بعد الموت والعالم الآخر، حتى ولو لم تكن المظاهر واضحة و دالة على ذلك.

و وجود الأدوات مدفونة مع جثة الميت خلال العصر الحجري الحديث والبرونزي، لا يعني أن الميت سيبعث حيا ويستعمل هذه الأدوات، ولكن قد يكون معناه كراهة أن يستعملها الحي[50]، ذلك قد يؤثر جليا على نفسانية الفرد داخل المجتمع ، والفيلسوف "دوركايم" في كتابه "صور أولية للحياة الدينية" يؤكد أن الحفلات والأعياد والمجتمعات التي كان الإنسان البدائي يشهدها كانت تبعث في نفسه شعورا بالنشاط والقوة واللذة، ومن ثم يغمره الأمل والزهو[51]، بما في ذلك الطقوس والقرابين التي يقدمها مما تحمله من معاني الخلاص والصدق، وكانت المجتمعات التي تسكن لبنان القديم تدفن الموتى بالقرب من المنزل في ثلاث أنواع من المدافن، ذلك النوع الأكثر شيوعا، حيث تم العثور على نحو واحد وعشرين قبرا، وكانت وضعيات الجثة أو الهيئة في هذه المقابر معظمها على الجانب الأيسر مع الركبتين تصلا هي واليدين عند الصدر "شكل القرفصاء"، وقد وضعت بضائع في ناحية الحجر في تجاويف محملة بواسطة لوح مع وجود الفخار والحلي، كما تم استخدام المزهريات الطينية لدفن الأطفال الصغار وبجانبها أربعة هياكل عظمية من كتف البقر[52]، مما نستنتج أن الحيوان ما زال يرافق الإنسان حتى في قبره ، ودليل على ذلك هو مدى تقديس الإنسان للكائنات الحية خاصة التي هي مدجنة والمستأنسة مثل البقر والحصان...الخ.

و لم يبق المعتقد الديني على شاكلته الأولى بل تطور وأصبحت عملية الدفن تسجى في أوعية فخارية كبيرة، وقد اكتشف أكثر من" 1800" عملية دفن على هذه الطريقة بمنطقة "جبيل"[53]، حتى أنه مس منطقة كبيرة تمتد من وادي الفرات شمالا حتى حوض دمشق ووادي الأردن جنوبا[54]، ناهيك على بعض المواصفات الأخرى لم نتطرق إليها وهي متنوعة بتنوع الشعوب وتعدد ثقافتها لكن الهدف كان واحد وهو أن الفكر الديني بالمنطقة الساحلية لشرق البحر الأبيض المتوسط إنما يعز أن يتبلور في نمط التبعية وتسخير القوة الطبيعية في خدمة التواصل البشري واللابشر واستطاع المكنون الذي تم إنتاجه أن يمثل بصفة رسمية للإنسان القديم، وأصبح بمثابة زخر حضاري لا يمكن أن يستهان به، لأن تلك العادة على ما يعتقد أنها لم تكن تمارس لمجرد إشباع غريزة الجوع وإنما عكست معتقدات

دينية آمنت بها تلك المجتمعات التي كانت تفكر بالموت مثلما فكرت بالحياة.[55]

ومن مظاهر الإنتاج الفكري الديني العام خلال العصر الحجري الحديث، يتضح في الاعتقاد بوجود عالم أبدي بعد انتهاء الحياة الدنيوية، وقد اعتبر الإنسان القديم لزوم ذلك الاعتقاد لاتصاله اتصالا وثيقا بعالم القوى الطبيعية التي تتحكم في إنتاجه الزراعي ومدى صلاحية ذلك الإنتاج، واعتبر نفسه مثالا آخر للحياة في أوسع مفاهيمها لا يختلف قليلا أو كثيرا عن الأمثلة الأخرى الحيوانية والنباتية والكونية من حيث انطباق حقيقة دورة الحياة والموت عليه ، ولذلك شعر بضرورة لحاقه بظاهرة الخلود والاستمرار بعد الموت الدنيوي[56]، مع استمرارية الحياة قبله أو بعده، ولذلك نجده يقدم الأضاحي من أجل ضمان استمرار الوجود للميت[57]، وكثيرا ما نجد أن التكهنات في العصور الحجرية بدت واضحة المعالم مقصودة غير وهمية بارتباطها مع عقلية الإنسانية القديمة، حيث أين نجد التكريس الفعلي مع جهود كبيرة لتنفيذ المفاهيم والمثابرة عليها، ولهذا نجد في العصر الحجري الحديث أو النحاسي على الساحل مقصدا لتلك الشعائر والتبريكات باعتبار المنطقة جغرافية في حد ذاتها تملك كل الإمكانيات لإظهار ذلك خاصة وأنها تطل على البحر، والخصوبة أمر يتجلى في أهمية الاهتمام والاستغلال في الدنيا واعتقاد ما بعد الموت، وقد بقيت الإشارة إلى أن الفن وخاصة التشكيلي منه إنما يتقدم خاصة في أواخر الألف الرابعة، عندما وجدت أدوات صنعت من النحاس[58]، خلال العصر الكالكوليتي[59]المتميز بثورته على المعدن، هذه المادة التي أصبحت لها دور كبير في ديانة المجتمعات القديمة لاسيما منطقة فلسطين وسوريا ولبنان وحتى منطقة الأناضول.

الخاتمة:

تبين من هذا البحث أن التغيرات التي عرفتها منطقة بلاد الشام في فترة ما قبل التاريخ، كانت بمثابة تحول جذري مس الميادين الاقتصادية والدينية، وأدخل المنطقة في مرحلة جديدة تميزت بالتطور المادي والنضج الحضاري، وهذا راجع لاستغلال الطبيعة أحسن استغلالا وتأثير العوامل الخارجية وامتزاجها بالظروف المحلية، مما جعل الشعوب القديمة تبحث عن مناطق تتوفر فيها ظروف مناخية و اقتصادية من أجل الاستقرار و بناء الحضارة، وأضحت نظرية التميز الحضاري تأخذ مجراها في بلاد الشام خاصة في فترة العصر الحجري الحديث .

الهوامش :

*- أستاذ وباحث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران01، الجزائر.

1- محمد علي سعد الله، في تاريخ الشرق الأدنى القديم مصر، سورية القديمة، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر 2001، ص 233

2- نقصد بكلمة الشام فهي تسمية عربية للإقليم السوري كله ونعني اليسار أو الشمال بالمقابلة مع اليمين التي تعني اليمين أو الجنوب وذلك بالنسبة لأهل الحجاز للمزيد ينظر: نجيب ميخائيل، مصر وسورية في العصور القديمة، مطبعة جامعة الاسكندرية، 1958، ص08

4، ط "تاريخ موجز "حتي فيليب، العرب - ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 153 ، ص1991

4- سيف الدين الكاتب، أطلس التاريخ القديم، ط3، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 2009، ص06

5- يرجع أن العصر النبوليتي قد تميز بثلاث مراحل ترجع أقدمها أواخر الألف السادس أي ما بين 4053 ق.م و4592 ق.م للمزيد ينظر: عبد اللطيف أحمد علي ، محاضرات في تاريخ الشرقي الأدنى القديم، مكتبة بريدية، بيروت، لبنان، 1971، ص78.

6- سليم أحمد أمين، العصور الحجرية وما قبل الأسرات في مصر والشرق الأدنى القديم، ب ط، دار المعرفة الجامعية، مصر، ب ت، ص293.

7- نفسه، ص297.

8- كارلها ينز برنهردت، لبنان القديم، ترجمة: ميشيل كيلو، مراد زيان منى، ط1، قدمس للنشر والتوزيع، سوريا، 1999، ص25.

9- كارلها ينز برنهردت، المرجع السابق، ص25-26.

10- نفسه، ص26.

11- فلسطين مشتق من اسم "فيلستيا" الممتدة حتى جبل الكرمل، وغزة، ويذكر البعض أن اسم فلسطين أو فيلستيا ورد في وثيقة مصرية رسمية يعود تاريخها إلى حوالي 750 ق.م كما ورد في كتابات الجغرافيين الكلاسيكيين باسمpalestina" " ويذكر ياقوت الحموي وفي كتابه معجم البلدان أن فلسطين سميت "فيلستين" بن كلوحيم من بني يافت بن نوح .للمزيد ينظر، شوقي شعث، فلسطين أرض الحضارات، ط1، الأوائل للنشر والتوزيع دمشق، سوريا، 2000، ص8-9.

12- صالح البرغوتي، خليل طوطح، تاريخ فلسطين، ب ط، مكتبة الثقافة الدينية، ب ت، ص484.

13- سليم أحمد أمين، المرجع السابق، ص299.

41- تقع مدينة أوغاريت "رأس شمرا" قرب البيضا على بعد 11 كم شمال مدينة اللاذقية.للمزيد ينظر: الخطيب محمد،

الحضارة الفينيقية، ط2، دار علاء الدين للنشر، دمشق، سوريا، 2007،ص22.

15- جورج كونتينو، الحضارة الفينيقية، ترجمة : عبد الهادي شعيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر ،1997، ص40.

61- سيف الدين الكاتب، المرجع السابق، ص6.

17- كارلهاينز برنهردت، المرجع السابق، ص27

18- أمهز محمود، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان 2009، ص44.

19- عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص78

20- سيف الدين الكاتب، المرجع نفسه، ص7.

21- نفسه، ص7.

22- محمد علي سعد الله، المرجع السابق، ص227.

23- سليم أحمد أمين، المرجع السابق، ص299.

24- أريحا :وصفها البغدادي بكتابة البلدان فقال أريحا بالفتح ثم الكسر وياء الياء الساكنة والحاء المهملة، وسميت من قبل بأريحا بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وأريحا عند الكنعانيين تعني القمر مشتقة من فعل (يريحو) (yereho) واليرح في لغة جنوبي الجزيرة العربية تعني شهر وقمر، وهي مدينة كنعانية قديمة يعود تاريخها للعصور الحجرية أي قبل 7 آلاف عام، للمزيد ينظر: المرعي توفيق، قصة مدينة أريحا، "سلسلة المدن الفلسطينية (1)"، دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، ب ت، ص8-9.

25- شعت شوقي، المرجع السابق، ص13.

26- سبق الدين كاتب، المرجع السابق، ص7.

27- شارن شافية، حضارة مصر الفرعونية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص16.

28- lévêque (P) ; les premiers civilisations," des despotismes orient aux à la gréque, tome 01, France, 1987, P216.

29- خير نمر ياسين، جنوبي بلاد الشام تاريخيه وأثاره في العصور البرونزية، منشورات لجنة تاريخ الأردن، الأردن، 1991، ص17

30- الغسولية هي حضارة حجرية نسبة إلى تليلات الغسول وهو موقع في فلسطين في سهول الأردن على بعد 10 كيلا شمال شرق البحر الميت ويعود ذلك للعصر النحاسي . للمزيد ينظر: المدن الفينيقية " تاريخ لبنان القديم "، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1994، ص112.

31- سليم احمد أمين، المرجع السابق، ص330.

32- سعد الله محمد علي، المرجع السابق، ص228.

33- عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص79.

34- ف-دياكوف، س-كوفاليف، المرجع السابق، ص79.

35- نسبة إلى تل حلف الواقعة قرب مدينة رأس العين عند مصب نهر الخابور على الحدود السورية التركية للمزيد ينظر: سيف الدين كاتب، المرجع السابق، ص07.

63- أمهز محمود، المرجع السابق، ص80-81. - أوروك: وهي مدينة تقع ببلاد الرافدين، قامت تحت الحكم الأموي، تلاءمت مع مدينة لارسا وتحالفت مع مدينة بابل، فقد تزوج مؤسس هذه السلالة كاشيد (Kashid) مع ابنه سومر "إيل"، كما تقاربت أوروك مع مدينة إيسن، للمزيد ينظر، بشور أمل ميخائيل، تاريخ الإمبراطوريات السامية في بابل وأشور، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان ،2008، ص82

37- مرشد اليوسف، دموزي (طاووسي ملك) بحث في ديانة الكردية القديمة، ط1، ب.د، 1999، ص14-15.

38- الناضوري رشيد، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، "الكتاب الثالث" "المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1976، ص30. 39- حلمي محروس إسماعيل، الشرق العربي القديم وحضارته "بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة"، مؤسسة شباب الجامعية، الإسكندرية، 1997، ص104.

04- القصد من العقيدة هنا الاعتقاد الإنسان القديم ما قبل التاريخ حسب هواه الطبيعي.

41 - الميتولوجيا: كلمة يونانية تعني علم الأساطير القديمة وتتألف من كلمتي "ميتوس": وتعني حكاية، لوجي وتعني علم، للمزيد ينظر: مرشد اليوسف، المرجع السابق، ص13

42- سلطان محيسن، دمشق من مستوطنة إلى مملكة، دمشق عاصمة الثقافة العربية، جامعة دمشق، 2008، ص24.

43- سلطان محسين، بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ "الصيادون الأوائل"، ط1، الأبجدية للنشر، دمشق، سوريا، 1989، ص102.

44- الناضوري رشيد ، المرجع السابق، ص33.

45- نفسه ، ص33.

46- سلطان محيسن، المرجع السابق، ص29-30.

47- مهران محمد بيومي ، المرجع السابق، ص113.

48- سلطان محسين، المرجع السابق، ص102.

49- سلطان محيسن، المرجع السابق، ص30.

50- حسين عبد الله، تاريخ ما قبل التاريخ، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر2012، ص82.

51- نفسه ، ص100.

52- Boustani (M .H) ; le néolithique du Liban dans le conteste proche-oriental état des connaissances, Annales d'histoire et d'Archéologie(A.H.A), Vol 12-13, Paris, 2001-2012-p20.

53- كارلها ينزر برنهردت، المرجع السابق، ص28.

54- سلطان محيسن، المرجع السابق، ص30

55- الناضوري رشيد، المرجع السابق، ص34-35.

56- سلطان محسين، المرجع السابق، ص103.

57- كارلها ينزر برنهردت، المرجع السابق، ص28.

58- مهران محمد بيومي، المرجع السابق، ص115.

59- العصر الكالكوليتي: ورد في قاموس ما قبل التاريخ بأن أصل الكلمة افريقية ويعني بها النحاس والمعدن والحجر، وهي فترة زمنية حضارية عرفت فيها صناعة الأدوات من الحجارة مثل الفؤوس المصقولة، والفؤوس الحجرية إضافة إلى أدوات أخرى للمزيد ينظر:

André)L.G(, Dictionnaire de la préhistoire, 2 édit –P.U.F, université saint-joseph-Beyrouth , S.d ; P216.

مسائل في الذاكرة والتاريخ من خلال كتاب "المؤنس" لابن أبي دينار.

عثمان البرهومي*

جامعة صفاقس.تونس.

ملخص :

يعتبر كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، أهم أثر لابن أبي دينار وأكثره شهرة، لأنه تقريبا المصدر الوحيد الذي يؤرخ للأحداث التي عرفتها البلاد التونسيّة في نهاية القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر. ويشير ابن أبي دينار إلى الظروف التي حرّره فيها، وهي ظروف أليمة من الوجهتين العامة والخاصة. حيث كانت البلاد التونسيّة مخضّبة بالدماء من جراء التقاتل بين أبناء مراد الثاني على الملك من جهة، وحاجة المؤلف إلى التأسّي بسبب مصائب عائلية من جهة ثانية، فكان بتأليفه " المؤنس " يسعى إلى الانشغال عن همومه. وكان يريد ان يسجل أحداثا كان يعتبرها جديرة بالتدوين،منها ما عاشه أو ما حفظته الذاكرة الجماعية. والذاكرة تعّبر على قدرة الإنسان على الاحتفاظ بعناصر من الماضي، و مثل كل شيء يمارس تأثيرا ونفوذا على الحاضر مقارنة بالماضي فإنه يعتمد على الذاكرة. وكأنه يراقب كيف تعاملت النخب في عهده مع التاريخ عبر التاريخ؟ ومهما كان الأسلوب الذي تم به الاحتفاظ بهذه الذاكرة شفويا أو مكتوبا، وقد عبر ابن أبي دينار بصفة جيدة ومختصرة عن هذه المسألة. إلا أنه كان يبحث في أغلب الأحيان على أن يوفر دليلا، لتتجاوز الكلمة مستوى الذاكرة وترتقي إلى وساطة وتاريخ.فهي إذن بالنسبة إليه بمثابة علاقة بين الحاضر والماضي الذي يساهم بدوره في إعادة بناء الذاكرة. وللإشارة فإن معرفته بالمرحلة التي عاصرها دقيقة جدا الشيء الذي مكنه من إثارة مسائل متصلة بالذاكرة، حيث تقلب في بعض الوظائف، فقد تولى القضاء في سوسة ثم في القيروان ، أيام الباي مراد الثاني (1666-1675م) وكان متصلا بهذا الباي وبابنه علي الأول (1675-1688م) ، وقد مدحهما بأشعار روى لنا بعضها في كتابه "المؤنس". وتولي ابن أبي دينار للقضاء مكنه من الإلمام بالفقه، ونظم الشعر، وتأليف كتاب في الأدب.

الكلمات المفاتيح:

ابن أبي دينار ، المؤنس ، الذاكرة والتاريخ ، الذاكرة الجماعية ، الذاكرة المجّالية.

Abstract:

Al-M'unis fi-Akhbar Ifriqiya wa Tunis, Of IBN *ABI DINAR (Mohammed b. al Qasim al-Qayrawani) ,*This work occupied an important place in the Tunisian historiography.

This book, formed by seven chapters, handles the history of the province of *Ifriqiya,* a name carried by Tunisia at that time, of the antiquity at the beginning of the Ottoman period which knows the country, via the Arab Conquest then via the various dynasties who followed one another.

The author to dedicate a big part of the work to tell, in detail, the main events following the installation of the Ottoman power in Tunisia and the history of the dynasty of the Beys Mouradites the direct witness of their reign of which Ibn Abi dinars were. The period of Mourad Bey II (1666-1675) and his 1st son Ali Bey (1675-1688).

The author tried to reflect one way or another the events which he lived at the end of XVII e century, and wanted to record events which he considered deserving appearing following those whom had registered the columnists of Hafsides.

Keywords:

Ibn Abi Dinar, Al M'unis, Memory and History, collective Memory, Spatial Memory.

Résumé :

Al-M'unis fi-Akhbar Ifriqiya wa Tunis, de *IBN ABI DINAR (Mohammed b. al Qasim al-Qayrawani) ,* est un ouvrage qui occupait une place importante dans l'historiographie tunisienne.

Ce livre, formé de sept chapitres, traite l'histoire de la province de l'Ifriqiya, nom porté par la Tunisie à l'époque, de l'antiquité au début de la période ottomane que connaît le pays, en passant par la conquête arabe puis par les différentes dynasties qui se sont succédé. L'auteur à consacrer une grande partie de l'ouvrage pour raconter, en détail, les principaux événements suivant l'installation du pouvoir Ottoman en Tunisie et l'histoire de la dynastie des beys mouradites dont *Ibn Abi Dinar* était le témoin direct de leur règne. L'époque de Mourad Bey II (1666-1675) et son fils Ali Bey 1er (1675-1688).

L'auteur a essayé de refléter d'une façon ou d'une autre les événements qu'il a vécus à la fin du XVII e siècle, et voulait consigner des événements qu'il jugeait dignes de figurer à la suite de ceux qu'avaient enregistrés les chroniqueurs des hafsides.

Mots clés :

Ibn Abi Dinar, Al M'unis, Mémoire et Histoire, Mémoire collective, Mémoire Spatiale.

مـــقدمـــة :

يندرج كتاب " المؤنس في أخبار إفريقية وتونس" **(ابن أبي دينار،أ،ع،م.1957)** للإبن أبي دينار – وهو: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار– ضمن التاريخ الشامل وهو فرع من فروع المعرفة، يهتم بكتابة تاريخ الدول وتراجم الملوك والحكام، ضمن أسلوب تطغى عليه كثافة الأحداث. إلا أن **ابن** أبي

دينار كان يسجّل الأحداث بذاكرة إخباري شديد الملاحظة والتنّبه، وبوعي سياسي شديد الحساسية تجاه سياسات العصبيات الحاكمة والهيئات النافذة في المجتمع (الأعيان والعلماء) من جهة، وبقية مكونات العامة في المدينة والأرياف من جهة أخرى. إلا أن ثقافته الفقهيّة التقليدية في تسجيل الأحداث تظل هي المرجع، سواء بصفة صريحة أو ضمنية في الحكم على التاريخ وعلى مساره وتحولاته ومشاهداته وعلى ما يتفاعل فيه وما يحصل ضمنه من انقلابات وحروب. وقد تبدو كأنها "اختلالا في الزّمن" و"انقلابا للمعنى" و"انعكاسا للموجود". إنّ التوجه الأساسي البارز لابن أبي دينار في كتابه "المؤنس" اهتمامه بالتاريخ الاجتماعي أو الزّمن الاجتماعي للمجموعات والكُتل البشرية وحركتها الذي يعنى بدراسة الدول والمجموعات والحضارات والأفكار... وهي تعمل **كقوى عمق في مجال الحرب والأحداث**، على حد تعبير **فرناند برودال Braudel Fernand** حيث يقول " *فالحرب ليست على الإطلاق مجال المسؤوليات الفردية.* " **(Braudel, F.1979, T1 :13).**

كما يعبّر ابن أبي دينار من خلال هذا الكم الكبير من المعلومات التي قدمها في كتابه، عن حالة ذهنيّة شديدة الالتصاق بواقع الأشياء، لكن هذه الحالة تظلّ متجاذبة بين تسجيل المؤرّخ ــ الإخباري وبين اندهاش المثقّف ــ الفقيه ، بالمقارنة الضّمنية مع ثوابت الذاكرة الفردية والجماعية.

غير أنّ الجديد في هذا الكتاب هو أن صاحبه سعى إلى الإلتزام التام بالأمّانة ودقة المنهج، لأن التاريخ كما يبدو ظاهريا، ميدانا سهلا للبحث والتأليف، لكنه في الحقيقة من أصعبها، لأن الإفادة في هذا الميدان تستوجب أن يكون العمل أصيلا وصادقا وقائما على حقائق. ويكون المؤرخ عارفا بمقتضيات التعامل والاستفادة من "**فضاءات التجربة**" " **Les espaces d'expérience** " على حد تعبير **جورج سمبران Jorge Semprun (Semprun, J.1996 :121)** . كما يصعب لأسباب نفسيّة عاطفيّة أو عقائديّة.

إذن ما هي الخصائص المميزة لأسلوب ابن أبي دينار في الكتابة والتدوين ؟ وكيف تعامل مع أحداث عصره ؟ والى أي مدى تمكن من توظيف الذاكرة خدمة لإتمام مشروعه التأريخي ؟

I . ابن أبي دينار يسجل بذاكرة إخباري شديد الملاحظة وبوعي سياسي شديد الحساسية.

يعتبر كتاب " المؤنس " لابن أبي دينار أهم أثر وأكثره شهرة، حيث يشير إلى الظروف التي حرره فيها، وهي ظروف أليمة من الوجهتين العامة والخاصة. فمن جهة كانت البلاد التونسية مخضّبة بالدماء من جراء التقاتل بين أبناء مراد الثاني على الملك، ومن جهة أخرى كان المؤلف في حاجة إلى نسيان مصائب عائلية، فكان بتأليفه " المؤنس " يسعى إلى الانشغال عن همومه. ويريد أن يتخلص من أفكار. فتتحول الكتابة بذلك إلى وسيلة للنسيان والتجاوز مثلما عبر عن ذلك **بيار برترون Pierre Bertrand** حيث قال " *نحن نكتب لنتجاوز عقبة* ".**(Bertrand,P.2007 :120)** كما سجل ابن أبي دينار أحداثا كان قد اعتبرها جديرة بالتدوين، منها ما عاشه أو ما حفظته الذاكرة الجماعية أو ما ذكره مؤرّخو الدولة الحفصّية. وبما أن الذاكرة هي قدرة الإنسان على الاحتفاظ بعناصر من الماضي، و مثل كل شيء يمارس تأثيرا ونفوذا على الحاضر مقارنة بالماضي فإنه يعتمد على الذاكرة. مهما كان الأسلوب الذي تم به الاحتفاظ بهذه الذاكرة شفويا أو مكتوبا، كما ذهب إليه **مارك بلوخ Marc Bloch**. **(Bloch, M.1993 :19)**.

ولئن كانت الكلمة تصدر عن الفرد فإنه يرتبط بها مصير المجتمع، وقد عبر ابن أبي دينار بصفة جيدة ومختصرة عن هذه المسألة، لكنه حرص في أغلب الأحيان على أن يكون لديه دليلا، لتتجاوز الكلمة مستوى الذاكرة وترتقي إلى وساطة وتاريخ بمثابة علاقة بين الحاضر والماضي الذي يساهم بدوره في إعادة بناء الذاكرة، على حد تعبير، بول ريكور **Paul Ricœur**

(Ricœur,P.2000 :182).

هذا دون أن ننسى أن مدى وعي ابن أبي دينار بخصوصيّة المرحلة السياسية التي عاشها ينطلق بدرجة أساسية من نجاحه في تبني واستخدام زمن الدولة وممارساتها وحتى منطقها في التعامل مع الأحداث السياسية خاصة المتصلة بمحاربة القبائل في المناطق الداخلية والمحاولات المتكررة لكسر شوكتها. وللإشارة فإن معرفة صاحب كتاب " المؤنس " بالمرحلة التي عاصرها دقيقة، حيث أثار مسائل متصّلة بالذاكرة، إذ تقلب في بعض الوظائف، فقد تولى القضاء في

سوسة ثم في القيروان، حيث كان قاضيا بهذه المدينة أيام مراد الثاني (1666-1675م) وكان متصلا بهذا الباي وابنه علي الأول (1675-1688م). وقد مدحهما بأشعار روى لنا بعضها في كتابه " المؤنس".

ولعل تولي ابن أبي دينار للقضاء وأبوه كان فقيها قيروانيا جعله ملما بالفقه وناظما للشعر ومؤلفا لكتاب في الأدب، يدلان على اطلاعه الواسع على أوضاع عصره. لكن لا ينبغي الإفراط في تقدير منزلته في الميدان الأدبي. فشعره يعوزه طول النفس والابتكار وهو من النظم المبتذل، كما أن أسلوبه في النثر ليس من أسلوب البلغاء.

رغم أننا لا نعلم بالضّبط تاريخ وفاة ابن أبي دينار، فمترجموه يجعلونها بعد سنة 1092 هـ / 1681م، وهي آخر سنة ذكرت في كتاب المؤنس، ويبدو أن محمد مخلوف وحده قد ذكر في " شجرة النور الزكية" إلى أن معاصرة ابن أبي دينار لأعلام وفقهاء ونبهاء، تدعونا إلى أن نعتبر وفاته قد وقعت بعد السنوات العشر الأوائل من القرن الثاني عشر للهجرة. فقد كان حيا قرب سنة 1110هـ / 1698م. **(مخلوف، م. 1930:ج 1: 307)**. و هذا ما يجعلنا نقول أنه كغيره من المؤرخين لا يرى الماضي إلّا من خلال عصره ، أي أنّه لا يستطيع التخلي عن مفهومات مجتمعه والآراء السائدة فيه ، وفي هذا خير كثير للتاريخ والمؤرخين، فالمؤرخ – بصفته خادما للجماعة الإنسانيّة – ينبغي أن يكتب تاريخه في صورة ذات معنى وأهمية لأبناء عصره. وهذا المعنى وتلك الأهمية يعبر عنهما المؤرخون بما يسمّى " ارتباط التاريخ بالحاضر". فإذا لم يكن الحدث التاريخي الماضي ذا ارتباط بالحاضر، فلا قيمة حقيقية له. وما دامت للتاريخ تلك الأهمية بالنسبة للمجتمع، فإن أحسن تاريخ يمكن كتابته ينبغي أن يكون أقرب ما يمكن إلى الحقيقة.

إضافة إلى أن صاحب "المؤنس" تفطن منذ القرن السابع عشر إلى بداية تشكّل، "الذاكرة المجالية"، لما أصبحت تسميه الإسطوغرافيا التونسية ب "إفريقية" و "إيالة تونس" ثم لاحقا "تونس" (أي البلاد التونسية) **(Henia, A, 2007 :62)** ، أي تشكل مجال الدولة الترابيّة، مجال موحد للانتماء الاجتماعي والسياسي ومن هنا نفهم دفاعه المستميت على هذه الدولة أي الدولة المرادية واستخدام القوّة ضدّ القبائل

المتمسّكة بالسلطة المحليّة والرافضة لنفوذ المركز. وضمن هذا المجال ترسم الملامح النهائية لذاكرة من نوع آخر وهي "الذاكرة السياسيّة"، المنطلق الأساسي لبناء الدولة المركزية والتي ستصبح حسب تصّوره المصدر الأول والوحيد للولاء السياسي والمذهبي والاجتماعي. هذا إضافة إلى أن ابن أبي دينار كان ضمن مجموعة من المؤرخين الذين سخّروا إمكانيّاتهم العلميّة والمعرفيّة لخدمة السلطة الحاكمة ومن هذا المنطلق كان كتاب "المؤنس" مخصّصا في جزء كبير منه إلى العائلة المرادية الحاكمة و إلى سندها الاجتماعي أي أعيان المدن.فهو أصيل مدينة القيروان وسكن بسوسة حيث مارس القضاء، كما أقام بالحاضرة أين تعاطي القضاء واتصّل بفئة العلمّاء والمثقفين. لكن بأي حال من الأحوال ومهما كانت رغبة السّلطة الحاكمة على مر العصور في توظيف التاريخ لتبرير ممارساتها الجائرة أو الدّعاية لسياستها. فإنه لا يمكن الجزم بالقول أن ابن أبي دينار قد نصّب نفسه وصيا على الدولة وحاميا ومشّرعا لها.

ونتساءل عن الأسباب الكامنة وراء هذه النّظرة الخصوصية التي آمن بها ابن أبي دينار.هذه الأسباب هي: أولا، انتماؤه إلى الأعيان والمجتمع المديني فهو أصيل مدينة القيروان. وتنقل للعيش والاستقرار بمدن أخرى أهمها الحاضرة حيث انتمى إلى نخبتها وبالتالي كان ضمن هذه الفئة الداعمة للطبقة الحاكمة.

ثانيا، عمق ممارسته العملية والسياسيّة، فقد عايش الصراع العائلي أثناء حكم الدولة المرادية إثر وفاة مراد الثاني سنة 1675م. وبانخراطه في هذا الصراع وانحيازه إلى شق دون آخر، قد راكم تجربة أضافها إلى تجربته الواسعة. وهذا ما جعله ينجح في كتابه هذا من خلال استعراض ما عاينه من تمثلات مختلف الفاعلين الاجتماعيين للحراك السياسي.**(عيسى، ل ، 2015: 68)**

وانطلاقا من استعراض الأحداث السياسية والتعليق عليها وبناء موقف حولها، تفطن ابن أبي دينار إلى أن الزّمن مقولة عقلية وليس مقولة طبيعيّة. فهو إذن مرتبط – الزّمن – بتجربة البشر لذلك له بداية كما له نهاية وهو مرتبط بالذاكرة.وهذا ما عبر عنه **عبد الله العروي** إذ يعتبر الزّمن " تجربة إنسانية، يرتبط بالذاكرة والوعي البشري" **(العروي ، ع، 2008: 42).**

هذا وقد كان ابن أبي دينار، واعيا على الأقل في كتابه هذا – "المؤنس" – لما يمكن أن يتعرض له المؤرخ من مصاعب وخاصة فيما يتصل بالاهتمام بحوادث لم تعد قائمة و لا يستطيع أن يستحضرها إلا بفعل ذاكرة الآخرين. حيث يقول " وسمعت من أهل الحاضرة من يقول..." ويضّيف في مناسبة أخرى قائلا " وحيث بلغنا ما أردناه من الأخبار السابقة نضّيف بحول الله وقوته ما تيسر لنا من الأخبار ". **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 179،178)**

والمؤرخّ الواعي لعجز المفروض عليه بسبب وضعه مكانا وزمانا (بالنسبة للأحداث التي يؤرخ لها)، ينبغي عليه أن يجتهد في تلافي التشويه والتحوير اللذين ينتجان عن اختلاف الزّمان والمكان. ومن هنا يبرز التحول في التعامل مع الأحداث الشيء الذي يجعل من " مهنة المؤرخ " على حد تعبير مارك بلوخ **Marc Bloch (Bloch, M.1993 :10)** أو " فن التاريخ " على حد تعبير ابن خلدون، **(ابن خلدون،ع.2003: 8)**، مهنة أو فن فإنها تتطلب حدا أدنى من تقنية الإعداد لمعطيات ولمصادر تمكّن المؤرخ من النجاح في مهمته من خلال جهد معرفي يقوم على حركة " ذهاب وإيّاب " بين الماضي والحاضر وبالتالي فإن فهم التاريخ يقوم على حركة تجاذب لا تهدأ بين الماضي والحاضر، إذا الماضي يساعد على فهم الحاضر والحاضر يساعد على فهم الماضي،

(Hartog,F.2005 :179,190) ومن هذا المنطلق يمكن أن نعتبر كتاب "المؤنس" لابن أبي دينار ، يستجيب لموضوعية مردّها الانطلاق من إحدى صور الذاكرة القريبة التي تخفي صورا من الذاكرة القديمة والتي تعامل معها بحذر ووعي سياسي شديدين.

II . مسائل في التاريخ يثيرها استذكار حملة الإسبان على تونس لسنة 1535 م.

من الواضح أن المؤرخ إذا اضّطر إلى تكديس كل هذه المعلومات والأحداث التاريخيّة، فإنه يستطيع إيجاد الخيط الرابط بينها، وهو بهذا الجهد يسعى إلى الفصل بين المعلومات ومسّبباتها، وجعل الأحداث متسلسلة لأن هذه الأحداث قد تفلّت عن كل اختبار يمكن أن يخضعها إليه المؤرخ أو الكاتب.

وبما أنّ المؤرخ لا يجرؤ على التماسك في تتابع متلاحق الأجزاء، فإنه لا يقوى

على الارتفاع إلى "القصص التاريخي"، حتى وإن اتصل ذلك بأحداث لم تسقط من الذاكرة الجماعية، ومثلت منطلقا لفهم الخصوصيات الذهنية، لسكان مدينة تونس في التفاعل مع أمر فرض عليهم بسبب ما وصلت إليه الدولة الحفصية من وهن خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وعدم قدرتها على مجابهة تداعيات تدخل قوى خارجية(أتراك/ إسبان) ذات استراتيجيات متقابلة. ومنطلقات متباينة سياسية و دينية.

كانت حملة الإسبان سنة 1535م على تونس التي تحدث عنها ابن أبي دينار بتفاصيل وبإطناب. وفي حديثه عنها كان قد التجأ في أحيان كثيرة إلى التكرار- وهذا ما اعتبره بعض الدارسين أحد عيوب هذا المؤلف – غير أن هذا التكرار يبدو محمودا إذا تأملناه بصفة دقيقة، فقد اعتمد ابن أبي دينار على مصادر متنوعة شفوية أو كتابية هذا ما يفسر روايته الطويلة والمفصّلة للأحداث، فكان لتناوُله للذاكرة تأثيرا كبيرا جعل منها أحداثا جوهرية ، واختبارا للذاكرة وللمؤرخ على حد سواء.

ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه من تنوع مصادره قوله تباعا "وجدت في بعض التواريخ..." ويؤكد ذلك بالقول "إن صاحب التقييد الذي نقلت عنه هذا التقييد يقطن بـ ..." أو يقول بأنه يتذكر "أن اطلعت على ذلك في رسائل لبعض شهود عيان... ". إضافة إلى استخدام مصادر شفوية فيقول صدر ذلك عن "بعض سكان تونس..." أو أن يقول بأن "رجل استقى الخبر من شاهد عيان...." **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 191،188)**

وتتلخص أحداث هذه الواقعة في هروب السلطان الحفصي، أبو محمد الحسن (حكم بين 1525و1542م) والاستنجاد بملك إسبانيا آنذاك شارل الخامس Charles Quint لمّا دخل خير الدّين بربروس محاولا ضم تونس للأراضي العثمانية سنة 1534 م . نتج عن ذلك حملة كبيرة أعدّها شارل الخامس، احتوت على أكثر من أربعمائة سفينة تسعون منها ملكية وتحمل أربعة وعشرين ألف جندي وخمسة عشر ألف فرس ولم يكن باستطاعة خير الدّين مواجهته. وقد استعد ملك اسبانيا استعدادا عظيما فأتمّ استعداده وأقلع من مدينة برشلونة يوم 31 ماي 1535م وكان أمام مدينة قرطاجنة وسواحل مدينة تونس يوم 16 جوان1535م. ولم تكن القوة الّتي بين

يدي خير الدّين كافية لردّ الهجوم فانهزم. حيث باشر الإسّبان قصف منطقة حلق الوادي (بضواحي مدينة تونس) فاستولى عليها ثمّ زحف إلى تونس ودخلها ، وأرجع الملك الحفصي الحسن إلى عرشه بعدما دخل في حمايته وأمضى معه معاهدة 6 أوت 1535م.

(Boubaker, S.2011 : 34,35)

وقد عمد ابن أبي دينار إلى إعطاء هذا الحدث ما يستحقه من الاهتمّام وأكثر، نظرا لما احتفظت به الذاكرة الجماعية من تفاصيل، ولأن أحد الأطراف أقرب إلى أهل البلاد وللمؤرخ على الأقل من حيث الانتماء إلى نفس الديانة (الإسلام) في حين الطرف الثاني من (النصارى). فقد احتفظت الذاكرة الجماعية بأدّق التفاصيل المتصلة بالتجاوزات وممارسات الإسبان، بمدينة تونس، حتى بعدما تحقق لهم ما أرادوا وأصبحت البلاد تحت وصايتهم ، ورغم أن ابن أبي دينار لا يقدم تفسيرات فيما يتصل بهذه الوقائع فقد اجتهد في التبليغ بأسلوب التأسي لما أصاب سكان مدينة تونس فيقول "ولما دخل الحسن إلى قصّبته واطمأنت الناس وقعد كل صانع في صناعته وأهل الرّبع فتحوا ربعهم واطمأنوا في أماكنهم، دهمهم عدو الدين فهجمت النصارى عليهم على حين غفّلة في قائلة والأسواق مفتوحة، فأخذوا ما فيها من الأمتعة وقتلوا أهلها وسبوا خلقا كثيرا وفرّ الناس بعيالهم ممن قدر على الهرب ورحلوا إلى ناحية زغوان..." **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 164)**. ويعتبر ابن أبي دينار هذه الواقعة وما خلفته في نفوس الأهالي من الأسباب الحقيقية وراء نهاية الدولة الحفصية وفقدانها لمكانتها كعنصر مُوحد لإفريقيّة، وهي بالنسبة إليه فرصة لاستخلاص العبر خصوصا وأن الفترة التي عاصرها أي أواخر القرن 17م قد عرفت أحداث شبيهة وآلت إلى نفس النتائج.

هذا مع العلم أن صاحب كتاب المؤنس قد تأثر كثيرا بهذه الأحداث الشيء الذي جعله يدمجها في تصّوره لذاكرة هذا المجال الذي يسمى "افريقية". ويعود ذلك حسب المؤرخ **عبد الحميد هنية** الى محاولة "إعادة تشّكيل الذاكرة المجّالية التي تزامنت مع مجّهود الجّرد والتصّنيف والكّتابة والبنّاء " **(Henia, A, 2007 :64)**.

ولعل أسلوب ابن أبي دينار كان مميزا في تدوينه للأحداث وإبرازها ضمن سياق تاريخي، إلى درجة أنها تصبح جزءا من الحاضر وراسخة فيه، حيث يقول في

موضع آخر وبصفة متصلة مع هذا الحدث بأن "هذه الواقعة هي المعبر عنها **بخطرة الاربعاء**، وكان السلطان أباح البلد للنصارى ثلاثة أيام، وإلى هذه الواقعة أشار العالم ابن سلاّمة في قصيدته التي يتشوّق فيها إلى تونس ويندّب أطلالها...وقيل في هذه الواقعة أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث، وسمعت من شيوخ البلد من يقول عدد كل ثلث ستون ألفا والله أعلم بحقيقة ذلك". **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 164)**. ولهذه الواقعة صدى في كتابات المؤرخين التونسيين، فقد ذكرها أحمد بن أبي الضياف بقوله " وذلك أن الصّبنيول اشترط على هذا السلطان الحسن إستباحة البلاد ثلاثة أيام...فبينما الناس في سكون عافية واغترار بحُلَب ذلك الأمان، وأسواقهم مفتوحة، اذ هجم عليهم عسكر الصّبنيول – على حين غفلة – وامتدت أيديهم لاغتيال النفوس ونهب الأموال، وفرّ إلى جبل زغوان من أمكنته الفرصة بنفسه وأهله، يقال: في هذه الواقعة مات الثلث من أهل تونس، ونجا الثلث، وأسر الثلث ، والمأسور يفتدى إن كان له مال، وبلغت الفدية ألف دينار وتغيرت البلاد وطمست أعلامها، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين وتسعمائة (941 هـ / 1534م)". **(ابن أبي الضياف ، أ. 1999، ج 2: 13)**.

كما يرتقي ابن أبي دينارا بالحدث التاريخي من صبغته المجرّدة، فيكون معه مشحونا بأبعاد ذاتية وعاطفية وإنسانيّة، تكون ضامنا لدوامه واحتفاظ الذاكرة به على مدى طويل وبالتالي من غير المعقول أن يتم تجاهله من طرف المؤرخ. فقد جعل ابن أبي دينار من العام الذي حصلت فيه الواقعة سنتها ولا شيء غيرها يميزها، وبالتالي يتمدّد الزمن ويقصر حسب قيمة الحدث ، فيقول " وبعد سنة **الأربعاء** جمع الحسن عربانا وجمع جموعا وخرج إلى القيروان لقصد افتكاكها من يد الشّابيين، (نسبة إلى الحركة الشّابية التي أسسها أحمد بن مخلوف الشّابي خلال النصف الثاني للقرن الخامس عشر) فلما قرب منها ونزل باطن القرن خرجت إليه أهل القيروان فكبسوه ليلا فانهزم هو ومن معه وأخذت أمواله ورجع مكسّورا ، فأقسم لا يرجع عنها بحال عزم على أخذها بالنصارى كما أخذ تونس" **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 165)**.

إن من الأشياء الظاهرة على الأقل في نقل ابن أبي دينار للأحداث التاريخية التي لم يعاصرها، وخصوصا المتصّلة بحالة الدولة

الحفصية، نوعا من الضبّابية وقلة الضّبط عند مقارنتها بالحالة التي كان يلاحظها في عصره، وقد اعتمد في ذلك على" **تاريخ الدولتين" للزركشي**. ويكّمله بمصادر أخرى أو بروايات شفوية. وباعتبار أن " تاريخ الدولتين " يقف قبل عهد السلطان الحسن الحفصي، وهو عهد مضطرب، اضطر ابن أبي دينار إلى التعويل على الأخبار الشفوية وحدها وهذه الأخبار لا تسمح له بتسلسل الأحداث. كما يقول "وهنا انتهى النقل الذي قيده الزركشي ولم اطلع على ما سواه إلا ما تلقيته من أهل الحاضرة ولهذا نأتي به جملا لا تفصّيلا، ولم أقيد نفسي بتاريخ الوقائع لقلة الضّبط ولم أجد من له اهتمام بهذا فأقول وبالله المستعان ـ سمعّت من يذكر ـ من أهل تونس.." **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 161)** .

III . الذاكرة الجماعية : ذاكرة انتقائية.

عند الحديث عن الذاكرة، يمكن الانطلاق من المفهوم الذي يعتبرها – الذاكرة – مجموع آليات تمثل الماضي واستحضاره، ومسارات تشكل هذا التمثل من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية.**(حبيدة، م، 2015 :153)**. لكن أن تتعلم عن التاريخ ما تمت كتابته شيء، وأن تختبره بنفسك شيء آخر، ذلك ما أراد أن يعلمنا ابن أبي دينار في كل مرة وهو يجعل مما عاشه خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، من أحداث منطلقا للوقوف على خصائص الفترة السابقة ليعود بنا أحيانا إلى أحداث بعيدة في الزّمن ولكنها تحمل أكثر من دلالة ولم تسقطها الذاكرة الجماعية،) **Joutard, Ph, 1986 :449** (، ويعتمد في تناول هذه الأحداث أسلوب "الفلاش باك Flashback" فقد كان يستعمل مصطلحات دالة على هذه الاستطرادات خصوصا إذا كان ذلك متصّلا بأحداث عسكرية ولا يريد إغفالها أو إسقاطها فنجده يقول "وما استطردت إلى هنا إلاّ لارتباط الحديث لأن أول الحرب وقع في هذا المقام عدة أيام، ولما تيسر ابتداء الفتح بحلق الوادي كان في البسّتيون[المعروف في تونس بقلعة الإسبان بحلق الوادي] التمام " ثم يضيف مؤكدا نفس الحدث" ولنرجع إلي خبر حلق الوادي ومآثره، ونسوق الكلام إن شاء الله من أوله إلى آخره " **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 189)** .

ويعود ابن أبي دينار أحيانا من خلال هذه الاستطرادات وبنفس الأسلوب إلى سرد

أخبار ولاة إفريقية خلال العهد الأغلبي، ويبقى أهم مصدر له في ذلك ابن شباط. وقد أورد تاريخ الأغالبة في بضع صفحات بحسب تتابع الأمراء. **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 51،52،53).**

كما أن ابن أبي دينار كان يذكرنا من خلال كتابه "المؤنس" في كل مرّة أن الواقع الذي عاصره، مختلفا تماما عما كان عليه سابقا، ولذلك يبرز أسلوب التأسي والندّم على هذا الماضي باديا في أسلوبه وتكرر مفردات مفادها ذلك عند الحديث عن مدينة تونس، حيث يقول " كانت قبل اليوم في ذروة الشرّف، وأهلها في نعيم مقيم في الدّعة والترّف. إلى أن قدّر الله علينا بخطوب وأي خطوب. وقابلها الزّمان بعد التبسم بوجه قطوب، فتكدّرت أحوال أهل البلد " **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 5).**

ولئن أعتبر كتابه "المؤنس " مواصّلة لكتاب "الأدلّة البينّة النورانيّة على مفاخر الدّولة الحفصيّة " **لابن الشماع،** فإن أسلوبه فيه نوع من التمجيد للأحداث وهذا مفهوم إذا علمنا الإطار الذي كتب فيه ابن أبي دينار كتابه، وهو النصف الثاني من القرن السابع عشر، حيث كانت سلطة الدولة المرادية تتجه نحو التفكك وهو ما يذكر بما عاشته الدولة الحفصية من تفكك وتراجع الشيء الذي أدى إلى تدخل قوة خارجية أي الدولة العثمانية لإنقاذ البلاد، فكانت حملة الوزير سنان باشا سنة 1574م والتي أطنب في وصفها ويقول "...أن العمارة المنصورة بلغت إلى مستقرها من حلق الوادي يوم أربعة وعشرين في ربيع الاول ونزلوا للبر على بعد من رمية المدافع ونصبّوا اوتاقاتهم ، وارتجت الأرض بأصوات مدافعهم ورنين مكاحلهم وانزلوا المدافع الكبار التي أتوا بها لهذا القصد. ورموا بها من البعد. إلى أن علا الدخان وصار النهار يحاكي الليل". **(ابن أبي دينار، أ،ع،م. 1957: 189).** وفي هذا الإطار كانت النخبة المفكرة من إخباريين وفقهاء ورجال علم، مستجيبة للسلطة السياسية أو هي ممتثلة لما كانت تحتفظ به الذاكرة الجماعية من أحداث، من مميزاتها أنها انتقائيّة حيث تحتفظ الذاكرة الجماعية وفي أغلب الأحيان بما يبرر وقائع وممارسات أصحاب السلطة والنفوذ. **(Viaud, J, 2002 :24)** كما أن كتاب المؤنس لابن أبي دينار والذي ألفه صاحبه خلال القرن السابع عشر ميلادي، كان قد وضع الأسس لتاريخ مركزة السلطة مع البايات المراديين. **(Henia, A, 2006 :100) .**

و من هذا المنطلق كان من الضروري التمييز بين نوعين من التاريخ: تاريخ الذاكرة الجماعية و تاريخ المؤرخين. إذ أن الذاكرة الجماعية أسطورية بشكل أساسي و مشوّهة. تخلط الأزمنة و لكنها على كل حال هي حالة المعيش للعلاقة التي لا تنتهي بين الماضي و الحاضر. ومهما يكن فإنه من المطلوب أن يقوم الخبر التاريخي الذي ينتجه المؤرخون المحترفون، بتصحيح التاريخ التقليدي المغلوط، إذن فإن التاريخ يضيء الذاكرة و يساعدها على تصحيح أخطائها.

إن المشكلة تبرز عند تناولنا بالدرس أثرا مثل "المؤنس" لابن أبي دينار، حيث وجب الفصل بين مستويين : مستوى العمل التاريخي الذي يتوخى "العلمية" و "الموضوعية" و مستوى تعبيرات الذاكرة الجماعية التي في الرواية و الثقافة الشفهية و العقلية والذاتية. بل وأيضا في السلوك و المواقف و الرموز بل أن الذاكرة غالبا ما تخترق الخطاب التاريخي مهما كانت حصانة ذلك الخطاب من ناحية المنهج و الأسلوب.

و إذا ما توقفنا عند هذين النموذجين التاريخيين المشار إليهما. كي تحاور التقاط الخط الرابط ما بين الأزمنة التاريخية، فإننا نعي تواصلها دونما خلط. و لنعي تمايزها دونما قطع وجب تجاوزها في الحاضر عبر وعي تاريخي قادر على التمييز بين الماضي و الحاضر و قادر على التمييز بين الذاكرة و التاريخ و أعني بالذاكرة الصور الواعية و غير الواعية المخّتزنة و المكرّرة و أحيانا المعدّلة أو الأحاديّة، أما التاريخ بما هو البحث الواعي و الجهد المعرفي بأحوال الناس و المجتمعات و الحضارات. لا يستثني الاهتمام بالزّمن الثقافي والزمن التاريخي لأنهما في حالة تطور. و التاريخ بما هو بحث و وعي يمكن أن يُحيي في ظروف مواتيّة جوانب مشرقة من الذاكرة جوانب تستحضر صورا من التفاعل الحضاري و التأثيرات المتبادلة (**العروي ، ع، 1992 : 14)** ، لا صور المآسي وحدها، وهو ما كان طاغيا على كتاب "المؤنس"، وعلى الأقل مؤثرا في انتقاء الأحداث من طرف ابن أبي دينار.

وفي استقصاء الأحداث عوّل ابن أبي دينار على الذاكرة وعلى بعض الوثائق المكتوبة إلا أن تعويله عليها لم يكن كبيرا ، وربما أراد صاحب "المؤنس" أن يبرز لنا قدرا من موهبته كإخباري ومؤرخ وإلا فإنه لا فرق بين مؤرخ وآخر إلا فيما يتعلق بدرجة

القدرة على جمع الوثائق، وهذا طبعا غير صحيح، فإن موهبة المؤرخ لا يمكن إغفالها، والمؤرخ لا يمكن بأي حال أن يكون بمثابة، رجل يقضي عمره لاهثا بين مكتبة وأرشيف وثائق أو مخطوطات. فالمؤرخ الجيد ليس عبدا للوثائق والمخطوطات، وإنما هو ناقد لها يختار منها ويكتب كلاما حيا يخاطب عقول الناس في كل عصر. ونجده مدافعا على مواقفه مما يراه جديرا بالحكم إذا كان يقدم لنا عصر السلطان أبو عمر عثمان (حكم بين 1435و1488م) كآخر مرحلة لقوة الدولة الحفصية، ويستند في ذلك إلى علماء (فقهاء) القرن السادس عشر أمثال البرزلي وابن ناجي والرصّاع...

إذن من المهم القول أن التاريخ، هو إعادة كتابة وإعادة تفسير مستمرة ومتلازمة أي أن المؤرخ لا يكتفي بالتفسير فقط والتبرير، وإنما في تفسيره لأحداث قديمة كتابة جديدة تفضي على هذا الحدث والواقع صيغة جديدة ومن هنا تأتي إضافة المؤرخ. وهذه العملية المستمرة تلقي ضوءا على الطريق الذي نسير فيه، فنحن عندما نرى كيف كان أجدادنا أسرى أوهام عصورهم استطعنا أن نتجنب أوهام عصرنا، وفي هذه الحالة تكون دراسة التاريخ قد نفعتنا وارتفعت بمستوى إدراكنا ولو إلى حد ضئيل، ومن هنا تجيء فائدة قراءة ما كتب الماضون من صفحات التاريخ، فإن المؤرخ الذي لا يفعل ذلك لا يقل بعدا عن المنهج الصحيح من ذلك المؤرخ الذي يقدّر قيمة الكتب، التي هي نتيجة إلى تحويل الذاكرة من انفعالات إلى معطيات واقعية تطمح إلى أن تكون موضوعية.

خـــاتمة .

لقد كان كتاب "المؤنس في أخبار افريقية و تونس" لابن أبي دينار الذي أصدره في آخر القرن السابع عشر ميلادي، محلّ جدل بين عدد هام من المؤرخين، نظرا لأسلوبه العام في جمع المعلومات،إضافة إلى أنه ينقل أحداثا وأفكارا عن الذين سبقوه وعاصروا الدولة الحفصية دون التحري، أو مقارنتها بما قيل في مواضع أخرى. لذلك يرون بأنه لم يكن له فائدة سوى أنه احتوى معلومات حول أحداث القرنين السادس عشر والسابع عشر، لم يذكرها غيره.

كما أن "المؤنس " أول كتاب يؤرخ، في مصنّف واحد لتاريخ افريقية أي البلاد التونسية اليوم تقريبا، من دخول المسلمين إليها إلى عهده، مسطرا بذلك إطارا تاريخيا وزمنيا لم يسبقه إليه أحد. كما أن المؤرخين

قبله اقتصروا على تاريخ الدول والعائلات الحاكمة والفترة التي يعيشونها ليجعلوا منها إطارا لكتاباتهم، وفي بعض الحالات المتميزة، كتاب عام يؤرخ للإنسانية منذ بدايتها. " اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر من الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها". **(ابن خلدون، ع ، 2003: 27)**. وفي أغلب كتب هؤلاء لا نجد شيئا عن تاريخ ما قبل الإسلام، بينما كان ابن أبي دينار ممجّدا لتونس في العهد القديم، مفتخرا بمعالمها العجيبة، وتقاليد أهلها الفريدة بين الأمم، خصوصا وأنه تناول في آخر الكتاب أهل الحاضرة وأطنب في الحديث عن عاداتهم وتقاليدهم بكل إعجاب. ولئن لم يكن كتابه "المؤنس " متضمّنا لعدد من الوقائع التاريخية، ولا تحوز الفترة العثمانية التي عاصرها، أكثر من ثلث الكتاب. لم يمجد ابن أبي دينار باي عصره فقط، مراد الثاني (حكم بين 1666 و 1675 م) و ابنه علي باي (1676 و 1686م) بل كان من أنصاره، ولذلك اعتبره عدد من الدّارسين مؤرخ البلاط والسلطة، لكن في واقع الأمر وبطريقته الخاصة رسم الإطار الزمنيّ والجغرافيّ لافريقية، حيث يقول ابن أبي دينار لأهل عصره وللباي نفسه أنّ الدول تتعاقب، والأشخاص يتداولون على السلطة، وأن افريقية باقية دائمة، بثقافتها الخاصة وبعاداتها المميزة، وبأمجاد أهلها وبتاريخهم اللامع، قبل وصول الإسلام إليها و قبل مجيء العثمانيين، ومن قبل حكام الدولة المراديّة أصحاب السلطة آنذاك .

قائمة المصادر والمراجع .

❖ **المصادر والمراجع باللغة العربية :**

- ابن أبي الضياف (أحمد) ، 1999 ، ***إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان*** ، 9 أجزاء، تونس الدار العربية للكتاب.
- ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم) ، 1967، ***المؤنس في أخبار إفريقية وتونس*** ، الطبعة 3، تونس، المكتبة العتيقة.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، 2003، ***المقدمة*** ، بيروت– لبنان ، دار الكتب العلمية.

- برنشفيك (روبار) ، 1988، ***تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 الى نهاية القرن 15***، نقله الى العربية حمادي الساحلي ، 2 أجزاء ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي.
- حبيدة (محمد)، 2015، ***بؤس التاريخ ، مراجعات ومقاربات*** ، الرباط ، دار الأمان.
- عبد السلام (أحمد) ، 1993، ***المؤرخون التونسيون في القرن 17و18 و19 ، رسالة في تاريخ الثقافة*** ، نقلها من الفرنسية الى العربية أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي ، قرطاج تونس ، بيت الحكمة .
- العروي (عبد الله)، 1996 ، ***مجمل تاريخ المغرب*** ، الطبعة 5 ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- العروي (عبد الله)، 2008 ، ***السنّة والإصلاح*** ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- عيسى (لطفي)، 2015، ***بين الذاكرة والتاريخ ، في التأصيل وتحولات الهوية***، الدار البيضاء،أفريقيا الشرق.

❖ **المصادر والمراجع باللغات الأجنبية :**

- BLOCH Marc, (1993), ***Apologie pour l'histoire ou métier d'historien***, Paris, Armand Colin.
- BOUBAKER Sadok, (2011), « L'empereur Charles Quint et le Sultan hafside Mawlay al-Hasan (1525-1550) », in ***Empreintes espagnoles dans l'histoire Tunisienne*** . Etudes réunies Par Sadok Boubaker et Clara Ilham Ãlvarez Dopico, pp13-83. Espagne. BIBLIOTHECA

de Abdou FILALI-ANSARY.

- HENIA, Abdelhamid, (2006), « Quand l'historiographie tunisienne se fait « prisonnière de l'Etat » » in ***Savoirs historiques au Maghreb Construction et usages,*** pp 97-105, Coordination Sami Bargaoui et Hassan Remaoun , Oran , Editions Centre de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle.
- HENIA, Abdelhamid,(2007), « Historiographie moderne en Tunisie et mémoire de l'Etat (XVIIe –XIXe siècles) » in A. EL MOUDDEN, A. HENIA, A. BEN ARABO-ROMANICA ET ISLAMICA.
- BRAUDEL, Fernand, (1979), ***La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II***, Paris ,Armand Colin.
- HARTOG, François, (2005) « Temps du monde, Histoire, Ecriture de l'histoire » in ***Le Sens de l'Histoire. La raison aux prises avec la condition humaine***, pp 179-190. Actes du colloque tenu à Casablanca au siège de la fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les Etudes Islamiques et Sciences Humaines les 8-9 avril 2005, Sous la direction

HADDA (coordi), ***Ecriture de l'Histoire du Maghreb : identité, mémoire et historiographie***, pp59-80. Rabat , Faculté des lettres et des Sciences Humaines, Série Colloques et séminaires, N° 138.

- RICOEUR, Paul, (2000), ***La Mémoire, l'histoire, l'oubli***, Paris, Le Seuil.
- SEMPRUN, Jorge, (1996), ***L'écriture ou la vie***, Paris. Gallimard.
- VIAUD, Jean, (2002) « Contribution à l'actualisation de la notion de mémoire collective » In Laurens, Stéphane et Roussiau, Nicolas,(S.dir) ***Mémoire Sociale , Identités et représentations sociales***, pp 21-32. Rennes. Presses universitaires de Rennes.

*** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية. صفاقس. تونس.**

المقالات

العقل والعلوم التخريبية في ظل دراسات علم السياسة: مناظرة بين الانسان الاقدم والجديد لمستقبل علم السياسة

الدكتور ميلاد مفتاح الحراثي
استاذ زائر جامعة كيمبريدج/ كلية كلار/ بريطانيا

العقل بصفة عامة في عمقه وتفوقه عن سائر بقية الكائنات، يسعي من خلال تضحياته إلي كسر المسافة العقلية الموجودة بين نقطة الاحتكار والانتشار، لأنه يُريد الجمع بين الاحتكار والانتشار، وإنهاء حقب العداوة بينهما، وتحويل الاحتكار المعرفي إلي الاحتكار الجمعي للعقل. إلا أن ومن ضمن أخطائه سعيه الدائم إلي احتكار القوة، والي احتكار مراكز صنع مستقبله من طرف عقل الأقلية، وبالتالي أن القضاء، أو السيطرة علي المسافة بين الاحتكار والانتشار، وإعادة تشكيلها وسوف يصنعها إنسان جديد عن طريق انتشار العقل المدبر لكل الأشياء، من خلال تحويله لما يُعرف لدي الإنسان الأقدم بالسياسات، ويستبدلها بسياسات العقل Politics of Mind. هنا نختار علم واحد من العلوم الاجتماعية التخريبية التي أرهقت العقل العربي في مسيره ومجيئه، وهو علم السياسة.

وبسياسات العقل ومناهجها، وتطبيقاتها سوف يعيد الانسان الجديد النظر في فكرة مشروع الدولة والسلطة والحكم، وهل سوف تكون متناسقة مع سياسات العقل، أو قبولها أو رفض دورها؟ وهل من المأمول أن يعمل علي تصحيح وظيفتها؟ ومن هنا سوف تنتهي أسطورة عقل الدولة المدبر، وتتحول مؤسسة دولته إلي دولة العقل، ودولة الانتشار ضد دولة الاحتكار، ومن المأمول أن تنتهي فكرة الدولة الوطنية لتحل محلها دولة كوكب الأرض، لان الإنسان الجديد سوف ينطلق بعقله إلي تأسيس دول كوكبية جديدة في الفضاء الخارجي، وتتحول أساليب الاتصال الدبلوماسي، والعمل الخارجي إلي تأسيس علاقات دبلوماسية كوكبية مناسبة لظروفه.

فكرة الدولة والسلطة والحكم سوف تعود إلي لتنشئتها الأصلية لخيالات الإنسان الأقدم، لان فكرتها مبنية علي سلب واستعمار العقل، و مجتمعاتها و إفرادها، وهي التي تصنع لهم القوانين، ولها صفة الأمر والنهي، وتحدد لهم الخطأ والصواب، والممنوع وغير الممنوع، والخير والشر، والحرب والسلام، والاقتتال والعدوان، والسيطرة علي مدخلات ومخرجات عقل الإنسان الأقدم.

مراكز السيطرة لفكرة الدولة والسلطة والحكم سوف تتحول من عقل الإنسان الأقدم إلي عقل الإنسان الجديد ليعيد بدوره من جديد تفكيك شفرات فكرة الدولة والحكم والسلطة، وأحقيتها في السيطرة علي علومه ومعارفه العقلية، لأنه سوف يبحث عن دولة العقل، لا عن دولة الأمر، ولا عن دولة السيطرة علي العقل، والسلطة لدية هي سلطة العقل، والحكم لديه حكم العقل، ومن هنا فأنه سوف يكون معنيا بتقديم دولة العقل في أسمي مقاصدها ووظائفها، وسوف يكون الانجاز العقلي رمز دولته الكوكبية.

مشروع الدولة الوطنية، أو الدولة ألكبري، أو ألصغري أو المتوسطة، أو الدولة العميقة، أو الدولة الفاشلة، أو الدولة القوية، أو الدولة الضعيفة، أو الدولة المحايدة، مسميات سوف تنتهي من السياسات العقلية للإنسان الجديد، لأنه يقود حضارة مختلفة عن حضارة الدولة والسلطة والحكم التقليدي للإنسان الأقدم. وهو بذلك سوف يؤسس لدولة العقل مُسيرة بالعقل السياسي، والسياسات العقلية. لان فكرة الدولة الأقدم قائمة علي سلوك القمع والمنع، والتعطيل العقلي لرعاياها، وتعمل كذالك علي تحقيق مجدها علي حسابهم، دونما النظر إلي اعتبارات عقل رعاياها، ولأنها دائما تعمل علي نزع مكامن القوة العقلية من عقول رعاياها، وتُنسبها إلي عقلها القمعي المزيف، والدولة والسلطة والحكم ساحة لإصدار الأوامر إلي عقل رعاياها، الأمر الذي يناقض طبيعة أنشطة العقل للإنسان الجديد، ومن هنا فأنه من المأمول أن يتمكن الإنسان الجديد من تفكيك شفرات السلطة والحكم والدولة لدي أخيه الإنسان الأقدم، أو تعديلها، أو إرجاعها إلي موطنها الأصلي وهو العقل، حتى يتمكن عقله من توجيه سلوكها وتصرفاتها، وأوامرها إلي صالح عقل الإنسان الجديد.

والإنسان الجديد سوف يقدم عروضه لأفكار أخيه الإنسان الأقدم حول خيالاته، وصراعاته ومعاناته مع القوانين، والديمقراطية، والسلطة، وقوانين الحقوق والواجبات، والتنمية، والدستور والصراع السياسي، والسيادة، والمسؤولية، وقوانين الحرب والسلام، والأمن، والحرية، والاستغلال، وسوف يعمل على تخفيف وطئتها علي عقل رعايا دولة كوكبه، لأنها قيود يُفرضها عقل الدولة الأقدم.

ذلك الإنسان القادم من رحم أخيه الإنسان الأقدم، سوف يتمكن من إعادة تعريف الجينوم المعرفي لتلك المصطلحات، وسوف يُعدلها وفقا لقوانين العقل، وسلطة العقل، وحقوق العقل، وواجبات العقل، وتنمية العقل، ودستور العقل، وسيادة العقل، ومسؤولية العقل، وقوانين سلام العقل، وامن وحرية

العقل، وقوانين استغلال العقل. لان الدولة الكوكبية الجديدة سوف تكون قاعدة للمنتجات العقلية النافعة، والتي تقل معها فضلاتها، ولا حاجة لهُ للدولة الجابية للضرائب، والمتحكمة في تصريف إنتاجية عقله، وعقله سوف يوجههُ نحو إلغاء مراكز التذكر والتفكير في سلوك الدولة نحو الحروب، والاقتتال، والاستعمار ألقسري، والقمع، والعذاب، والتعذيب المشروع وغير المشروع، وتجريدها من كل وسائل التحكم والسيطرة علي عقل رعاياها.

وعندما تسود دولة العقل الكوكبي كوكب الأرض، وعندما يمتد شعاعها، وعقلها التنويري إلي الكواكب الأخرى، عندها تنتهي معها فكرة الدولة الأرضية، وتحل محلها الدولة الكوكبية، وتنتهي معها فكرة الجيوش العسكرية، والتجنيد العسكري، والعدوان العسكري، ومختلف أنواع الأسلحة الفتاكة والعسكرية منها، لان الإنسان الجديد قد أعاد برمجة حواسه وغرائزه، وتفكيك شفراتها، نحو شكل جديد لحياته، واستبعد منها كل المراكز المسئولة عن الندم والكذب، والنسيان، والعدوان، ومراكز تراكم الألم، ومركز الأنانية، وتدميره للجينات التي تعرقل عمل عقله، التي سببت له الحروب، والفقر، والمجاعة، وتكريس المظالم، والتشريد، والبطالة، والأمية العقلية، وتجهيله، وندرة الموارد، وتخليق الإمراض، واستنزاف موارد عقله وجهده لصالحها.

فدولة الإنسان الكوكبي الجديد القادم ليست بدولة عسكرية أو مدنية، وليست بدولة ديمقراطية، كما يحلو للإنسان الأقدم تسميتها، وليست بدولة دينية، وليست بدولة علمانية، وليست بدولة طائفية أو قبلية، أو عشائرية وبكل تأكيد سوف لن تكن دولة طوباوية، سكانها وحكامها من الملائكة، وهي ليست بدولة المدينة الفاضلة التي اخترعها الإنسان الأقدم من أساطير الأولين، ولكنها سوف تكون دولة تصنعها أساطير عقل الإنسان الجديد، ومن عقله وبعقله والي عقله، دولة ليست من صنع الخيال والأوهام. إنها الدولة الكوكبية الدائمة، وبعقلها الدائم بالإنسان الذي استدعي المستقبل إلي حاضرته، وتحكم في نفسه، وغرائزه وحواسه، بعد أن هذبها، وعدلها، وفك شفراتها المُعطلة لمسيرة عقله.

الإنسان الأقدم كان يخاف من نفسه، ويخاف على نفسه، ويخاف من الأخر، وبالتالي تشكلت لديه ثلاثية الخوف، ونشط خلالها مركز الخوف الثلاثي لديه، والذي نقله معه، عندما بدأ في تأسيس دولته، والتي تحولت فيما بعد إلي دولة الخوف. وما يسمي بالدولة الحديثة فأننا نجدها متأثرة بنظرية الخوف الثلاثي: الخوف من الداخل، والخوف من الخارج، والخوف من نفسها.

ومن هنا فأن مؤسسة الدولة كانت عامل من عوامل التعطيل العقلي لدي الإنسان الأقدم، وهي التي حاصرت عقله وحريته، وقولبته في قوالب مختلفة، وفقا لمصالحها ونواياها، ورغباتها، وسياساتها، وفرضت عليه مناهجها التعليمية والتربوية، والثقافية. لأن الدولة في ركيزتها، وفكرتها مُناقضه لقيام العقل بواجباته، وهي نقيض العقل وتصوراته حول نفسه، وعوالمه المتفردة بعطايا التفكير، وصنع المستقبل لرعاياه. الدولة الأقدم، الدولة الأرضية، ليست كالدولة الكوكبية، للإنسان الجديد، فرعاياها هم الإفراد الذين ينتظرون عطاياها، أما الدولة الكوكبية، فرعاياها العقول التي تصنع حاجة العقل ومتطلباته، وبالتالي سوف لن تكن هناك حاجة إلي العطايا الوهمية لدولة الإنسان الأقدم.

السياسة والعقل سوف تكون محل التفكيك، وإعادة التفكيك، عند الإنسان الجديد، بمعني هل للسياسة قانون يُعرف بالقانون السياسي؟ الإنسان الجديد سوف يكون قادرا علي تأسيس قوانين عقله ليصنع بذلك دولة العقل، وسوف يوظف عقله السياسي للقضاء علي كل مظاهر التفكك والصراع، والانتقام، والخلاف، والاختلاف والاحتكار، والتزوير، والانقلاب، والاستفتاء، والتمثيل، والتشريع، وكل أدوات السياسة التي أسهمت، وأرهقت عقل الإنسان الأقدم، والذي تحول مجال نشاطه العقلي من داخله إلي محيطه، وصراعاته حول استجلاب المتعة والمسرة والراحة.

علم السياسة الذي أسهم بدوره في تخريب مسيرة العقل السياسي، من خلال ادعائه أنه قادر علي توفير القوانين السياسية لرعايا دولته الأقدم، ظل ذلك الخليط من المعارف، طريقهُ نحو استجلاء دوره، وحول أدوات بحوثه إلي تكريس أنانيته السياسية، وأنانية دولته الأقدم، وأسهم بلغطه في تشتيت رعايا دولة العقل، وأسهم أيضا في دورة التعطيل العقلي، من خلال اجتهادات، وتوظيف خليط من المعارف والعلوم، والتي لم يكن قادرا أن يوفرها، وهو علم يدعي قدرته علي توفير سبل الراحة والإجابة علي كل أسئلة الإنسان الأقدم، حتى ادخل إنسان دولته الأقدم في سباق الأنانية المناقضة لسباق العقل، وأنه لم يعد علم أحادي التخصص والإجابة، لان كل إجاباته لقيط مختلف من التفسيرات والتنبؤات. وهو علم لم يتمكن بعد من تحديد موقعه في مصاف العلوم العقلية، وهو يقاد تارة إلي العلوم الإنسانية، والي العلوم الاجتماعية، أو العلوم الاقتصادية، أو القانونية، تارة أخري، وينافق كل العلوم الأخرى، ويدعي علاقته بها.

لقد أدعي علم السياسة مقدرته علي تحويل سلوك الإنسان إلي أرقام، لكنه، لم يكن قادرا علي توفير إجابات عن

مدي الاستفادة من تلك الأرقام إن لم تكن منسجمة مع توقعات العقل. وحاول الاعتداء علي مناهج العلوم الأخرى، منها الإحصائية والاجتماعية، والرياضية وقسم نفسه إلي عدة علوم منها علم الاجتماع السياسي، وعلم السياسات العامة، وعلم السياسة الخارجية، والسياسة الدولية، ونتيجة لذلك شرد طلبة العلم لديه، وأعدهم بؤس الإعداد، وحولهم إلي طاقات عاطلة، نظرا لزيف علومه، وتقنيات أدواته الغير مستوفاة لشروط البحث والتعليم العقلي، وهو علم من عائلة العلوم التبريرية، والتي تُبرر كل المُخالف للعقل، وتخالف عقل الإنسان الحداثي القادم.

علم السياسة لم يكن قادرا على تفكيك شفرات علومه، ويؤسس لجينات جديدة يتولاها العقل السياسي، ويصنع بذلك دولة العقل، لا دولة المنافع والمصالح المبنية على حساب مؤسسة العقل للإنسان الأقدم. لقد زج علم السياسة الإنسان الأقدم في أتون بناء دولة الإنسان الأقدم، واستغلاله لصالح أنانيتها، وتحويله إلي آلة مُسخرة لما يسمي بمصالح الدولة الوطنية، والدولة الراعية، والدولة الريعية، والدولة الرشيدة، والحكم الرشيد، والحوكمة والحكامة، والدولة الديمقراطية، وكانت النتيجة تقديم عقول الإنسان الأقدم إلي ساحات القتال والصراع والحروب، والي استغلاله في الفتن التي ترعاها دولته من أجل الحفاظ علي استمرارها ووجودها. فتحول الإنسان الأقدم إلي وقود مجاني في أزمات وصراعات دولته الأقدم، الباحثة عن مجدها، لا على أمجاد عقول رعاياها، وتحول عقله إلي قرابين للدولة المصطنعة في غياب عقله.

علم السياسة من العلوم التي غدرت بعقل الإنسان الأقدم من خلال طمسه لعقله السياسي ومعالمه و أفاقه، والادعاء بأنه قادر علي رصد الظواهر السياسية السلوكية، وتفسيرها، وتحليلها، وتقديم الإجابات لها، وإذ به يتحول إلي شرعنه الظواهر السياسية ويغذيها، ويتخذ من علوم التأويل السلوكي مجالا لأنشطته الهدامة للعقل السياسي، ويعمل علي نموها، لكي يجعلها مواد تُنهجهُ في علومه الفقيرة، فهو علم يتحدث في كل شيء، ويتعلق بكل شيء، ويدعي كل شيء، لأنه يعي قيمة العقل السياسي، ودوره في إرجاع الأشياء إلي أصولها، ولقد سجل عجزه منذ مدة طويلة حينما عجز علي تخليق ما يسمي بالقوانين السياسية التي تضبط مسار علومه الخليط من معارف مختلفة، وعدم قدرته علي تأصيل معاني، ومقاصد العقل السياسي **Political Rationality**. وعلم السياسة في مجمله علوم وصفية، سرعان ما تتبخر إلي تراكم ماضوي، عديم الجدوى، لأنه يُبعد من ثناياه كل ما هو لصيق بالعقل السياسي

ويسمونه بعلم السياسة، وجعلوا العقل السياسي أشد، وألد أعدائه.

ومن هنا فأنه من المأمول أن ينتهي ما يسمي بعلم السياسة، لأنه ليس من عائلة العلوم العقلية، نظرا لغدره بالعقل السياسي، ووصوليته إلي مفاصل الدولة الأقدم، لتخريب عقلها وعقل رعاياها، ولقد حاول دُعاة هذا الخليط من المعارف ترسيخ معاني ومقاصد الدولة والمجتمع، من خلال استعمالهم لمعاني ومقاصد القوة الطاغية، والواقعية الرافضة لقوانين العقل، وأوهموا أن الدولة جديرة بخلق مجتمعات رعاياها، وعليهم طاعتها، والامتثال أمام أوامرها، الأمر الذي أدي عبر مراحل كثيرة إلي ترسيخ فكرة تبعية العبد للسيد، وتبعية منظومة العقل لدي الإنسان الأقدم إلي منظومة علاقات العبد للسيد، في سابقة تأمريه لاغتيال العقل السياسي لدي الإنسان الأقدم، وحرمانه من تأسيس دولة العقل.

ومن هنا فأن الإنسان الجديد سوف يُعيد رسم معادلة العقل السياسي لديه، ويرفض فكرة تبعية عقله السياسي إلي منظومة وهمية غير جديرة بتطوره، وعلومه، وهو في ذلك سوف يعمل علي خلق دولته العقلية لكي تكون خادمة له، وليس العكس، إنها الدولة الكوكبية التي تخضع لقوانين عقل إنسانها الجديد، إنها دولة العقل السياسي المنفتح علي نفسه وعقله، والعقل المبرمج سوف يصنع حياته السياسية بدون اللجوء إلي الغير، وتتحول لديه فكرة الدولة من محيطها المادي المحسوس إلي محيط داخله، بحيث الكل يحس بأنه صانع لدولته، وتنتظم بذلك، من داخله، قواعد الحق والواجب، وأنظمة غرائز المشاركة مع الأخر وتتوحد معه معاني ومقاصد البناء والعيش المشترك، وهو بذلك سوف يُنهي مراحل الاشتباك بين العقل السياسي وعقل الدولة، ويرجع الصراع، بعد تقنينه عقليا، وبرمجته جينيا، إلي حيث مكانه في داخل وعمق عقله.

ذلك العلم المُغيب للعقل السياسي، لم يكن قادرا على اكتشاف حقيقة علومه المتناثرة، أن الإنسان ليست له ما يُعرفها بالعقيدة السياسية، لأنه إذا اعتقد فيما يعتقد من علم سياسي، فأنه يعمل على تجميد عقله السياسي، ومن ثم تجميد عقله والعقل الجمعي، وعلم قيام الدولة والمجتمع. لقد لفق ذلك العلم العديد من الأطروحات المتعلقة بالثورة، والعلم الثوري، والثورة العلمية، وسرق مصطلح الثورة من العقل السياسي، ليعطيه الإبعاد السياسية، ويصف به كل تغيير سلوكي في علاقة الإنسان الأقدم بدولته ومجتمعه بأنه ثورة، ووصف التغيير الاجتماعي في دولته الأقدم بالثورة، والانقلاب بالثورة، حتى جعلها مفهوما يرتبط بالهيجان والثواران، واستخلص منها مصطلحات الثوار، والثائرين، لخدمة

أغراض علمه البرجماتي، متجاوزا منتجات العقل السياسي للثورة العلمية، والعلم الثوري. فعبر بذلك عن عجزه عن تقديم استعداده لتفسير الثورة العلمية والعلم الثوري، لأنها تتجاوز حدود معارفه الخليط، ولم يكن مدركا أن مقاصد العلم الثوري تُقاد بالعقل الثوري، والثورة العلمية تُقاد بالعقل العلمي.

في تلك الدولة الرهيبة البناء والبنيان، سوف يتجرد عقله السياسي من كل مثالب الاحتكار والهيمنة، والسيطرة، والإيحاء، لأنه سوف يصنع لنفسه قوانين للشفافية العقلية، لأنه اكتشف مراكز الكذب والتزوير، والتحايل، والدسائس، وسوف يُلغي من ذاكرته العامة معاول الكذب والخوف والنسيان، والألم المشروع، والألم غير المشروع، وسوف يؤسس ذاكره لا نهائية السعة، قابلة لتخزين الصدق والوفاء لوعده العقلي نحو العلم الإضافي، وكل معاني ومقاصد التفكير العقلي، وسوف يقنن قوانين العودة إلي ماضيه، ويتخذ من حاضره وسيلة لاستدعاء مستقبله، ويجعل مستقبله في حاضره.

الإنسان الجديد ينبغي أن يكون منشغلا بمسألتين مهمتين، وهما تفكيك نظريات التخلف وجيناتها، وكيفية تأمين مستقبل تفكيره حتى لا يتراجع وضعه العقلي إلي عصور الإنسان الأقدم، وسوف يستعين في ذلك بالجينات المسئولة عن الخوف المشروع والخوف اللأمشروع، من فترة إلي أخري. إنه الإنسان الذي يبحث عن تفكيك ثنائية الدولة الأقدم والمجتمع الأقدم، الإنسان الأقدم والإنسان الأجدر، العقل الأقدم، والعقل الجديد، والتقدم والتخلف.

تلك هي مناظرتنا حول احدي العلوم التخريبية للعقل العربي والتي تحتاج منا جميعا العمل علي استدعاء مستقبل العلوم الفعالة المرتبطة بالعقل لا المرتبطة بالنظريات والنماذج والمنهاج الوافدة والتي تُعبر عن بيئاتها الحقيقية لعقل مجتمعاتها لا عن عقل المجتمع المصدرة إليه . ومن هنا سوف يكون علم الاجتماع وعلم الاجتماع السياسي، وعلم النفس وعلم السياسة من أخطر العلوم الوافدة تخريباً للعقل العربي، نظراً لطبيعتها التخريبية والمدمرة للعقل العربي. كل ذلك سوف يكون في مناظرة لاحقة.

علمية الكتابة التاريخية وإشكالية الموضوعية

د. عبد اللطيف الركيك

يهتم التاريخ بدراسة الماضي البشري بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية...إلخ. وقد انتقل

التاريخ من فرع ثانوي من فروع المعرفة الإنسانية إلى أحد أعمدتها الأساسية كعلم له مباحثه ومناهجه ومدارسه الخاصة، لدرجة استوعب معها جميع العلوم الأخرى التي انتصبت كعلوم مساعدة للتاريخ. وتعد الموضوعية والعلمية في التاريخ من الموضوعات التي اختلفت بصددها الآراء واحتدم بشأنها الجدل في فلسفة العلوم الاجتماعية. وقد انقسم المؤرخون بهذا الخصوص إلى فريقين: أصحاب النزعة الموضوعية(Objectivisme) وأصحاب النزعة الذاتية(Subjectivisme).

فما هي المقاييس التي نستطيع بواسطتها الحكم على علمية وموضوعية الكتابة التاريخية؟

علمية الكتابة التاريخية:

هل بوسعنا كمختصين في التاريخ أن ننزع عنا عباءة التاريخ، ونخرج قليلا من جُبّته لكي نتواجد خارج دائرته، ونأخذ موقع المتلقي العادي، فنتخلى بذلك ولو مؤقتا عن الانتماء الضيق لهذا الحقل المعرفي لنرى كيف يكون التاريخ من منظور المتلقي، ولكي نقف على مدى مصداقية الكتابة التاريخية وموضوعية المقاربة التاريخية وقدر الوثوق بها والاطمئنان إلى نتائجها؟

من منطق هذه الرؤية الخارجية والتناول النقدي للكتابة التاريخية يحق التساؤل عن ماهية التاريخ من زاوية العلمية: فهل يحق القول بأن التاريخ يتوفر بالفعل على مواصفات العلم الموضوعي؟

مُقدّما، يتوجب الإقرار بأن التاريخ هو علم ينتمي إلى فرع العلوم الاجتماعية والإنسانية، غير أنه لا يخضع لقاعدة التجريب كما في العلوم الحقة. كما أنه يُقارب موضوعات ذات صلة بالإنسان ما يجعل موضوع التاريخ متغيرا وغير ثابت والتعامل مع نتائجها بإطلاقية أمر غير ممكن مهما كانت مثانة المناهج المتبعة.

كما أن كتابة التاريخ تتداخل فيها ذات المؤرخ أو الباحث بموضوع البحث في صورة انتماءات دينية أو قومية أو مذهبية أو فكرية أو إيديولوجية...، ما يجعل الحديث عن موضوعية مطلقة في حقل الكتابة التاريخية ضربا من الخيال. ذلك أن تأثير تلك الخلفيات على ما يكتب المؤرخ أمر أكيد ولا سبيل لإنكاره.

لكن، ومن ناحية أخرى، وإذا كان التاريخ علم نظري، فإن اعتماده على عدد من العلوم المساعدة التي تنتمي لفرع العلوم الحقة، واشتغاله على الوثائق المادية واللقى الأثرية يُكسب نتائجه قدرا من المصداقية العلمية، على أن استنتاجات المؤرخين والباحثين في التاريخ والقواعد النظرية التي يستخلصونها لا يمكن اعتبارها علما، بقدر ما هي تأويلات تخضع لقواعد الشك والنقد. ولعله من المجحف تحويلها مع كثرة تداولها والاستشهاد بها إلى

قواعد ومقولات نظرية علمية يقع البناء عليها.

إن التأويل في حقل الكتبة التاريخية يتوجب أن يظل في حيز الترجيح، ومن المثير للجدل حقا أن نرى كيف أن بعض الباحثين يحوّلون مجرد تأويلات وترجيحات إلى مرتبة الحقائق التاريخية الأكيدة، مع ما لذلك من تبعات سلبية على التراكمات التي تحدث في الكتابة التاريخية.

إن علمية الكتابة التاريخية تبقى محدودة، كما تظل نتائج المقاربة التاريخية نسبية، ولا محل للسعي لإكسابها طابع المعطى التاريخي العلمي الموثوق بصدقيته.

موضوعية المصادر التاريخية:

بالنسبة للكتابات المصدرية، والمقصود بها المصادر التاريخية التي عاصر مؤلفوها الوقائع التي كتبوا حولها، فمن اللافت للانتباه أن نرى كيف أن ثلة من المهتمين بحقل التاريخ عادة ما ينطلقون مما اختُطّ في المصادر على أساس أنها تمثل حقائق تاريخية تكفيهم مؤونة صرف المجهود لنقدها والتحري من صدقية معطياتها، وبالتالي يقع إقحامها على حالتها "الخام" دون تتبث، والاستناد إليها والبناء عليها على أساس من الوثوقية المبالغ فيها، فيقع التوصل إلى استنتاجات، هي في العمق محل نظر، سرعان ما يتلقفها آخرون كحقائق تاريخية أكيدة.

والواقع أن المصادر، إنما هي كتابات تأثرت بالسياقات الحضارية والثقافية للعصور التي كتبت فيها، وبالميولات الفكرية والجذور الاجتماعية والتموقعات السياسية للذين ألفوها. إن مسألة الحياد فيما كتبه المعاصرون للأحداث تبقى مطروحة للنقاش والنظر المتعدد. ولا يمكن بأي حال التعاطي معها كما لو أنها معطيات تاريخية أكيدة يتم الانطلاق منها دون تحر أو تحقق معمق. إن ما اختطّه القدامى يقترب من وجهة النظر في الأحداث التاريخية وتجاه الفاعلين التاريخيين أكثر ما تمثل معطيات تاريخية مجردة عن الأهواء والميولات والنظرات الذاتية.

وعليه، فإن التعامل مع المصادر ينبغي أن ينبني في المقام الأول على قاعدة الشك والنقد من خلال استحضار الشروط التاريخية الخارجية للنصوص القديمة، ومُقابلة النصوص بمثيلاتها المنتمية إلى نفس الفترة وحتى إلى فترات سابقة أو لاحقة تحريا للدقة والموضوعية.

وبالمحصلة، فإن الكتابة التاريخية ومعها الكتابات المصدرية تبقى هشّة، ولا يمكن اعتبارها علما يحظى بالموضوعية والوثوقية المبرمة. إن نُشدان العلمية والموضوعية في حقل التاريخ مرتبط أشد ما يكون الارتباط بذات المؤرخ أو الباحث، فهو من يستطيع متى ما تخلص من

الاشتراطات الذاتية وتسلّح بالنقد والتساؤل المُحايد، أن يُحوّل المكتوب التاريخي إلى مادة أقرب إلى العلم منها إلى التدبيج الإنشائي التقريري والتجميع الاعتباطي لنصوص لم تخضع للمقاربة النقدية الصارمة. فهذه بالذات هي أولى مهام الباحثين في حقل التاريخ.

أثر الافتراض على مصداقية الكتابة التاريخية:

هناك أمر نلحظه على الكتابات التاريخية، وهو ذلك النزوع المفرط نحو الطابع التقريري الإخباري في التعاطي مع معطيات تاريخية تم استقاؤها من مادة وثائقية غير كافية. فهذا التوجه ينتصب بدوره ككابح يعرقل العلمية والموضوعية المتوخاة في الكتابة التاريخية. إن هذا الميل تحكمه شروط ذاتية مرتبطة بالمؤرخ الذي يسعى لإقحام أي نص مهما كان ضعيفا في سبيل التوصل إلى استنتاجات تقريرية، فيصنع بذلك شيئا من لا شيء. إن هذا المسعى المعرقل هو ما يحوّل الكثير من القضايا من طور الافتراض إلى طور المعطى التاريخي بسبب طابع الإجمال والاستنتاج الذي يقوم به المؤرخ والذي يبقى انشغاله الأساس.

فغني عن البيان، أن المؤرخ عادة ما ينطلق في مقاربته للظاهرة التاريخية من مجرد فرضيات مُسبقة يضعها كمنطلق للبحث، لكن المعيب في الأمر هي مسلكيات الباحث التي تنحو، وبشكل مقصود، نحو محاولة تأكيد الفرضية المسبقة بحشد أكثر ما يكون من الإثباتات في مسعى تأكيد صحّتها، وبالتالي تزكية صدقية منطلقاته النظرية. بيد أن المطلوب هو التعامل الموضوعي مع كل ما يُساق من وثائق تخص التحقق من الفرضيات الموضوعة سواء باتجاه تأكيد صحتها أو دحضها.

إن الفرضية في حقل التاريخ لم توجد لتستعمل كسلّم يرتقيه المؤرخ للوصول إلى استنتاجات موضوعة مُسبقا، وإنما هي مجرد منطلق للبحث والتحري الموضوعي المفتوح على جميع الآفاق البحثية. أكثر من ذلك، فإن هذه الفرضيات المفبركة التي يقع تأكيدها مع سبق الإصرار وبشكل تعسفي سرعان ما ترتقي في خلاصات المؤرخ النهائية إلى مصاف المعطى التاريخي الأكيد، ويقتبسها باحثون آخرون، ويبنون عليها فرضيات أخرى تُفضي بدورها إلى استنتاجات معينة، وهكذا دواليك. ففي خضم هذا التسابق نحو التوصل إلى حقائق تاريخية جديدة تضيع الموضوعية وتتأثر العلمية في حقل التاريخ سلبا.

العلمية ليست عائقا أمام تطور البحث التاريخي:

إذا كانت الوثائق الأثرية تعكس معطيات محايدة و أقل تأثرا بذاتية المؤرخ، وبالتالي تقترب معطياتها من الموضوعية، فإن الوثائق المصدرية المكتوبة أو الشفهية واستنتاجات المؤرخين تبقى حمّالة أوجه، ويظل الشك والنقد هما القاعدة في

التعامل معها. في حين أن الكتابة التاريخية التحليلية للوثائق باختلاف أنواعها، تبقى مجرد محاولة في التأويل وترتهن بالشروط الداخلية والخارجية للوثائق وبذاتية المؤرخ وبمدى دقة الفرضيات التي يضعها.

بيد أن تماهي المختصين في التاريخ مع دفوعات العلمية والموضوعية و انشغالهم بمحاولة إبعاد الذاتية وتوخي الموضوعية، والتعاطي مع ضعف العلمية في التاريخ كما لو أنها "شُبهة" تنتقص من قيمة هذا الحقل العلمي، هي في و اقع الأمر مذهب غير مجد. إن المنطقي هو التعامل مع الظاهرة التاريخية في مصادرها ووثائقها ومنهجية مقاربتها على أساس أنها ظاهرة هشّة، وهذا هو بالذات ما يعطي طابع التشويق للكتابة التاريخية، ويفتح أبواب البحث التاريخي على مصراعيها دونما توقف، لأن مرامي البحث التاريخي لا تتوقف عند إيجاد "حقائق" أو معطيات تاريخية حاسمة تُنهي مسار النبش والتنقيب الدائم والمستمر.

وعلى ضوء ذلك، فإن علمية التاريخ تبقى دوما على المحك، حتى أننا إذا بحثنا بين دفتيه عن حقائق علمية نهائية، لا نكاد نظفر بشيء. وهذا بالضبط ما يعطي لهذا الحقل المعرفي حيويته وقابليته للتطوير والتعديل والتغيير، بحيث لا يجد المؤرخ حرجا في التخلي عن مقولات تاريخية مهما كان لها من الرسوخ والتمكن متى ما ظهرت معطيات جديدة تثبت بُطلانها. لهذا وجب على المؤرخ أن لا يسعى إلى حشد اليقينيات-مدفوعا إلى ذلك بنقيصة ضعف العلمية-لكي تتحقق لدى المتلقي للخطاب التاريخي القناعة بأن ما يتوصل إليه المؤرخ هو إنتاج علمي يحظى بالعلمية المطلقة.

على سبيل الختم:

وبناء على ما مر، يجوز القول بأن نسبية العلمية والموضوعية في حقل التاريخ لا يمثل نقيصة على عاتق المؤرخ التخلص منها والسعي لإثبات عكسها، وإنما هي جزء من طبيعة هذا الحقل المعرفي، فالموضوعية هي أمر نسبي في جميع العلوم الاجتماعية والإنسانية. كما أن الموضوعية في التاريخ تختلف عن الموضوعية في باقي العلوم الحقة القائمة على التجريب. وعلى خلاف ما يُعتقد، فإن خاصية عدم الخضوع للتجريب في التاريخ هي ميزة إيجابية تُبعد عن التاريخ كعلم صفة الجمود والارتهان بالمقولات والقوالب النظرية الجاهزة المثقلة بالصيغ التقريرية غير المجدية. إن النظر للتاريخ من هذه الزاوية هو ما يجعله علما مرنا دائم التجدد ولا تُستهلك موضوعاته، بقدرما تبقى مفتوحة وباستمرار على أفاق بحثية متجددة، وهو ما يطرح مفهوم إعادة كتابة التاريخ.

معركة القضارف

احمد محمد حسن الطيب / السودان

جاءت معركة القضارف بعد معركة كرري حيث كانت حامية القضارف احدي حاميات المهدية في السودان وظلت صامدة بعد الهزيمة في معركة كرري.

وقائع المعركة بدأت في يوم الثلاثاء 8 شعبان 1316 هجرية الموافق 22 ديسمبر/ كانون الأول 1898م بين قوات المهدي بقيادة الأمير سعد الله والقوات المصرية البريطانية وبعض جنود الاحتياط المجندين من القبائل السودانيين بواسطة الإنجليز بقيادة الكولونيل بارسونز، وانتهت بهزيمة الأنصار وإحتلال الإنجليز للقضارف.

وقد بدأت بعبور القوة البريطانية المصرية نهر عطبرة أثناء فيضانه بمساعدة الرائد لاوسون من سلاح المهندسين الملكي البريطاني وتقدمت في سيرها حتى التقت بالأنصار في يوم 22 سبتمبر / أيلول والتحمت معهم في حوالي الساعة التاسعة صباحا شمال القضارف على بعد ميلين (3,22 كيلومتر) من المدينة، في بداية الأمر شنت قوات انصار المهدي هجومين على القوات المصرية البريطانية، ووقع الهجوم الأول على الجبهة اليسرى من طابور القوة المصرية والذي كان يتألف من كتيبة العرب (مجندين من قبائل شرق السودان) ، والكتيبة المصرية السادسة عشرة، و جنود العرب غير النظاميين وحسب تقرير نشر في الغازية البريطانية آنذاك فقد تم نشر هذه القوة نحو اليسار فور وقوع الهجوم، وبذلك تمكنت القوة من صد هجوم الدراويش ولكن بخسائر فادحة في صفوفها. أما الهجوم الثاني فقد كان موجهاً ضد طابور المؤن في الخلف، وقامت به مجموعة كبيرة من الأنصار الذين تمكنوا التحرك من مواقعهم تحت غطاء التل الواقع في الجهة اليسرى من موقع القوة المصرية للإلتفاف حولها وكان طابور المؤن يتألف من مفرزة من فيلق الإبل، تحت قيادة الكابتن البريطاني فلمينج، والفيلق الطبي التابع للجيش الملكي البريطاني.

بعد صد الهجومين واصلت قوات اللفتنانت كولونيل بارسونز تقدمها نحو القضارف وتمكنت من احتلالها في منتصف النهار، بعد استسلام قائد الحامية الصغيرة ومعه 150 من الجنود ومدفعان، وكانت خسائر القوة المحتلة بعد يوم من القتال في المعركة حسب المصادر البريطانية 53 قتيل و61 جريح فقط

في غضون ذلك تمكنت البوارج الحربية النيلية التي كانت تقوم بأعمال الدورية في النيل الأزرق بعد انتهاء بعد معركة كرري من وقف تقدم الأمير أحمد فضيل على الضفة اليمنى للنيل الأزرق بضربة بقذائف مدافعها مما أدى بالأمير فضيل

بالتوجه بجيشه نحو القضارف والعمل على تحريرها من الاحتلال فصدرت الأوامر من كتشنر إلى الميجور جنرال هنتر بالتحرك نحو أعالي النيل الأزرق. وفي 19 سبتمبر / أيلول وصل هنتر ومعه قوة تتكون من 2 مدفع ماكسيم الرشاش - المحظور دولياً آنذاك - و20 من رجال القوة الملكية الإيرلندية بقيادة الرائد شورشر و600 جندي من الفيلق العاشر المتكون من سودانيين جندهم الإنجليز من وسط القبائل السودانية المختلفة. اقام هنتر نقاط مراقبة في كل من سنار و كركوج و الروصيرص. رفض أحمد فضيل جميع العروض التي قدمها له الجنرالات الإنجليز بالاستسلام سلمياً، وأصّر على العودة إلى القضارف مهما كلفه الثمن. فصدرت أوامر إلى الميجور جنرال روندل بالتحرك نحو النيل الأزرق ومهاجمة قوة أحمد فضيل من الخلف وتعزيز الحامية البريطانية المصرية في القضارف، وقبل وصول هذه القوة إلى بلدة أبوحراز على النيل الأزرق كان أحمد فضيل قد شن هجوما على القضارف في 28 سبتمبر / أيلول ، إلا أن الحامية المصرية البريطانية هناك تمكنت من صد الهجوم فعسكرت قوات أحمد فضيل على بعد 8 اميال (12.78 كيلومتر) جنوب غرب المدينة ومن هناك كانت تقوم بمناوشة الحامية من حين لآخر، وبعد وصول رندل إلى أبوحراز ارسل كتيبة بقيادة اللواء كولينسون إلى القضارف والتي وصلتها في 21 أكتوبر / تشرين الأول بعد مسيرة شاقة ومضنية بسبب شح المياه في الطريق وبعد يوم من وصولها شن أحمد فضيل هجوما ليلياً على القضارف تم صده لينسحب أحمد إلى كركوج.

المنهجية العلمية في التأريخ الشفوي والمرئي(أحداث الثورة السورية الكبرى 1925م نموذجاً)

نصار واكد
نائب رئيس للجمعية التاريخية – سوريا
عضو الاتحاد الدولي للمؤرخين

1. مقدمة

ليس الماضي زمنا يمكن تخيله أو نسجه بطرق عشوائية، فاالمؤرخون عملياً يحملون تحليلات متباينه للحدث.، أو مرويات متضاربة في بعض الاحيان .من هنا يمكن القول ان المنهجية يقصد بها ذلك البحث الذي يصف ويسجل ما مضى من وقائع واحداث الماضي ويدرسها ويفسرها ويحللها على اسس منهجية بقصد التوصل الى حقائق وتعميمات تساعدنا في فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل.

وإسهاماً في لفتِ الانتباه الى أهمية النظر جدياً في توثيق تاريخنا الشفهي والمرئي، بشكل علمي ومنهجي ومُنظم. وتجديد المادة

التاريخية ونقدها منهجيا. ونظرا لوجود مساحات فارغة من تاريخنا الوطني، فإنها بحاجة الى من يستنطقها، بناء على تحليل عقلاني نقدي، كل ذلك شجعني للخوض في تدوين وتوثيق التاريخ الشفوي والمرئي. الذي يعتبر أحد الرو افد الهامة في التاريخ البشري فهذا النوع من التاريخ يعرف بأنه تسجيل وحفظ وتفسير المعلومات التاريخية لأشخاص مهتمين بالتاريخ أو اشخاص عاصروا احداثا هامة اعتمادا على خبراتهم الشخصية أو ما سمعوه من احداث بمعنى انه التاريخ المروي عن الاخرين.

إن الكتابة في هذا الموضوع ليست سهلة، لأنها تستدعي تحديد مصطلحات وكلمات وعلاقات عدة، ترتبط ارتباطاً مباشراً بعلم التاريخ الشفوي، الذي يعتمد على مصادر شفوية في الأساس، دون الالتزام بوجود سند من الوثائق المادية أو مواد أرشيفية اخرى.

وإن اتسعت حقول التاريخ الى مالا نهاية له من نشاطات الإنسان، فإن منهجيته وطر ائقه كان لابدٍ لها من أن تواكب هذه الحقول، وتستجيب لمتطلباتها المعرفية. إن الشفوية كطريقة في نقل الأخبار ليست بالجديدة، انما هي الطريقة البدائية والعفوية في النقل، ومن خلالها، بدأ التدوين في كل الحضارات المكتوبة، ومن بينها حضارتنا العربية، ويمكن أن نضيف الى هذه الحقيقة البديهة، اعتماد الرواية الشفوية كأحد مصادر الكتابة التاريخية الحديثة والمعاصرة.

واعتماد التاريخ المرئي كالأفلام الوثائقية مثلا والتي استخدمت كمرجع لكثير من الاحداث خاصة المتعلقة بأحداث القرن العشرين والواحد والعشرين فقد استطاعت ان تثبت نفسها كمصدر تاريخي متميز بتصويرها للأحداث التاريخية التي لم نعاصرها لتكون مرئية. والمتصفح للكتابة التاريخية سواءً كانت كتبا منشورة او ابحاثا يلاحظ بسهولة انها كتبت في معظمها وفق نمط تقليدي قائم على سرد الوقائع وجمعها في مجلدات تظل حبيسة الرفوف.

وهناك حالات كثيرة قد لا ينطق بها التاريخ المكتوب، كالذاكرة المقموعة أو المكبوتة، وذاكرة مناضلين طواهم النسيان، أو ذاكرة مستضعفين في الحروب الاستعمارية والأهلية، أو عهود اضطهاد واستبداد، أو ذاكرة مهمشين في السجون أو المعتقلات أو المنافي.

وقد آن الآوان أن يكون للشهاده الشفوية في احداث الثورة السورية الكبرى 1925م فرصة لتحويلها الى تاريخ مكتوب، وخاصة ابراز الدور الجهادي للمرأة في هذه الاحداث التي لم يسلط عليها الضوء بشكل كاف، فدور المرأة هام في التاريخ والحضارة الانسانية. فهي التي صنعت الانسان عندما حملته وصنعت التاريخ حين ربته وعلمته. علما بأن لها دوراً لا يستهان به،

خاصة اللواتي رافقن أزواجهن الى المنافي الصحراوية، كمنطقة وادي السرحان المشهورة، واللواتي تعرضن للتعذيب أو الاعتقال بسبب نشاط أقاربهن، أو أحد أفراد عائلاتهن، كما تعرصن للعنف بأنواعه المختلفة.

والوثائق التاريخية ومنها الكتب التي دونت لا يمكن أن تقول لنا كل شيء عن ماضينا، لأنها غالباً ما تركز على الشخصيات المشهورة، والأحداث الكبيرة، وتميل الى تغييب كل شيء عن الناس العاديين. من هنا نقول: إن التاريخ الشفوي يملأ الثغرات في كتابة التاريخ، ليكون أكثر شمولاً لصانعي الحدث التاريخي، وإن حفظ تسجيل ذكريات الماضي لا يمكن أن يعرضه التاريخ المكتوب وحده بعيداً عن التاريخ الشفوي، بالرغم من أن البعض حاول الجمع بين الشفوي والكتابي برصد حقائق ومواقف كامنه في صدورهم، وتجسد ذلك من خلال كتابته المذكرات الشخصية.

2. تعريف الرواية الشفوية

هي الرواية التي تناقلتها الألسن من شخص الى آخر، أو من جيل الى جيل، ولم تجد العناية أو الاهتمام لتدوينها، وتحمل في طياتها معلومات قيمة، في مختلف المجالات الوطنية والاقتصادية والاجتماعية، وقد تصبح الروايات الشفوية مجرد أداة لنفي أو إثبات وجهات نظر معينة.

وفي تاريخنا روايات وتراث شفوي، غني بالمآثر الوطنية، وبخاصة في عصرنا الحاضر وعبر العصور التاريخية على امتداد الوطن السوري وبالأخص محافظة السويداء التي تعد مادة غنية تمكن المؤرخين استثمارها، وهذا ما نجده اليوم في العديد من المؤلفات التاريخية التي تهدف الى جمع و كتابة التراث الشعبي الشفوي للثورة السورية الكبرى 1925م تمجيداً لمقاومة وبطولات شعبنا من أجل حرية الوطن واستقلاله ووحدته الوطنية، وتعد لجنة التراث المكلفة حديثا بالعمل على جمع ودراسة التراث الشعبي المادي والمعنوي وتوثيقه و حفظه في صرح الثورة السورية في بلدة القريا من أهم اللجان لجمع التراث الوطني، ومن نتائج عملها جمع وتوثيق اسماء 3339 شهيدا من شهداء الثورة السورية الكبرى، كما جمعت بعض المعدات الحربية وعشرات الوثائق التاريخية بالاضافة الى مدونات رواها ابناء واحفاد المجاهدين.

هذا وقد ارتحل الى محافظتنا عدد كبير من الرحالة والمستشرقين الأجانب كتبوا ودونوا كثيراً من الروايات الشفوية عن العادات والتقاليد وتاريخ الاستيطان .... الخ. كما دونوا نتائج أبحاثهم الأثرية والتاريخية في كتب ترجم معظمها الى اللغة العربية مثل العالم جون لويس بركهاردت الذي زار منطقتنا عام 1810م ودون معظم مشاهداته في كتاي ترجمه

الأستاذ سلامة عبيد، ومن المترجمات الحديثة ترجمة كتاب مغامرات بين خرائب باشان للدكتورالايرلندي وليم رايت الذي زار منطقتنا عام 1874م وكتاب مذكرات الكابتن كاربييه في جبل العرب عام 1929م الذي كتبه بعد أربعة أعوام من انطلاق الثورة السورية الكبرى1925 وهو موجه الى الرآي العام الفرنسي وعلى الرغم من الترجمات العديدة والمثمرة بهذا الخصوص، فإن هناك وثائق نادرة يعثر عليها بين الحين والآخر.

3. أهمية التاريخ الشفوي

الاهتمام بالتاريخ المدون والشفوي سمة هامه من سمات عصرنا الراهن، وخاصة مع تطور تكنولوجيا الاتصالات، واتساع طفرة وثورة المعلومات، التي أعطت الوثائق قيمة جديدة وحاسمة في العثور على حقائق تجلي صورة الماضي، وفي قضايا قد تكون محط خلاف في الحاضر، وربما تكون في المستقبل .لذلك يعد علم التاريخ من أكثر العلوم الإنسانية تعقيداً لأنه يشمل جميع نشاطات الإنسان، وما دون من تلك النشاطات لا يشكل سوى جزء قليل من الكم الهائل لأعمال البشر الذين مضوا مجهولين لا يعرف الكثير عن اعمالهم.

((ومن هنا تأتي أهمية التاريخ الشفوي الذي يعتبر حقلاً جديداً في حقول البحث التاريخي ومنهجاء بحثياً جديداً، يتيح للمؤرخين اكتشاف عوالم معرفية وتاريخية جديدة، من خلال إعطاء الكلمة للمغيبين عن التاريخ المكتوب والمهمشين في المجتمع. كما يعد أحد الروافد الهامة في التاريخ البشري إنه التاريخ المروي عن الآخرين، والذي يعرف بأنه تسجيل وحفظ وتفسير للمعلومات التاريخية لأشخاص عاصروا أحداثاً هامة معتمدين على خبرتهم الشخصية أو مما سمعوه من أحداث)).

لقد استخدم الباحثون المخطوطات المدونه والشفوية مصادراً لدراساتهم التاريخية، فجهدوا واجتهدوا في البحث عنها والاستعانة بها وأمل البعض منهم أن يعود نشر ما يقع بين إيديهم من مخطوطات ذات أهمية بالنفع على طلبة العلم والمتخصصين فكثر نشر المخطوطات العربية وجاءت الرواية الشفوية مؤيدة لبعض المخطوطات وكاشفة خطأ بعضها الآخر ،ولنأخذ مثالاً حول التباين بين العديد من المؤرخين الذين أرخوا دخول آل الأطرش مدينة السويداء ونهاية حكم آل الحمدان ،فنجد حنا ابو راشد والصابط الفرنسي بورون في كتابه بالفرنسية والاستاذ صلاح مزهر في احدى محاضراته وسعيد الصغير في كتابه بنو معروف كل هؤلاء يذكرون نهاية آل الحمدان عام 1869م بينما الدكتور فندي أبو فخر في كتابه تاريخ حوران ويؤكد على أن عام 1876م هو نهاية حكم آل

الحمدان كما سبق الدكتور وليم رايت الذي حل ضيفا عند شيخها واكد الحمدان 1874 م في كتابه خرائب باشان ويؤكد الأستاذ نبيه القاضي في مخطوطته (العامية) نهاية الحمدان عام 1876م.

وبالرغم من ذلك يمكننا القول إن الوثيقة مهما كان نوعها فهي ليست مقدسة بل تبقى متهمة حتى تثبت الوثائق الأخرى صحتها، والدليل على ذلك وجود كثير من الأحداث التي قد تم تفسيرها والوصول الى استنتاجات مستندة الى الوثائق ثم أثبتت الأيام فيما بعد أنها غير صحيحة عند اكتشاف وثائق جديدة عن الوقائع نفسها، مثال وثيقة العامية (البيان الصادر عن اجتماع مجدل الشور 1888م) نجد تباينا في عدد الموقعين على الوثيقة فمنهم من يذكر ال عدد82 واخر 89 توقيعا وهكذا.

أما في العصر الحديث فقد نشطت حركة الاستفادة من الرواية الشفوية في ميدان التاريخ ونتج عن ذلك كتب تاريخية عديدة، كنظام الحوليات والمؤلفات التاريخية العديدة وتأسيس ا لمراكز الوطنية للبحث التاريخي، التي أشرفت على تدوين الروايات الشفوية والتي تفتح الباب على مصراعيه للبحث في تاريخ المهمشين أو المغيبين ممن لا تاريخ مدون لهم.

وبحلول القرن العشرين، زاد الاهتمام بالتاريخ الشفوي حيث برزت حركة علمية وتأريخيه تدعو الى الاعتماد على الرواية الشفهية كمصدر من مصادر التاريخ. لمساهمته في تدوين العادات والتقاليد، وتطور المجتمعات، ومدخل مهم لكتابة تاريخ من لا تاريخ لهم، من (مرقعي العبي) وتحويلها الى وثائق تاريخية لتكون مصدراً لإعادة كتابة وقراءة تاريخنا الوطني بموضوعية ومنهجية علمية، يقول الاستاذ سلامة عبيد: ((إن إعادة كتابة التاريخ تتطلب عملاً جماعياً، باعتبار أن العمل الفردي قاصر عن الجهد المنظم المشترك، والاتجاه الانساني هو اتجاه جماعي في شتى المجالات الاجتماعية في جو من الحرية النابعة من ضمير الكاتب)).

4. نموذج لتأريخ الرواية الشفوية

فمثلا إن الاعتماد على التاريخ الشفوي في كتابة احداث الثورة السورية الكبرى 1925م، لا يعني بالضرورة الدعوة للتخلي عن استعمال المصادر الأخرى، بل إثراءً لها ومزيداً من السعي لفهم أهدافها، وذلك على اعتبار أن من ندون له هو من ساهم في صنع الحدث، ومن هنا نقول إن الوثيقة الشفوية هي نتاج لعملية التذكر الذي يربط الماضي بالحاضر بطريقة أفضل ،كما أن صاحب الذاكرة يروي ملاحظاته ومشاهداته من أحداث الأمس بالتفصيل ويتم الحصول على تلك الملاحظات والمشاهدات عبر حوار يجريه المؤرخ مع الراوي، على شكل أسئلة متنوعة وتحقيق موضوعي عن الأحداث التي عاشها خلال

الثورة السورية والأحداث الهامة التي مرت بها سوريا آنذاك .كما إن أهمية التاريخ الحي أو التراث الشفوي للثورة السورية الكبرى 1925م، تفرض علينا دراستها و وضع السبل والآليات والفرضيات التي تساعدالجميع على إعادة جمع و توثيق أحداث الثورة من مختلف الجوانب الوطنية والاقتصادية والاجتماعية، ولا سيما أن صناعها يتوالى رحيلهم بالتدريج يوما بعد يوم، حيث تنطمس حينذاك الوثيقة التاريخية الشفوية ومعها الحقيقة التاريخية.

- رواية شفوية :الراوي مجاهد من مجاهدي الثورة السورية الكبرى 1925م الشيخ أبو علي سليمان العيسمي، يمتلك مخزونا فكريا ومعرفيا وذاكرة متميزة)سليم الحواس –متزن اجتماعيا واخلاقيا –صادقا -مشهود له بالوطنية والاستقامة (والرواية تعود الى زمن احداث الثورة السورية الكبرى 1925والمكان قرية امتان التابعة لمنطقة صلخد –محافظة السويداء، تاريخ رواية الراوي1978 م.
- نص الرواية :في ربيع عام 1927 بعد المقاومة البطولية للاحتلال الفرنسي في معارك الكفروالمزرعة والمسيفرة ،تمكن الاحتلال الفرنسي من بسط سيطرته على سائر أنحاء سوريا ،وتشتت ثوار جبل العرب والتجؤوا الى الكهوف والخرب خوفا من ملاحقة الفرنسين لهم، وقبل لجوء ثوارجبل العرب الى الأردن، كانت قرية امتان إحدى القرى التي تزود الثوار بالمؤن والذخيرة، حيث يجمع النشطاء من الأهالي المؤن الغذائية سراً وبمشاركة نساء القرية في اعداد ها وتجهيزها، ويرسلونها الى مكان تجمع الثوار في)خربة غرابة، وذلك بواسطة)الجمال (التي يرعاها البدوي بشير الشراري، وكان مكان جمع المؤن يومئذ بدار علي يوسف المصفي، شاهد المخبر السري)س (عودة ناقة البيرق عائدة بلا أحمال قبل طلوع الفجر قادمة من غرابة ومعها حسين المصفي، فأسرع الى تل الخضرالقريب من قرية امتان حيث تتمركز القوات الفرنسية وأخبرهم بأنه شاهد ناقة البيرق عائدة بعد أن أوصلت المؤن للثوار في مكان تجمعهم مضيفا لمشاهدته وشاية تتضمن بأن علي المصفي يمتلك بارودة قديمة.

جهز الفرنسيون دورية مداهمة بقيادة ضابط فرنسي وجنديين احدهما سنغالي والآخر مغربي، مهمتها تفتيش منزل علي

المصفي، حيث أمر الضابط الفرنسي بالتفتيش على البارودة في التبان بجانب المنزل كما جاءته المعلومة، وأمرعلي المصفي القيام بالعمل وتحت مراقبته، وفعلاًنفذ الأمر وأخذ الشاعوب وبدأ يذري التبن مثيراً زوبعة من الغبار بقصد إزعاج قوة المداهمة، ولكن هذه الحيلة لم تفلح وبقي الضابط ومعه الجنود مراقبين وعندما أصبح قريباً من البارودة أخذت يداه ترتجفان من الخوف وبخاصة عندما سمع الضابط يقول) :إذا وجدنا البارودة ، لدينا أمر بإعدام صاحبها فوراً بالرصاص(، شعر السرجان المغربي بعلامات الخوف من حركات علي المصفي، فأخذ الشاعوب منه وتابع العمل، عند ذلك أطمأن الضابط من متابعة العمل وخرج من التبان ينتظر نتائج التفتيش، وبينما كان السرجان المغربي يتابع عمله، اصطدم الشاعوب بالجزء الخلفي للبارودة وتوضحت معالمها، وتابع العمل عكسيا لإخفاء البارودة بمراكمة التبن فوقها و انتهت مهمة التفتيش بعدم العثور على البارودة ، ونقل الجنديان السنغالي والمغربي للضابط الفرنسي نتائج التفتيش في التبان بعدم العثور على البارودة :عند ذلك اغتاظ الضابط وأمر بحرق الدار . حيث تم حرق الأثاث بالكامل أولاً ومن ثم الأبواب، ومن شدة الحرارة انقطع الحنت الحجري البازلتي ومالت الجدران ولكنها بقيت متخلخلة وغير صالحة للسكن حتى عام 1982م حيث رممت، ومازال الحنت المقطوع شاهدا حتى الآن.

5. الطريقة المنهجية لتحليل الرواية السابق ذكرها
1. حقيقة وجود الاستعمار الفرنسي على أرض سوريا.
2. الزمان :الانتداب الفرنسي على سوريا وبالتاريخ - 1927المكان قرية امتان
5. وجود مخبرين سريين وعملاء لصالح الدولة الاستعمارية لأسباب منها ضعف الوازع الديني أو الوطني أو المعاشي.
8. قوة تأثيرالشعور القومي والإنتماء العربي بين أبناء الأقطار العربية)المغرب وسوريا .(وتعاطف السرجان المغربي دليل واضح على ذلك مهما اشتدت الأزمات.
26. عدم قناعة جنود المستعمرات بالخدمة الإجبارية لصالح الدولة المستعمرة.
27. صدق الراوي في ذكر الرواية وتنوع مصادرها الشفوية وتناقلها للأجيال وعدم تحيزها لأي جهة.
11. تعاطف السرجان المغربي مع الثوار الوطنيين واستهزاؤه من المخبر السري وتصرفاته اللاوطنية.

6. تعاون العشائر البدوية مع الأهالي والثوار.
16. دور المرأة السورية في رفع الروح المعنوية للثواروإعداد المؤن لهم.
28. استمرارية الثورة السورية وعدم استسلام الثواربالرغم من سيطرة فرنسا على معظم مناطق سورية.

ك. لجوء الثوار الى المنفى (الاردن) لمتابعة تحقيق اهداف الثورة بالحرية والاستقلال.

هناك روايات شفوية عديدة تحتاج الى كتابتها منها: اغنية معذى المغوش للامير فيصل بن الحسين التي تحمل معاني وطنية معبرة استنادا لشعور قومي عربي اصيل وذلك اثناء توجه 300فارس من جبل العرب الى مقرالامير فيصل في العقبة استعدادا للمشاركة الفعالة في الثورة العربية الكبرى على الاتراك ال عثمانيين1916 م تقول الاغنية:

يامير ما ودها سكوت لازم تزوربلادنا
لا بد ع جلق تفوت وتشوف عج طرادنا
من مصرلساحل بيروت لنجد لبغدانا
لاجلها نحيا ونموت ونحمي حمى اجدادنا

هذا النشيد الشفوي الموثق يجب ان يحلل منهجيا ويدرس في المناهج الرسمية لانه يتضمن الحرية والاستقلال للبلدان العربية كاملة.

6. الهدف المتوخى من دراسة وتحليل وتأريخ الرواية الشفوية

إن مجالات البحث المتصلة بمضمون الرواية الشفوية تساهم بتجديد نظرتنا الى قضايا تاريخنا الوطني. وإن ما كتب عن تاريخنا المعاصر أعتمد على مصادر ومراجع تناولت الأحداث الكبرى، كمعارك الكفر والمزرعة والمسيفرة، في حين ظلت الاحداث الفردية من صناع الحدث الوطني هامشية وغائبة على الرغم من اهميتها، هذا ما يتطلب إعادة كتابة التاريخ من جديد وفق وثائق وروايات شفوية، الامر الذي يفرض على الباحث الرجوع الى الروايات وتحليل مضمونها التاريخي وفهم دلالاتها الوطنية والاقتصادية والاجتماعية. والتماس العون من نظريات ومنجزات العلوم الاخرى ذات الصلة كعلم الاحصاء والخرائط على سبيل المثال حتى يتسنى له صنع المفاهيم مع العلم إن الدراسات الأكاديمية التي تتعلق بالرواية الشفوية وتأريخها مازالت محدودة، الأمر يتطلب لفت نظر الجامعات للاهتمام بها وتدريسها والقيام بأبحاث منهجية لها من نقد تاريخي -باطني ايجابي وسلبي- مما يجعل الرواية اشبه بمنجم للمادة الاولية التي تتحدد قيمتها وفق امكانيات ومقدرات الباحث التاريخي الذي يتمكن من سماع الرواية وتدوينها بعد الحصول على معلومات جديدة.

وعلى الرغم من الشكوك التي تتولد في ذهن الكثيرين حول الرواية الشفوية فإننا

نقول مع المؤرخ (هنري جونسون) لا شيء مؤكد وان كل شئ يجب اثباته وهذا يتطلب مهنية في الاجابة على الاسئلة التالية من الذي يروي الرواية؟ الى من يتحدث؟ ولماذا يرويها؟ هل هو حر؟ في اي عصر؟

ثم تاتي عملية التركيب والتي تمثل ذروة البناء التاريخي وتكمن براعة الباحث في صناعة البحث في الربط بين المعطيات وتنظيمها وتحريرها حتى يكون لها معناها العام وتثير عملية التركيب التاريخي عدة قضايا من أبرزها التعليل الذي يقود الى الصيغ العامة التي تشبه القوانين الاجتماعية.

7. المصاعب في توثيق التاريخ الشفوي

إن الوصول الى الحقيقة التاريخية عن طريق الرواية الشفوية ليس بالأمر السهل على أي باحث مهما كانت مقدرته وخبرته الواسعة وذلك لصعوبة تحليل الروايات واستخلاص المعطيات التاريخية منها، وهذا يتطلب المثابرة والممارسة والصبر والتركيز كما يتطلب منهجية علمية متكاملة لكي تتحول الى مصدر اساسي للدراسات التاريخية العلمية، هذه المنهجية العلمية لم تعد ترفا لأي مؤرخ او أي باحث بل اصبحت ضرورة ملحة لفهم الاحداث التاريخية فهما موضوعيا.

والمصاعب تتركز في الحصول على المعلومات والوثائق وذلك من خلال شخصية الراوي وما لديه من معلومات متنوعة، علماً بأن معظم مصادر المعلومات التاريخية تكمن في الكم الهائل من الروايات الشفوية المتوفرة من خلال الصحف والمجلات المحلية والاجنبية والمقابلات مع عدد كبير من الشخصيات وغيرهم ممن أدوا بشهاداتهم وأحاديثهم عن مختلف القضايا والموضوعات التي تتعلق بالثورة السورية ومن الاذاعة والتلفزيون من خلال المقابلات الشخصية والمتلفزة التي اجريت مع عدد من الثوار خلال قرن من الزمان و شهود عيان من الذين عاصروا فترة الانتداب الفرنسي لسوريا.

قد تكون الرواية الشفوية هي المصدر الوحيد لحدث ما وقد تختلف مع الوثائق المكتوبة والارجح ان الروايات الشفوية تصحح المكتوب اما العكس فهو نادر الحدوث. ويمكن اجمال اشكاليات تطبيقات التاريخ الشفوي في عدة مستويات منها:

مستوى ثقافة المجتمع ومستوى شخصية وثقافة الباحث ومستوى شخصية وثقافة الراوي هذا وإن للراوي أهمية كبيرة في مجال التاريخ الشفوي إذ يعتبر المصدر الاول للرواية الشفوية وهناك معايير للباحث قبل تدوين الرواية الشفوية منها:

أن يتمتع الباحث التاريخي بالمصداقية والموضوعية، وان يكون متفتح الذهن، وان يكون تفكيره محررا من التحيز او الجمود، وان يتفهم ويحترم آراء الاخرين

ولو تعارضت مع ارائه الشخصية، وان لا يستسلم لضغوط الخرافة ولاسيما اذا كانت افكارا خاطئة وغيرسليمة، وان تتوفر لديه الرغبة للمعرفة، وان يبحث باستمرار عن اجابات صحيحة لتساؤلاته، وان يتوخي الدقة قبل تدوين الرواية، وان لا يؤمن بتفسير الحوادث اعتمادا على عامل الصدفة بل يبحث عن مسبباتها الحقيقة رافضا كل تفسير خرافي او غامض، وان يتوصل الى صحة الحدث عن طريق العمليات الادراكية والمقارنه وقدرتها على التميز بين الحقيقة والموضوعية والاسطورية.

فكتابة التاريخ الشفوي يعترضه اشكاليات عديدة يمكن صياغتها في بعض هذه التساؤلات التالية: ما مكانة التاريخ الشفوي بين بقية المصادر التاريخية؟ ومتى نلجأ الى الرواية الشفوية؟

ومتى نعتمد عليها؟ ما المناهج الأكثر أصالة وموضوعية في نقد وتحليل الرواية الشفوية؟

متى تكون الرواية الشفوية داعمة للوثائق أو معارضة لها وكيف يمكن للرواية الشفوية الكاشفة للحقائق التاريخية التي غابت من المصادر الاخرى أن تظهر حقيقة الحادثة التاريخية؟

8. التاريخ المرئي

التاريخ المرئي: وهو السينما والتلفزيون وشبكة الانترنت. على الرغم من ازدهار الكتابة التاريخية، وصدور وطباعة الاف الكتب، عن الاف الموضوعات التاريخية في العالم، ومن ثم اختراع السينما، ثم التلفزيون، واخيرا شبكة الانترنت، والتي أدت الى تغيرات جوهرية في استعداد جماهير المتعلمين والمثقفين الى زيادة الرغبة في المعرفة التاريخية، التي لم تتضاءل، وانما ازدادت توهجا بسبب هذه الاختراعات الجديدة، والتي قدمت معلومات من نمط جديد يسمى التاريخ المرئي.

مع العلم بان هناك تاريخاً مرئياً موجوداً سابقا، من خلال الرسومات والتماثيل والمنحوتات وغيرها، ولكنها تعتبر تاريخاً مرئياً جامداً.

هذا وللحقيقة يمكننا القول: بان المسلسلات التاريخية التلفزيونية نجحت في اشباع الجوع التاريخي لدى معظم الناس وولدت الرغبة في الحصول على المزيد من المعرفة التاريخية بالرغم من عدم دقة بعض وقائعها.

هناك قنوات عالمية خاصة متخصصة في التاريخ، تبث افلاماً وثائقية، تغني التاريخ المرئي، وتكشف الإحصائيات ان تلك القنوات استطاعت جذب عدد كبير من المشاهدين. بالرغم من الخلفيات السياسية لبعض القنوات مما يدل على تقدم التاريخ المرئي على حساب التاريخ المكتوب والمسموع، ولكن رغم تقدمه الى مركز الصدارة، لكنه ليس البديل لها.

وأصبح المتلقي من الوسائل المرئية والمسموعة، هو المصدر الرئيس للتزود بالمعارف الثقافية، ومن ناحية اخرى نلاحظ تراجع جمهور القراء الذين كانوا يعتمدون على المراجع المكتوبة في الوصول الى الحقيقة التاريخية. مما يترتب على ذلك عدم التدقيق في المعلومات من مصادرها الاصلية والموثقة، مما يؤدي في نهاية المطاف الى خروج اجيال مشوهه فكريا وثقافيا وسلوكيا.

فالكتاب يقدم رواية شخص واحد للحقائق التاريخية، بينما يقدم الفيلم التاريخي رؤية فريق متكامل من المتعلمين والفنانين، وتعكس وجهات نظر الفريق الذي ينتج هذا الفيلم.

اما الدراما التاريخية والتي تتناول حقبة تاريخية معينه، فهي تسلط الضوء على حدث تاريخي ما، وفي طيات هذا العمل، ينسج هاله من الدراما والاحداث جزء منها صحيح والجزء الاكبر غير موثق تاريخيا، فينشأ النشء على سير باطلة، وبطولات مزعومة، وتاريخ مشوه.

لذا يجب ان يكون هناك مؤسسة متخصصة علمية لتقييم اي فيلم تاريخي وذلك حسب منهجية البحث العلمي في التاريخ، تأخذ في عين الاعتبار خطوات المنهج العلمي في التوثيق التاريخي.

لنأخذ مثالا فيلم مذكرة وطن للمخرج امين البني هذا الفيلم تصدى لمهمة جليلة، الا وهي توثيق التاريخ الوطني بجانبيه السياسي والاجتماعي، وخطوة رائدة على طريق ارشفة التاريخ وتوثيقه، ويجب ان تتبعها خطوات اخرى، وان تتضافر جهود لا نجاز هذه المهمة الجليلة. ولكن نجد ان المخرج ركز على مراحل تاريخية، وأهمل مراحل تاريخية أكثر اهمية، مثل دخول الجيش العربي الى دمشق 1918حيث أغفل الفيلم وصول كوكبة من فرسان جبل العرب ورفعهم للعلم العربي على دار الحكومة بيد المجاهد صالح سليمان طرابيه قبل يومين من وصول فيصل والقوات البريطانية المتحالفة معه، وذلك بعد ان انتصرت في طريقها على الاتراك في معركة تل المانع الشهيرة والتي أسر (فرسان الغارية) فيها الضابط رضا الركابي.

كما أغفل المخرج انشودة معذى المغوش المشهورة في المرجة بدمشق

عرش المظالم انهدم والعزطب بلادنا
راحت عليكم يا عجم خوض المعارك دأبنا
نحن حماتك يا علم بارواحنا واكبادنا

هذة الواقعة تؤكدها الوثائق والكتب التاريخية المتعلقة بتاريخ تلك المرحلة.

وبما اننا نعيش اليوم في خضم فوضى فكرية تجتاح حضارتنا، ووجود افلام تصنع في خضم هذه الفوضى العارمة، فنحن اليوم بأمس الحاجة الى العقل والحذاقة والنقد في معالجتها، معالجات

هادئة بعيده عن التوجهات السياسية او القناعات الأيدولوجية او السذاجات الاجتماعية، وصد كل ما يحصل من تشوهات وتزوير واخطاء لا يتقبلها المنطق والعقل ولا حقائق التاريخ.

9. الخاتمة

يسلك الباحث المؤرخ في سبيل الوصول الى مصداقية حقيقة تاريخية ما، منهجاً وطريقاً وعراً وشاقاً، فالباحث المؤرخ عليه أن يخطو خطوات متتابعة متلازمة ومتداخلة عند نقده وفحصه لتلك المصادر التاريخية ظاهرياً وباطنياً.

إن نقد الوثائق عموماً هو منهج فحص وتحقيق لدليل مادي لا روح فيه دُوّن قبل ثلاثين عاما أو قبل عشر سنوات...الخ، بينما نقد الراوية في التاريخ الشفوي وفحصها يكون آنياً ووقتياً. وما أكثر الروايات الشفوية في منطقتنا وخاصة الملاحم البطولية الوطنية التي هي مصدر اعتزاز لنا ولأجيالنا في المستقبل، وعلينا المساهمة بجد واجتهاد وتعاون مع الجهات الاكاديمية العلمية لتتحول الرواية الشفوية الى كتابية لتشكل دعما للحقيقة التاريخية المنشودة.

لا شك إن التعامل مع الرواية الشفوية عمل مضن وشاق يتحمل فيه الباحث مجهودًا كبيرا ومسؤولية وتبعات أخطاء كثيرة، إلا أن المتعة تكمن في انجاز العمل ومن ثم نشره، وحث الدارسين للاهتمام به، ليعيد التوازن الى الكتابات التاريخية، من خلال إ الاهتمام بأعمال الفئات والطبقات الدنيا (مرقعي العبي).

لا تزال الى اليوم الكتابة في مجال التاريخ الشفوي على أهميتة غائبة عن كثير من الدراسات التاريخية، على الرغم من توفر المبادرات الفردية في ميادين الإعلام التي وظفت تقنيات التاريخ الشفوي في كتابة التاريخ السياسي والسير الذاتية والتراجم، لكنها في الحقيقة تفتقر الى المنهجية العلمية بسبب أهوائها وإنحيازها. وبلا شك، بإمكان جميع الدول ان تستعيد كثيرا من وقائع تاريخها وبشكل اساسي بالاستناد الى التاريخ الشفوي أكثر من التاريخ المكتوب.

وفي الوقت الحاضر تسعى مؤسسات المجتمع المدني، ومنها الجمعية التاريخية بالسويداء، الى تقصي الحقائق ومتابعتها لإبراز حركة التاريخ بوصفها حركة مستمرة من خلال إسناد الوثائق المكتوبة بمقابلات شفوية لتلك الوثائق، لكن نجاح جهودها وتطوير أداءها يعتمدان على وجود حافز للقيام بتدوين تاريخ من لا تاريخ مكتوبا لهم أولا، والظروف الحالية التي نعيشها اليوم ثانيا.

(.... ولا بد من التأكيد مجدداً على أن هناك تحديات لا حصر لها تواجه التأريخ الشفوي ومنهاجيته العلمية. ولمجابهة تلك التحديات، لا بد من مؤرخ بارع في إتقان عمله ومتميز في بحثه، متدرب على اعداد الجداول العلمية وطرق الافادة منها،

وكيفية تحويل المقابلة الشفوية الى نص مكتوب يستفيد منه الاخرون معتمدا على التحليل لا السرد وصولا الى استنتاجات علمية قابلة للتعميم .....)

وعلينا المطالبة بتدريس التاريخ الشفوي في جامعاتنا، وتدريس المنهجية العلمية في التوثيق التاريخي وحث طلاب الدراسات العليا وطلاب اطروحات الدكتوراه في التاريخ، على اعتماد التاريخ الشفوي كمصدر اساسي من مصادر التاريخ، وتطبيق منهجية البحث والتوثيق في التاريخ المرئي.

تقديم كتاب "الكتابة التاريخية"

ترجمة محمد حبيدة

عادل النفاتي طالب دكتوراه كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

صدر المؤلّف "الكتابة التاريخية" للمؤرخ والمترجم محمد حبيدة عن دار النشر "إفريقيا الشرق" سنة 2015، في طبعة ثانية منقحة لطبعة سابقة صدرت قبلها بعشر سنوات. امتد الكتاب على 239 صفحة من التقطيع المتوسط، وقسّمه صاحبه إلى مقدمة وثلاثة فصول متوازنة من حيث الحجم. وأردفه بمعجم قيّم تضمن مفاهيم ومصطلحات متداولة في علم التاريخ والإنسانيات بصفة عامة، وبقائمة بيبليوغرافية ثرية من شأنها أن توجه القرّاء والمهتمين نحو إحالات مرجعية ذات قيمة معرفية قيّمة. أما صاحب الكتاب فهو أكاديمي متخصص في التاريخ الاجتماعي وله اهتمامات متصلة بالأنثروبولوجيا التاريخية والمناهج والترجمة. كان قد شغل خطة أستاذ زائر بجامعة "فرانسوا رابلي" بتور بفرنسا، وكانت له عدة مساهمات بحثية في ندوات دولية احتضنتها منابر جامعية مختلفة. عُرف عنه حذقه اللغتين: العربية والفرنسية، ما أتاح له ترجمة عديد المقالات من الفرنسية إلى العربية.

ضمّن محمد حبيدة مؤلفه اثني عشر مقالا مترجما من الفرنسية إلى العربية لأساطين المعرفة التاريخية والإنسانية، الذين برزوا في الوسط الأكاديمي الفرنسي ووُسموا فيما بعد بكتّاب "التاريخ الجديد La nouvelle histoire ". إذ عرفوا بكتاباتهم ونظرياتهم المجدّدة وتطرقهم إلى مباحث معرفية غير مسبوقة بالنسبة إلى معشر المؤرخين الكلاسيكيين: كالتاريخ والعلوم الاجتماعية والتاريخ والذاكرة وتاريخ العقليات أو الذهنيات. نوّه الكاتب في مقدمة كتابه بتطوّر الكتابة التاريخية الفرنسية خلال القرن العشرين، أو ما سمّاه ب"التوجهات الإسطوغرافية المعاصرة"، مثنيا على جرأة عدد من المؤرخين في الخروج عن دوائر البحث المألوفة، تلك التي غدت ضيقة، وغلب على نتائجها التكرار والاجترار. فتوسعت لتطرح اهتمامات أخرى مستحدثة شغلت المهتمين في اختصاصات متنوعة، جاعلة الكتابات التاريخية الجديدة محل متابعة من طرف الجميع. ولقد انطلق هذا التجديد بصفة جليّة كما هو معلوم مع ظهور مجلة "الحوليات" الفرنسية سنة 1929، وكان من رموزها آنذاك كل من مارك بلوك ولوسيان فيفر. وتأكدت تلك التجديدات مع ظهور نتائج المؤرخ المجدّد فرناند بروديل صاحب المؤلفات الغزيرة التي عنيت بتاريخ الشعوب المتوسطية وثقافاتها وحضارات العالم، والتي ضمّنها رؤيته

الجديدة للزمن، الذي قسّمه إلى أصناف ثلاثة: ففي الصنف الأول نجد الزمن الجغرافي وهو زمن ثابت و راكد، يطلق عليه بعض المؤرخين صفة الزمن الطويل. وهو تاريخ يعنى بدراسة جوانب من حياة الجماعات البشرية في علاقتها بالمجال الجغرافي وأثرها عليه، حيث يكون فيه نسق التبدل بطيء، وثانيا الزمن الدوري وهو الذي يراقب ويدرس الأحداث الدورية كالدورات الإنتاجية والدورات الديمغرافية أو الدورات البيولوجية، وثالثا الزمن الفردي أو زمن الأحداث الذي يعنى بالأحداث السياسية والعسكرية والديبلوماسية وهو تاريخ ذو ذبذبات قصيرة على حد تعبير المترجم. ولقد بدا لمحمد حبيدة أن التحوّل الكبير والفارق الذي طرأ على علم التاريخ هو تحول اتجاه اهتمام عدد من الباحثين نحو مواضيع الزمن الطويل والقضايا المتصلة بالشعوب والأفكار والتمثلات والذهنيات والحياة اليومية ومشاغل الفئات المهمشة بدلا عن تاريخ الحكام والزعامات والبلاطات والحروب. ولقد دفع التجديد الطارئ على انشغالات المؤرخين في مرحلة أولى إلى الانفتاح على مناهج بحث جديدة متناهجة مع علم التاريخ بمختلف صنوفه: من اقتصاد وجغرافيا وإثنولوجيا وأنثروبولوجيا وعلم اجتماع وعلم نفس وفلسفة، كلها عوامل ساهمت في صياغة معالم طريق ما وسم ب"التاريخ الجديد".

قُسّم الكتاب كما أسلفنا إلى ثلاثة فصول، تضمن كل واحد منها أربع مقالات مترجمة تتحرك ضمن سياق معنوي واحد. فتحت عنوان "التاريخ والعلوم الاجتماعية"، تضمن الفصل الأول المقالات التالية: الأول "التاريخ والإثنولوجيا" لفرنسوا فوري، والثاني بعنوان "التاريخ والمنهاج المقارن" لجوفري بركلوف، والثالث "من التاريخ السردي إلى التاريخ الإشكالي" لفرناند برودال، والرابع بعنوان "من الأنثروبولوجيا الى الأدب" للكاتب الأمريكي كينيث براون. عملت هذه النصوص جميعها على إبراز انفتاح علم التاريخ منذ مطلع القرن العشرين على بقية التخصصات الأخرى القريبة منه والتي ذكرنا أمثلة منها في الفقرة السابقة، ولقد قاد تلك المرحلة عدد من المؤرخين المجددين من أمثال فرناند برودال وجورج دوبي وبيير شوني وجاك دوباكي وغيرهم، ثم عاينا انفتاحا على انشغالات معرفية أخرى مستلهمة من تخصصات إثنولوجية: كاللباس والأغذية والأمراض والعائلة والجنس والأقليات والمهمشين ودراسة السلوكات والموروثات و أنساق القيم.

اهتم الفصل الثاني بمسألة "التاريخ والذاكرة" وفيه أورد الكاتب مقالا لبيار نورا بعنوان

"الذاكرة الجماعية" التي تأخذ حسب ترجمة محمد حبيدة "صورة ذكرى أو مجموعة ذكريات واعية أو غير واعية لتجربة معاشة أو مشبعة بحمولة أسطورية، قوامها هوية جماعية ذات ارتباط وثيق بالإحساس بالماضي". وقارن الكاتب في مقاله بين "الذاكرة التاريخية" و"الذاكرة الجماعية" وتبين له أن الذاكرة الجماعية هي "ما تبقى من الماضي في معاش الجماعات أو ما يتمثل بشأنه.... [وهي]إرث غير قابل للتصرف، وفي الوقت ذاته سهل الاستعمال وأداة نضال وسلطة، بل أيضا رهان انفعالي ورمزي". وعلى العكس من ذلك، فإن الذاكرة التاريخية تمتاز بالوحدة، فهي ثمرة تقليد معرفي و"علمي". وفي المقال الثاني الذي اتخذ عنوان "التاريخ والذاكرة" لبول ريكور، تحدث الكاتب عن أسس التمثل التاريخاني للماضي، متناولا في نفس السياق مواضيع متصلة بالمسألة كالفرق بين "الذاكرة الفردية" و"الذاكرة الجماعية".وعرّج المترجم على تعريف أصناف الذاكرة فقسمها إلى ثلاثة مستويات: وهي "الذاكرة المحظورة" و"الذاكرة المدبّرة" و"الذاكرة المرغمة". وحول اختلاف التمثلات للماضي بين الذاكرة والتاريخ أورد حبيدة أن الذاكرة "تمتاز باستعراف الماضي كشيء موجود ومنعدم في ذات الوقت، أما التاريخ فيحظى بالقدرة على توسيع النظرة في المكان وفي الزمان، بقوة النقد ضمن تسلسل الشهادة والتفسير والفهم....بإقرار الإنصاف بالنظر إلى الادعاءات المتنافسة للذاكرات المجروحة وأحيانا اللامبالية بمأساة الآخرين". وتضمنت المقالة الثالثة ضمن هذا الفصل دراسة لأهمية الرواية الشفهية من منظور فيليب جوتار الذي دعا إلى إعادة الاعتبار إلى النص الشفهي، حيث كان للباحثين الأمريكيين السبق في هذا الاتجاه، خصوصا عندما انكب عدد منهم على العودة إلى دراسة شهادات العبيد السود في دراسة التاريخ الأمريكي. وتضمنت المقالة الرابعة نصا بعنوان "التاريخ الفوري" أو ما سمي أيضا ب "التاريخ الراهن" لبرناربيلار.

انشغل الكاتب في الفصل الثالث ب "تاريخ العقليات" فأورد مقالة أولى بعنوان "العقليات" لجاك روفال، ومقالة ثانية بعنوان "العقليات تاريخ مبهم" لجاك لوقوف ومقالة ثالثة بعنوان "العقليات واللاشعور الجماعي" لميشال فوفيل، ومقالة رابعة بعنوان "الأنثروبولوجيا التاريخية" لأندري بورقيار. ولقد شدّدت هذه النصوص على ثراء حقل "تاريخ العقليات" كمجال بحثي يلتقي فيه التاريخ الاجتماعي بتاريخ الأنساق الثقافية، ممّا يتيح إمكانيات متنوعة لمعالجة ودراسة المواقف إزاء مسائل أرّقت الإنسان منذ وجوده في هذا الكون: كالحياة والموت والمعتقد والطقوس والتقاليد. وفي هذا الفصل عاد

الكاتب إلى دراسة نتائج عدد من الباحثين الذين اشتغلوا على هذا الصنف من المواضيع كجون هوزينغاو نوربير إلياس وجاك لوغوف وفيليب جوتارو وميشيل فوفيل وغيرهم. كما نوّه ضمن هذا الفصل بتنويع الباحثين الجدد لمصادر بحوثهم وعدم الاكتفاء بالوثائق المكتوبة، إذ لجأوا إلى استخدام كل المخلفات المادية والمشاهد الفنية والروايات الشفهية وحتى الفولكلورية.

عموما يعد كتاب "الكتابة التاريخية" من منظورنا مدونة ذات قيمة معرفية مهمة يحتاجها الباحثون في حقول المعرفة الإنسانية للاطلاع على نشوءعدد من الحقول النظرية الغربية وتطوّرها، وما تتيحه من مسارب جديدة نحو آفاق أرحب في دروب المعرفة المتبدلة أصلا والرافضة للمهادنة. ولا يمكن أن نختم دون أن نشيد بصبر الكاتب وأناته في مكابدة صعوبات الترجمة والنقل لنصوص غلب عليها الطابع النظري، لأجل بلوغ ترجمة مفيدة تكون حقا جسرا آمنا لبلوغ المهتمين العرب لمعارف "الآخر اللغوي".